١

مشى الفراش هونا على البساط الأحمر فى الممر الطويل ، وهو يحمل صينية فاخرة عليها كنكة قهوة فى لون الذهب ، وفنجان أنيق مذهب ، وكوب ماء فى شكل البرميل ، حتى إذا بلغ غرفة رئيس مجلس الإدارة والعضو المنتدب طرق الباب فى رفق ، ثم أدار مقبضه ودخل إلى غرفة فسيحة فى صدرها مكتب فخم يملأ مساحة كبيرة من الغرفة ، وفى الزاوية التى إلى يمين الجالس خلفه أرفف من نفس خشب المكتب صفت فيها كتب وأضابير ، ووضعت فوق سقفها زهرية من بلور متوسطة الحجم دقيقة الصنع ، بها بعض زهور الجلاديوس ، وعن يساره إطار فاخر به القرآن الكريم فى صفحة واحدة .

وتقدم الفراش من الرجل الجالس خلف المكتب فى صمت ، ووضع الفنجان عن يمينه ، وصب القهوة فيه ، وهم بوضع كوب الماء ولكن الرجل أشار له ألا يفعل ، فأعاد الكوب إلى الصينية ، ودار على عقبيه وانساب بين المقاعد الجلدية الوثيرة حتى غادر الغرفة .

ورفع شوقى بك الفنجان فى عدم اهتمام ، وراح يرشف منه وهو يمد عينيه إلى الصورة الموضوعة أمامه فى إطار من الجلد فى أسى عميق ، ويزفر زفيرا حارا كأنما يلفظ ذوب نفسه ، واستمر ينظر إلى الصورة وهو شارد الذهن ، وإذا بحياته كلها تمر فى خياله فتؤجج انفعالاته ، وترسم على صفحة وجهه لوعة ويأسا مريرا .

وكان شوقى فى الثانية والخمسين ، أسود الشعر لم يعرف الشيب طريقه إلى

رأسه ، أسود العينين يأتلق فيهما بريق ذكاء ، كبير الأنف ، ضامر الجسم ، لا هو بالطويل ولا بالقصير ، أنيقا يعتني بثيابه ، يرتدى بذلة سوداء وكرفاتة سوداء ، وفى جيب الجاكتة منديل أبيض يبدو منه طرفه كشريط ضيق أبيض امتد بطول الجيب ، وكان متناسقا مع ما ظهر من أساور القميص من تحت أكمام الجاكتة .

وفُتِح باب جانبى مغطى بجوخ أخضر ، به دائرة صغيرة من زجاج تسمح برؤية ما يجرى داخل الغرفة ، ودخلت منه السكرتيرة ، وما أحس بها حتى رفع عينيه عن الصورة والتفت إليها ، فإذا بها تتقدم فى حذر حتى لا تهتك ذلك الجو الشاحب الحزين الذى ران على الغرفة بعد أن كان المرح ينبض فى جنباتها .

ووقفت بالقرب من المكتب وقالت :

ـــ دعوة للعشاء الليلة فى شبرد الساعة التاسعة . .

فرماها بنظرة فاحصة وقال :

ـــ ألم أطلب منك فى الصباح الاعتذار عن عدم تلبية هذه الدعوة ؟!

ـــ لم أعتذر بعد .

ـــ لماذا ؟

فقالت كأنما تتوسل إليه :

ـــ أرجو أن تذهب ، إنها حفلة تكريم لوفد سبق أن احتفى بك فى بلاده .

وصمت قليلا وأطرق ، لم يكن يفكر فى الذهاب ، بل كان منفعلا بتلك المشاعر النبيلة التى زخر بها حديثها القصير ، إنها تحس ما يكابده من وحدة ، وتريد أن تدفع به إلى الناس الذين يحبهم ويحبونه . وعكر ذلك الانفعال الذى آنس إليه شعوره بأنه أصبح موضع عطف فتاة صغيرة فى مثل سن أصغر

أبنائه ، وصوب عينيه إلى الصورة الموضوعة أمامه ، ثم مد بصره إلى السكرتيرة وقال :

ـــ أرجوك أن تعتذري الآن عن هذه الدعوة ، فأنا ذاهب لعزاء بعض معارفى .

فقالت الفتاة فى ضيق :

ـــ أرسلت برقيات تعزية لكل من أشرت بإرسال برقية إليه ، وأظن أن فى البرقية ما يكفى للتعبير عن مشاطرتك لهم فى الأحزان .

فقال وهو يزفر فى صوت مسموع :

ـــ واجب العزاء مقدم على كل ما عداه من واجبات .

وتيقنت أنها لن تستطيع أن تثنيه عن عزمه ، فهى تعرفه إذا قرر شيئا لا يحيد عنه وإن تظاهر أحيانا بأنه لا يتمسك بقراراته ، وإن أفسح صدره لكل رأى وكل معارضة .

وانصرفت في هدوء ودلفت إلى حجرتها من الباب المغطى بجوخ أخضر ، وإذا بزميلتها الجالسة خلف آلة الكتابة تقول فى لهفة :

ـــ ماذا فعلت ؟

فقالت السكرتيرة وهى تجلس خلف مكتبها وتمد يدها إلى التليفون :

ـــ أصر على الاعتذار .

واعتذرت السكرتيرة عن عدم حضوره ، ثم قالت لزميلتها :

ـــ ما يحيرنى أن حزنه يزداد يوما عن يوم ، أفهم أن يحزن عند موت زوجته ثم يخف هذا الحزن بمرور الأيام ، أما أن يشتد ذلك الحزن كلما بَعُدَ يوم المُصاب فهذا ما لا أفهمه . إنه لا عمل له إلا أن ينظر إلى صورة زوجته ويسرح خياله ، حتى أنى فكرت أن أخفى هذه الصورة رحمة به ، إنه يعذب نفسه .

فقالت الفتاة الجالسة خلف آلة الكتابة :

ـــ إياك أن تفعلى .

ـــ لو كنت أعلم أنه سيغفر لى ما ترددت لحظة .

ـــ كان يحبها . كان وفيا لها .

ـــ وهل الحب يغير القاعدة ؟ الحزن عادة يبلى ، كالنار تتلظى وتندلع ألسنتها ثم تخفت وتموت ، إنى بعد أن ماتت أمى حسبت أن الدنيا ستفنى ..

ـــ موت الحبيب كارثة تهد الإنسان هدا .

وشردت ببصرها وقالت فى أسى :

ـــ كانت أم أولاده .

ورن جرس خافت مكتوم الصوت فى الغرفة ، فنهضت السكـــرتيرة واتجهت إلى الباب المكسو بالجوخ الأخضر ، ودفعته فى رفق ، وتقدمت كالطيف حتى لا ينبعث من وقع أقدامها صوت يمزق سكون محراب الحزن الذى يعيش فيه رجل لم تفارق الابتسامة شفتيه يوما قبل أن يترمل ، وقال لها وهو ينهض :

ـــ أتسمحين لى بالانصراف ؟

فابتسمت وقالت :

ـــ تفضل .

كان كثير الدعابة قبل أن يلبس الكرفاتة السوداء ، وما كان ينصرف قبل أن يستأذن منها ، وقد ماتت كل دعاباته يوم ماتت زوجته و لم يبق منها إلا هذه الدعابة التي أصبحت عادة ، حتى إذا حدث أن انصرف يوما دون أن يستأذن منها ، وقلما كان يحدث ذلك ، كانت تعاتبه فى اليوم التالى ، وقد تشتد معه كما يشتد الرئيس على مرءوسيه !

ومدت يدها إلى جرس قريب وضغطته ، وما أسرع ما فُتِحَ الباب وتقدم الفراش وحمل الحقيبة التي قدمها. شوقى بك إليه وانصرف وهو يوسع من خطوه ، وما خرج من الغرفة حتى أمر فراشا آخر أن يخبر السائق أن سعادة البك نازل .

وتحرك شوقى لينصرف ، وأحست السكرتيرة رغبة فى أن تحدثه ، فى أن تخرجه من قوقعة نفسه ، فقالت له :

ـــ حدد اجتماع لمؤتمر فى لبنان فى الشهر القادم ، وقد أعددت كل الأوراق .

فقال وهو يتجه إلى الباب :

ـــ أفكر فى الاعتذار ..

فقالت فى حدة :

ـــ لا .. ستذهب . إنك لم تتغيب عن هذا المؤتمر أبدا .

ونظر إليها وفرها بعينيه ، فأحست أنها تجاوزت حدودها فقالت وهى تطرق فى انكسار :

ـــ آسفة .

وخيل إليها أنها لمحت مولد بسمة على شفتيه فانشرحت وإن ظلت فى إطراقها حتى غادر الغرفة .

وهبط فى الدرج ، فقلما كان ينتظر المصعد ، وغاب فى السيارة وغاص فى مقعدها ، وما لبث أن رفع ذراعه اليسرى ولفها حول رأسه وراح يعبث بأصابعه فى شعر قفاه ، كانت هذه طريقته كلما أطلق لخياله العنان .

وانطلقت السيارة وهو يفكر فى نفسه ، كان مرحا يحب الدعابة ولا يصبر على البعد عن الناس ، فما باله مكتئبا ، منطويا على نفسه ، ينفر من كل ما كان

يستهويه ، ويكاد يأنس لوحدته ! كان يحب زوجته ، وقد تركت فراغا كبيرا في حياته . ولكنها لم تكن كل شيء في دنياه ، فقد كان كثير السفر ، وكان يغيب عنها أياما كثيرة يعيش خلالها مرحا راضيا سعيدا ، وما كان يستشعر أبدا ذلك الانقباض الذي يلازمه الآن .

كانت زوجة كسائر النساء تحاول أن تفعل كل ما يرضيه ، ولكن عقلها كان يختلف عن عقله ، فكانت تضايقه أحيانا ، وكثيرا ما كانت تثيره بغيرتها إذا غاب عن البيت في عمل من أعماله ، فقد كان خيالها يصور لها دائما أنه ما من شيء يؤخر رجلا عن بيته إلا امرأة . وكانت تقول له في ساعات صفوهما إنها لا تسامحه أبدا إذا كان يخونها ، وقد ألف تفاهتها حتى إنه كان يشتاق إليها أحيانا ، فيتعمد مشاكستها لتخرج ما في جوفها من أوهام وخيالات .

سرح خياله وراح يطوف معها في الأماكن التي كانا يذهبان إليها ، إنه ليذكر أول مرة دخلت فيها الأوبرج ، راحت تتلفت لحظات ثم قالت له في استنكار : أهذا هو الأوبرج الذي يتحدثون عنه ؟! وانطلقا ذات ليلة ليتناولا العشاء في الهلتون ، وبعد أن قُدِم الطعام على أنغام الموسيقى وشربت القهوة الشرقية ، ومدت بصرها إلى عرض الأزياء الذي كان يعرض هناك ، التفتت إليه وقالت بلهجتها الساخرة المستنكرة : هذا هو الهلتون ؟!

وتذكر يوم سافرا إلى لبنان ، أخذتها روعة المناظر في الجبل ، وأنعش روحها جمال الجو هناك ، ولكنها لم تنس طبعها ، فما استقرا في البيت حتى قالت له في نبراتها المستخفة بكل شيء : أهذه هي لبنان ؟! وفي صبيحة تلك الليلة قام من نومه وجلس في سريره والتفت إليها وقال :

— رأيت في المنام أننا متنا وحملنا إلى الجنة ، وكان كل ما فيها يبهر البصر ويخطف القلب ، ولكنك تلفت فيها وقلت وقد لويت شفتك السفلى

استنكارا : أهذه هى الجنة ؟!

كان يحبها ويسكن إليها ويجد عندها راحة واستقرارا ، وهو يستشعر وحشة منذ فارقته ، يحس أنه وحيد حتى وهو جالس فى بيته بين أبنائه ، ترى أيعود انقباضه وميله إلى العزلة إلى موت زوجه حقا أم أن الشيخوخة بدأت تسرى فيه ؟

وقال لنفسه : « سواء أكان ما أحسه يرجع إلى موتها أم إلى الشيخوخة فقد ماتت فى وقت أنا فى أشد الحاجة إليها ، حقا الزوجة ألزم للزوج فى شيخوخته منها فى شبابه ، فعالم الشباب واسع عريض زاخر بالأمل ، بينا دنيا الشيخوخة قد تنحصر فى رفيق » .

ونظر من نافذة السيارة وكانت منطلقة فى طريق الأهرام فوجد أنها دنت من البيت ، فاعتدل فى جلسته يتأهب للنزول ، وإذا بصوته يرن فى جوفه يقول : « أنا بائس ، أصبحت وحدى بلا رفيق » .

ووقفت السيارة أمام فيللا أنيقة من طبقتين ، فهبط منها ووقف ينتظر ، كان باب الجراج مفتوحا وبه سيارة قديمة يعرفها حق المعرفة ، إنها سيارة عماد زميل ابنه أحمد ورفيق صباه ، وكان عماد جالسا خلف عجلة القيادة وإلى جواره أحمد ينظر فى لوحة العدادات ، وخرجت من تحت السيارة فتاة ترتدى « عفريتة » زرقاء وقد تلوثت يداها بالزيت والشحم ، وترك الزيت فى وجهها آثاره ، ولمحته الفتاة وهو يمد عينيه إليها ، فقالت له وهى تلوح له بيدها :

ـــ هالو « دادى » .

فالتفت عماد وأحمد إلى حيث وقف شوقى وألقيا عليه السلام ، وما لبث أحمد أن نهض وقفز من السيارة إلى الأرض فى حركة رياضية ، وذهب إلى أبيه ، وسار إلى جواره نحو باب الفيللا الداخلى ، قال الوالد :

— ماذا تفعل نادية ؟

فقال أحمد وهو يبتسم :

— تطبق العلم على العمل ، أنت الذى شجعتها على دخول الهندسة .

— ألم تبرهن على أنها مهندسة ممتازة فى أكثر من مناسبة .

— والله لن ترجع عن سيارة عماد قبل أن تتلف أملها .

— وما أمل سيارة عماد ؟

فتلفت أحمد فى حيرة وقال :

— أملنا أن تظل سيارة عماد تحملنا دون أن تتعطل ، ولكن عبث نادية الدائم فيها سيقضى على هذا الأمل .

فقال الأب وقد ردت إليه روحه المرحة لحظة :

— إنها ستتلف أملكم .

و لم يفطن أحمد إن كان أبوه يقصد نادية أم السيارة ، و لم يهتم كثيرا بذلك فطبع أحمد ألا يهتم بالدقائق ، قال :

— ليتها تكتفى بتنظيف شموع الاشتعال أو الكاربريتور أو ضبط هوائه ، ولكنها تريد أن تخرط المحرك وتركب مكابس جديدة .

— نجحت نادية فى أن تجعلك مهندسا .

فقال أحمد فى دهش :

— أولست مهندسا ؟

— أوه ! آسف نسيت أنك ستصبح فى نهاية هذه السنة مهندسا زراعيا .

فقال أحمد فى خبث :

— لو كانت نادية ما كنت تنسى .

وفهم الأب أنه يريد أن يخزه ويقول له إنه يحب نادية أكثر منه ، فقال ليرد له وخزه :

ـــ تذكرنا نادية دائما بنفسها ، إنها وهى فى السنة الثالثة تتصرف كأنها مهندسة ذات خبرة ، نادية ناجحة ، وأنا واثق من أنها تستطيع أن تخرط المحرك وتركب له مكابس جيدة ما دامت قالت إنها تستطيع أن تقوم بذلك .

فقال أحمد فى حدة :

ـــ إذا قلت إنى سأزرع الصحراء أتصدقنى ؟

ـــ لا بالطبع ، وإلا كنت مجنونا .

ـــ فلماذا تصدق نادية إذا قالت إنها ستخرط المحرك بنفسها ولا تصدقنى إذا قلت إنى سأزرع الصحراء ؟!

ـــ لأن نادية تفعل ما تعد به .

ـــ وهل وعدت بشىء ولم أفعله ؟

ـــ قلت فى السنة الماضية إنك ستنجح فى البكالوريوس وستكون من المتفوقين ، فلو أنك فعلت لكنت اليوم مهندسا زراعيا مثل عماد .

فأطرق أحمد وقال :

ـــ خاننى حظى .

وكان الأب على يقين من أن أحمد ينهزم سريعا ، فمد يده وعبث فى شعره وقال له :

ـــ لا بأس ! ستنجح هذه السنة وستكون من المتفوقين .

فقال أحمد فى صوت خافت :

ـــ بإذن الله .

كان الأب قد وصل إلى غرفته فى الطبقة الثانية ، فدار أحمد على عقبيه واتخذ طريقه إلى الجراج ، ودخل الأب حجرته وقد طابت نفسه بحديثه مع ابنه ، أحس أنه ليس وحيدا فى هذه الحياة ، بيد أنه ما أن أغلق الباب خلفه حتى تبخر أثر ذلك الحديث وزحف الحزن لينتشر فى جنباته ، فراح يخلع ثيابه فى تراخ ،

وينتقل فى الحجرة فى خطوات ثقيلة كأنما قد دبت الشيخوخة فى كيانه واشتعل الشيب فى روحه ، وإن كان شعره قد برئ من البياض !.

وهبط شوقى إلى غرفة الطعام وكان جائعا ، ولكنه آثر ألا يأكل وحده ليقضى على ذلك الملل الذى يستبد به كلما انطوى على نفسه ، فاتجه إلى جرس تدلى مع الثريا البللورية الفاخرة وضغطه ، فما لبث أن جاء خادم أسود يرتدى جلبابا أبيض وعمامة بيضاء ووقف ينتظر ما يصدر إليه من أوامر ، قال شوقى :

ـــ عثمان ! قل لأحمد ونادية وعماد إنى أنتظرهم لنتغدى معا .

وذهب عثمان ، وراح شوقى يغدو ويروح فى الغرفة ، كانت غاصة بتحف نادرة ولكن لم يلفت نظره منها إلى زهرية من الكرستال كانت زوجته تعتز بها ، لأن أمها اشترتها لها عقب ولادتها وأهدتها إليها فى اليوم السابع من زواجها ، ومشى إلى الزهرية وحملها فى حنان وشرد بذهنه ولاح فى وجهه وجد . كان يذكر آخر دعابة كانت بينه وبينها حول هذه الزهرية ، وزاد فى انفعاله أنه سمع صوتها واضحا يرن فى ضميره فيشعل نيران أشجانه ، ويؤجج لهيب أحزانه ، قال :

ـــ تحفة نادرة عمرها نصف قرن .

ـــ لا يا شوقى ، إنها اشتريت يوم مولدى .

ـــ عمرها خمسون عاما .

ـــ خمسة وأربعون .. شهادة الميلاد عندى سأحضرها لك .

ـــ خمسون سنة أو تزيد .

ـــ لا . تريد أن تغيظنى . والله لأحضرن لك شهادة الميلاد إن كنت قد نسيت .

ـــ تعالى .. لم أنس ، ولكن من قال إنها صنعت يوم مولدك ؟ ما نعرفه أنها

اشتريت يوم مولدك ، فلعلها صنعت قبل ذلك بخمس سنين .

وعجب لتفاهات الماضى التى تصبح ذكريات عزيزة مغلفة بسحر ، تهفو إليها النفس وتتمنى لو تعود .

وأقبل عثمان وقال :

— يقولون إنه مشغولون ولن يتغدوا الآن .

وصمت الأب قليلا ثم قال :

— قل لسيدة تعد الغداء لى وحدى .

وجلس عند رأس المائدة وراح يتلفت وهو يحس وحشة ، وزاد فى وحشته صدى صوته الذى كان يتردد فى كهف نفسه : « قل لسيدة تعد الغداء لى وحدى .. لى وحدى .. وحدى .. وحدى » .

وتناول طعامه ، خُيل إليه أنه يلوك طعاما من مر وعلقم ، فراح يزدرد ما فى فمه وهو كاره ، ثم نهض كأنما تخلص من واجب ثقيل ، وألقى « بالفوطة » فى ملل ، وسار مطأطئ الرأس وعاد أدراجه إلى غرفته ، وتمدد فى سريره وأمسك كتابا يقرأ فيه ، وراح النوم يداعب عينيه ، وما كاد الكرى يطوف به حتى تجاوبت فى أرجاء الفيللا ضحكات وصيحات وضجيج وعجيج :

أقبل أحمد وعماد ونادية من الجراج بعد أن انتهوا من عملهم هناك ، وجاءوا ليتناولوا غداءهم وهم يتصايحون .

وفر النوم من عينيه ، وحاول أن يصم أذنيه عن أصواتهم دون جدوى ، فتناول وسادة من تحت رأسه ووضعها فوق أذنه ، ولكن أصواتهم كانت ترن فى كيانه كصليل الجرس .

٢

انساب أحمد وعماد ونادية إلى غرفة السفرة ، وأحمد يصيح قائلا :

ـــ سيدة ، الغداء .

وكان عثمان يعد الصحاف والشوك والسكاكين ، فقال له أحمد :

ـــ أسرع ، نكاد نموت من الجوع .

وأسرعت نادية لتخلع « العفريتة » وتزيل ما فى يديها ووجهها من شحم وزيت ، والتفت أحمد إلى عماد وقال له :

ـــ تعال نغسل أيدينا .

وراحت نادية تصعد فى الدرج الموصل إلى الطبقة العليا قفزا ، وسار أحمد وعماد إلى حمام فى الطبقة الأرضية ، وراح عماد يختلس النظر إليها ، كان تكوينها بديعا : خصر دقيق ، وأرداف مستديرة ، وصدر شارد يهتز فى مرح وحرية ، فقد فكت نادية الأزرار كلها تأهبا لتبديل ثيابها ، وبدا ما بين السحر والنحر فتنة .

وعرج أحمد وعماد إلى اليمين وغابا عن نظر نادية وإن ظلت أصواتهما تصل إلى مسامعها ، فقد دلفا إلى حمام تحت الحمام الذى اتجهت إليه ، قال عماد :

ـــ أثبتت نادية أنها مهندسة ماهرة ، اكتشفت أن العيب من « البوبينة » بعد أن قررنا تغيير شموع الاشتعال كلها .

ـــ لو تركتنى أفحص المحرك دون تدخل منها لاكتشفت ذلك قبلها ، ولكن متى كانت نادية تتركنى أفعل ما أريد فى حرية دون أن تدس أنفها فى كل ما أفعل . إنها تتدخل حتى فى دروسى ، حتى فى تسميد التربة !



ـــ نادية ماهرة .

ـــ حظوظ ، اثنان يثقان فيها ثقة عمياء .

ـــ أنا ومن ؟

ـــ وبابا . تصور أن بابا واثق من أن نادية تستطيع أن تخرط المحرك بنفسها وأن تركب له مكابس وصمامات جديدة ؟

ـــ وأنا واثق من ذلك !

ـــ عماد !.

ـــ سأترك لها السيارة فى إجازتى السنوية لتقوم بعمل عمرة كاملة لها .

ـــ عماد ! كم تبلغ من العمر الآن ؟.

ـــ أربعا وعشرين سنة .

ـــ الحمد لله . أنت رجل رشيد مسئول عن تصرفاتك ، ولكنى أنصحك لآخر مرة ، نادية ستتلف أمل سيارتك ، وقد أعذر من أنذر .

ـــ يكفى أن تمرر أناملها السحرية على المحرك ، ليبوح لها بأسراره .

وأشرق وجه نادية بابتسامة عريضة وهى تجفف بالمنشفة ساقيها ، وراحت ترتدى قميصا قصير الأكمام وبنطلونا من الفانلة فى لون العاج يلتصق بجسمها التصاقا ويبرز كل مفاتنها ، وهى تصغى إلى الحديث الدائر بين عماد وأخيها ، قال أحمد :

ـــ ليتنى كنت بنتا !

ـــ لماذا ؟

ـــ لأجد من يتحمس لى ويجمل لى كل ما أفعله وإن كان قبيحا !

ـــ اسمع نصيحتى ، واعرض نفسك على طبيب .

ـــ لماذا ؟

ـــ قد يحقق لك أمنيتك ، فما أكثر الرجال الذين تحولوا إلى غوانى

فاتنات !

وهبطت إلى غرفة الطعام وجلست أمام عماد ، وكان بين لحظة وأخرى ينظر إلى عينيها النجلاوين فى حب ، وإلى شفتيها الغليظتين فى اشتهاء ، فما وقعت عيناه عليهما إلا وتمنى أن يلثمهما ، كانت روحه تهفو إلى روحها وكان قربه منها يملؤه غبطة ، ولكن الثورة المندلعة فى جسده كانت تحرضه على أن يضمها إليه فى قوة ، كان يستشعر كلما نظر إليها أو فكر فيها أن شيئا ما ينقصه ، وأنها ذلك الشيء الذى يكمله .

ووضع الطعام أمامهم ، وقبل أن يمدوا أيديهم إليه صاحت نادية قائلة :

— أهلا مجدى ! تعال .. حماتك تحبك .

فقال مجدى وهو يبتسم :

— وأنا أحب بنتها .

والتفت أحمد وعماد إلى مجدى .. كان طويل القامة عريض الكتفين مفلفل الشعر ، وكان أبرز ما فيه طيبة تنطق بها عيناه الواسعتان ، وخفة روح تجذب النفوس إليه ، وسذاجة تدنيه من الطفولة البريئة ، وقال له أحمد :

— يا بخت من ستتزوجك .

فقال مجدى وهو يبتسم :

— شكرا .

فقال عماد فى خبث :

— لو عرفت قصده ما شكرته ، إنه يريد أن يقول إنها ستركب وتهز رجليها .

فقال أحمد فى فزع :

— عماد ! لا تضع كلاما على لسانى ، أنا لا ألف ولا أدور ، لست مثلك .

والتفت إلى مجدى وقال له :

ـــ مجدى ، أنت تعرف قصدى .

فقال له مجدى فى هدوء :

ـــ ولا يمكن أن أشك فى نواياك أبدا .

ـــ شكرا ! تفضل معنا .

ـــ لسوء حظى تغديت قبل مجيئى .

فقال له عماد وهو يشير إلى مقعد بجواره :

ـــ تفضل هنا .

فقالت نادية وهى تجذب إلى الوراء الكرسى المجاور لها :

ـــ لا . لن يجلس مجدى إلا إلى جوارى .

وانطلق مجدى ليجلس إلى جوار نادية وهو مشرق الوجه متفتح النفس ، وبلغ الكرسى وجلس وإذا بنادية تجذب الكرسى من تحته فجأة فيهوى على الأرض ، وينفجر عماد ضاحكا ، وتغرق هى فى الضحك ، ويبتسم أحمد وسرعان ما يخفى ابتسامته ويقول لها :

ـــ قلت لك أكثر من مرة : لا داعى لمثل هذا الهزر الثقيل .

فقال عماد وهو يضحك :

ـــ العيب عيبه ، لماذا لا يأخذ حذره وقد جرى له هذا ثلاث مرات فى أسبوع ؟!

ونهض مجدى وهو يفرك يديه ويبتسم فى بساطة ، ولم تبد عليه أية مرارة ، والتفت إلى نادية وقال :

ـــ ما أكثر ما تمنيت أن تكونى ولدا .

فقالت له نادية وهى ترقبه فى أثناء جلوسه وقد أمسك قاعدة الكرسى بكلتا يديه :

ـــ لماذا ؟

ـــ لأضربك على شقاوتك . إنى لا أنسى ما كنت تفعلينه بى فى طفولتك ، كنت تجمعين أطفال الحى وتسيرون خلفى فى مظاهرة وتصيحون : « أبو طويلة .. أبو طويلة » .

فقالت نادية وهى تضحك :

ـــ كان يخيل إلىّ فى تلك الأيام أنك طويل ، فى طول النخلة .

فقال مجدى فى سذاجة:

ـــ لم يكن الفرق بينى وبينك كبيرا ، كنت فى الرابعة عشرة وكنت فى السابعة .

فقالت نادية وهى منهمكة فى الأكل :

ـــ كان عمرك ضعف عمرى .

فقال عماد وهو يرنو إلى مجدى :

ـــ على هذا يكون مجدى فى الثامنة والثلاثين .

فقال مجدى فى دهش :

ـــ وكيف كان ذلك ؟

ـــ كان عمرك ضعف عمرها ، أليس كذلك ؟

فقال مجدى وهو يهز رأسه موافقا :

ـــ صحيح .

ـــ وهى الآن فى التاسعة عشرة . فيكون عمرك ثمانى وثلاثين سنة .

فقال أحمد وهو يبتسم :

ـــ مسألة حسابية بسيطة .

فقال مجدى وهو يهرش رأسه :

ـــ كنت طول عمرى ضعيفا فى الحساب ، ومع ذلك أجزم أن هذه

المسألة الحسابية البسيطة خطأ ، لا أعرف من أين جاء الخطأ ، ولكن شهادة ميلادى تقول إنى فى الخامسة والعشرين .

فقال أحمد مصوبا :

ـــ بل فى السادسة والعشرين ، لأنك من مواليد نفس السنة التى ولد فيها الدكتور محمد .

فقال مجدى فى تسليم :

ـــ فى السادسة والعشرين ، أنا أكبركم كلكم .

وقال أحمد وهو يرنو إلى عماد ونادية :

ـــ وأعقلهم .

وضحكوا وقالت نادية :

ـــ أذكر أن رجلا جاء يسأل عن أبى وأنا طفلة ، فقلت له : إن أبى قد خرج ، فلما عاد أبى قلت له : سأل عنك اليوم رجل كبير عنده عشرون سنة ! كنت أعتقد فى ذلك الوقت أن الحياة تنتهى فى العشرين .

فقال لها عماد :

ـــ والآن ؟

ـــ عرفت أن الحياة تبدأ فى العشرين .

ودخل الدكتور محمد ، وكان فى مثل جسم أحمد ، وملامحه كملامح نادية ، حتى لو أن إحدى صواحبها رأته دون سابق معرفة لفطنت إلى أنه أخوها ، وكان يكبر أحمد بثلاث سنين ، وقد شب محمد وأحمد ومجدى وعماد معا ، لم يفترقوا منذ طفولتهم ، وقد توطدت بينهم الصداقة إلا أن تقارب السن كان له دخل فى تقارب بعضهم من بعض ، فقد زامل محمد مجدى وصادق أحمد عماد ، أما نادية فكانت كالفراشة تنتقل فى حرية بين الجميع .

وكان مجدى أول من لمحه قادما فهتف :

ــ أهلا دكتور ، أسرع قبل أن يلحقوا الصحاف .

وهرع الدكتور إلى المائدة وجلس وهو يقول :

ــ أكاد أموت جوعا .

فضغطت نادية على الجرس المتدلى من الثريا البللورية ، فما لبث أن جاء عثمان فقالت له :

ــ قل لسيدة تحضر غداء للدكتور .

فقال مجدى للدكتور :

ــ كل .. أكل ثلاثة يكفى أربعة .

فنظر الدكتور إلى الصحاف الخاوية وقال :

ــ وأين هو الأكل ؟

فمرر مجدى يده على بطنه وقال :

ــ اختفى فى شروعاء .

وقال أحمد لأخيه :

ــ احتفلنا بخلعك الضرس المائة من زمن طويل ، متى سنحتفل بخلعك الضرس الألف ؟

فابتسم الدكتور وقال :

ــ لم أعد أسجل الضروس التى أخلعها .

قال له مجدى :

ــ ومتى سنحتفل بزواجك ؟

فقال عماد :

ــ بعد أن تنبت له ضروس العقل .

فقال الدكتور محمد وهو يبتسم :

ـــ لقد طلعت من سنين .

فقال عماد وهو ينظر إلى نادية نظرة كلها وجد :

ـــ لو كانت ضروس عقلك قد طلعت حقا لتزوجت .

فقال الدكتور :

ـــ سأتزوج بعد أن أخلعها .

ولاحظ مجدى النظرات الملتهبة بين نادية وعماد فأحس ضيقا ، بيد أنه لم يحقد عليها فهو يحب نادية بكل جوارحه ، وكانت غاية أمانيه أن تكون له زوجة ، ولكنه يعرف أن نادية تميل إلى عماد وتفضله عليه ، وأن عماد شغف بها حبا ، ولولا إصرارها على أن تتم دراستها لأعلنت خطبتهما ، وقد راض نفسه على هذا حتى أنه كثيرا ما يكتوى بلهيب حبه ، دون أن تفصح خلجة من خلجاته عن النار المتلظية بين جنبيه .

وأراد أن يفر من انفعالاته فقال للدكتور :

ـــ كنت أسمع من جدتى وأنا صغير عن الأسنان الخضر ، وقد خطر لى أكثر من مرة أن أسألك عنها .

فضحكت نادية ضحكة ساخرة ممدودة ، فقال لها أحمد :

ـــ ما الذى يضحكك ؟ وأنا أيضا سمعت عن الأسنان الخضر .

فقال الدكتور وهو يأكل :

ـــ ما الذى سمعته عنها ؟

ـــ سمعت أن الأسنان تمر فى ثلاثة أطوار : أسنان اللبن وتسقط فى السابعة ، وتبدل بأسناننا هذه ، وتسقط أسناننا كلها لما نبلغ الستين أو السبعين ، فإذا قدر لنا أن نعيش بعد المائة تنبت لنا الأسنان الخضر . ما رأيك ؟

فقال له الدكتور :

ــ رأيى أنك « طور » .

وضحكوا جميعا حتى مجدى ، وقالت نادية :

ــ تخيلت مرة أن الضروس متصلة بالقفص الصدرى ، وأنه من المحتمل أن يخلع مرة القفص الصدرى مع الضرس !

فنهض الدكتور وقال أكثر من صوت :

ــ إلى أين ؟

قال وهو يتحرك لينصرف :

ــ لا أحتمل هذا الهذيان ، إنى مجهد .. ذاهب لأنام .

وقال عماد وهو ينظر إلى مجدى :

ــ آسف لأن الأمية متفشية بين خريجى جامعاتنا .

فقال أحمد كعادته فى استسلام :

ــ من الصعب أن نتخلص من الأساطير التى كانت تروى على مسامعنا فى الليل وفى النهار .

فقالت نادية فى اعتداد :

ــ لكل الشعوب أساطيرها وخرافاتها . لماذا نمجد أساطيرهم ونخجل من أساطيرنا ؟

فقال أحمد :

ــ لماذا ؟

فقالت نادية فى حماسة :

ــ لأننا ضعفاء ، لو كنا أقوياء لمجد الآخرون أساطيرنا وآدابنا وخرافاتنا .

فقال عماد :

ــ هذا صحيح ، ولكن الأهم أن فنانيهم خدموا أساطيرهم وخرافاتهم من سنين ، مستهلهما الإبداع فأضفت عليها سحرا .

فقالت نادية :

— لماذا يهمل فنانونا أساطيرنا ؟

والتفتت إلى مجدى وقالت :

— لماذا لا تحاول يا مجدى أن تعالج أساطيرنا وخرافاتنا بطريقة فنية ؟

فقال مجدى فى انزعاج :

— أنا ؟ ولماذا لا ينهض بهذا العبء الضخم أحد سواى . وما دخلى أنا بالفنون ؟ لعل ما أغراك بهذا علمك أنى من خريجى الآداب ؟

فقال أحمد فى حماسة :

— وأمين مكتبة ، تحت يدك ما تحتاج إليه من مراجع .

فقالت نادية :

— قد يكون هذا آخر ما فكرت فيه . ما دفعنى لهذا الاقتراح هو أنى قرأت لك قصيدة هزتنى .

وارتبك مجدى وقال فى تلعثم :

— قصيدة ؟ أية قصيدة ؟

وقال عماد :

— قرأت كل ما كتب من قصائد ، وقد نصحته ألا يقرض الشعر ، وإن كنت لا أدرى كيف يقرض الشاعر الشعر إلا أن يكون كالفأر يقرضه بأسنانه بيتا بيتا .

كان يريد أن يبعد نادية عن الاهتمام بمجدى ، فهو يقرأ فى بريق عينيه أحيانا ما يحاول جاهدا أن يخفيه ، ويحس بقلبه أن اهتمام مجدى بنادية لا يقل عن اهتمامه بها ، فهو يحبها مثله ، ولولا أنه كشف لمجدى عن حبه لها واعتزامه الزواج بها لما وأد مجدى مشاعره ولما تعذب فى صمت ، ولما مضغ آلامه بعيدا عن العيون .

وكانت الفكرة قد ملأت رأس نادية ، وكانت كأبيها إذا اقتنعت بشيء فما من قوة تثنيها عنه ، فقالت دون أن تلتفت إلى سخرية عماد :

ـــ كانت قصيدة ممتازة ، تروى قصة حبيب تدله بفتاة وهام بها دون أن تحس به . قصيدة رائعة ، ولكن عيبها أن مثل هذا الحب قد انقرض .

وراح مجدى يتلفت زائغ البصر ، خشى أن تفضحه تلك الدماء التى تدفقت إلى وجهه حتى أحس حرارتها تكاد تصهر خديه .

فقال أحمد لمجدى :

ـــ لماذا لا تنفذ هذه الفكرة ؟

فقال عماد :

ـــ إنها تحتاج إلى عبقرى .

فقالت نادية فى حماس :

ـــ أنا واثقة أن مجدى لها .

وخفق قلب مجدى فى حنان ، وأطرق وقد أسبل جفنيه ليخفى مشاعره ، كان يحس أن عينيه نافذتان يرى منهما الناظر إليه كل ما يدور فى وجدانه .

ونظر أحمد إلى ساعته وقال :

ـــ عندى محاضرة بعد نصف ساعة .

فقال عماد :

ـــ نوصلك إلى الجامعة ونحن نختبر السيارة .

ونظر إلى نادية فقالت وهى تنهض :

ـــ وسأعود بعد ذلك أذاكر ، فقد اقترب موعد امتحان آخر السنة .

وسارت نادية وهم خلفها ، وانطلقوا إلى الجراج .

وساد الصمت فى الفيللا فى وقت لم يكن أحد من سكانها يتمناه ، فقد كان الدكتور محمد يغط فى نومه غطيطا ، وما كان قصف المدافع يوقظه إذا

عرف الكرى طريقه إلى عينيه ، أما الأب فقد ارتدى ثيابه وهبط ليجلس مع أبنائه ومن معهم من الأصدقاء ، ليقضى على العزلة القاتلة التى يعيش فيها ، ويقطع الوقت الطويل الممل الذى يفصل بينه وبين ذهابه بعد صلاة العشاء للعزاء .

وبلغ حيث كان أبناؤه يتناولون الطعام ويتسامرون ويتصايحون ، فإذا القاعة خاوية ، وإذا السكون يسود المكان الذى كان زاخرا بالتحف وفاخر الرياش ، فراح يقلب عينيه فيه وهو منقبض الصدر ، وسار إلى غرفة الجلوس ، وكان بها جهاز تليفزيون فاتجه إليه وضغط على أصبع فيه ، ثم جلس يشاهد « جنة الأطفال » !.

كان البرنامج زاخر بالحركة ، وقد استرعى انتباهه لحظات ، وما لبث أن شرد وعاد إلى نفسه ، واستولت عليه مشاعر الوحدة والانقباض ، فنهض وذهب إلى التليفزيون وأغلقه ، ثم دار على عقبيه ومشى مطرقا ، وعزم على أن يخرج وأن يغادر البيت دون أن يدرى إلى أين يذهب .

٣

أغلق الدكتور محمد عيادته بنفسه وهبط إلى الطريق ، كانت أضواء المصابيح الكهربية خافتة ، وكانت أغلب الحوانيت قد أغلقت إلا المقهى ومحل عصير القصب وحانوت السماك ، فقد انبعثت منها أنوار ساطعة بدت كعقود من فضة على صدر زنجية سوداء .

ومشى الدكتور يفكر فيما يفعله بذلك المال الذى ادخره . أيشترى سيارة ؟ أيوسع عيادته ؟ أيتزوج ؟ ورن فى وجدانه صوت عماد يقول : « لو كانت ضروس عقلك قد طلعت حقا لتزوجت . وصادفت فكرة الزواج

هوى فى نفسه ، فراح يطلق لخياله العنان ، لم تكن فى حياته فتاة ، خفق قلبه بحب جارة له وهو طالب ، وشغل بها سنوات ، ولكنها تزوجت قبل أن يتم دروسه . وقد بكى ليلة جلوتها وكادت الغيرة تقتله ، وبمرور الزمن فطن إلى أن ما أحسه نحوها لم يكن حبا طاغيا كما كان يظن ، بل عبث أطفال .

إنه ليذكر القسم العظم الذى أقسمه يوم تزوجت ، وإن عرقه ليتفصد خجلا كلما خطر على باله « فقد وقف فى شباكه ينظر إلى نافذتها المغلقة بعد أن حملت إلى بيت زوجها ، وراح يقسم ودموعه منهمرة : أقسم بالله العظيم أن أظل وفيا لحبنا ما حييت ، أذرف الدمع السخين على قلوبنا الغضة الشهيدة التى طعنتها يد القدر الآثمة دون شفقة أو رحمة ، وتركتها تتلظى بنار الجوى وألم الجراح ، وإنى لأعاهد روحك أمام نجوم السماء أن أعيش راهبا بعدك ، وألا أكون لأنثى غيرك ، وسأعيش لذكراك إلى أن نلتقى فى عالم لا قهر ولا غدر فيه » . وظل وفيا لنفسه شهورا ، وسرعان ما مشت على ذكراها يد النسيان !

ومرت فى حياته نساء مرور سحب الصيف وشروق شمس الشتاء ، فلا أظلته السحب ولا لسعته حرارة الشعاع . إنه يحن إلى نصفه الآخر ، ولو كانت فى حياته امرأة خطفت قلبه لذهب إليها الساعة يعرض عليها الزواج ، ولكنه لا يجد منفذا لذلك الحنان الذى تزخر به جوانحه ، ولا نفسا تشاركه طمأنينته وقلقه ، وألمه وأمله ، ويمده وقوفها إلى جواره بثقة وقوة واعتزاز . ليته يعرف تلك التى سترتبط حياتها بحياته ، ليت الغيب يكشف له عنها فيريحه من ذلك القلق الذى يعيش فيه .

الغيب ! إنه يؤمن أن علاقته به طيبة ، ولطالما رأى فى أحلامه رؤى صادقة كفلق الصبح ما تلبث أن تحققها الأيام ، آه لو رأى زوجته فى المنام ؟! ترى ما

شكلها ؟ وأين سيجدها ؟ ومتى سيلقاها ؟ إنه لا يدرى حتى الساعة من ستكون أم أولاده، فهى كالكسب وكالموت.. «وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا * وما تدرى نفس بأى أرض تموت» ، وما تدرى نفس بمن تتزوج!

وخرجت من دكان السماك قطة سوداء ، ما إن وقعت عيناه عليها حتى انقبض وسرى خوف فى جنباته وطافت به موجه من التشاؤم ، كان يفكر فيمن ستشاركه حياته قبل أن تعترض طريقه القطة السوداء ترى أهذا نذير بأن زواجه لن يكون موفقا ؟!

وبلغ ميدان الجيزة ، وكان قد وطد العزم على أن يسير الهوينى فى طريق الهرم حتى يصل إلى البيت ، وهو ينعم بمصاحبة نفسه فى سكون الليل وطيب الهواء وضوء القمر الذى يوحى بأعذب الأحلام ، بيد أن تلك القطة اللعينة أطفأت أنوار الأمل فى وجدانه ، وبغضته فى انفراده بنفسه ، وجعلته يسرع بالفرار إلى الناس ، فأشار إلى تاكسى واندس فيه وانطلق به وهو مطرق وفكره يعمل لاستجلاء نوع الشر الذى يترقبه .

ووقف التاكسى أمام الفيللا ، وهبط الدكتور منه وراح يغذ السير ليجتاز المنطقة المظلمة التى تفصل بين الباب الخارجى ومدخل الدار ، لم يكن يخشى الظلام ، ولكنه كان يخشى أن يقابل فيه ما يؤكد تشاؤمه فيعيش أياما فى قلق وعذاب .

وانساب فى الردهة الواسعة التى تقود إلى الدرج ، وإلى غرفة الاستقبال وغرفة الطعام التى كان يفصل بينهما ستار يرفعه برقع من المخمل الأحمر ، من نفس براقع ستر غرفة الاستقبال ، وهى من حرير هفهاف منقوش بوردة صغيرة ينسجم لونها مع لون المخمل الأحمر .

ولم ينطلق إلى الدرج ليصعد إلى غرفته ، بل سار إلى غرفة الاستقبال ،

وذهب إلى صورة أمه ووقف ينظر إليها خاشعا ، فقد صور له وهمه وهو فى السيارة أنه ما رأى القطة السوداء إلا لأنه نسى أمه وهو فى غمرة سروره بنجاحه فى عمله ، و لم يعد يذكرها أو تخطر له على بال ، وهذا العقوق نذير وبال ، وقد جاءه النذير فى هيئة قطة سوداء .

ومن خلال الستار لمح الزهرية البللورية التى كانت تعتز بها أمه ، فذهب إليها ورفعها بين يديه وضمها إلى صدره ، فاستشعر بعض الراحة ، و لم يكن مبعث راحته أن روح أمه قد رضيت عنه كما حاول أن يوهم نفسه ، بل لنجاحه فى أن يبعد تشاؤمه عن الزوجة التى ستشاطره الحياة .

وعاد أدراجه إلى الردهة الواسعة ، وصعد فى الدرج وقد هدأت نفسه ، ودخل غرفته فألفى نادية ترتدى بيجامتها وقد أدخلت الجاكتة فى البنطلون ، واستلقت على ظهرها فى سرير أحمد ووضعت ساقا على أخرى ، ورفعت الكتاب الذى تستذكر فيه أمام عينيها ، وانبطح أحمد فى سريره على بطنه ، ووضع الكتاب على الوسادة وراح يقرأ فيه .

وصاح الدكتور :

ـــ قلت لك يا نادية أكثر من مرة إن هذه الطريقة تضر عينيك .

وقالت نادية دون أن ترفع الكتاب عن عينيها :

ـــ وقلت لك فى كل مرة : إن من حقك علينا أن نستجيب لنصائحك فيما يتعلق بالأسنان ، فهى منطقة اختصاصك ، ولن أغير طريقتى فى القراءة استجابة لنصائحك إلا يوم أقرأ بأسنانى .

فقال أحمد :

ـــ هس .. إنى أقرأ الآن بعينى ويدى ورجلى وأسنانى . فلم يبق إلا أسبوع واحد على الامتحان .

واتجه الدكتور إلى نادية وجذبها من يدها وهو يقول :

— قومى ! حرام أن تضعفى عينيك .

وانتصبت واقفة ، وبدلا من أن تتجه إلى المكتب عادت واستلقت ثانية فى الفراش وعاودت القراءة وقد وضعت ساقا فوق ساق ، فراح الدكتور يبدل ثيابه ونادية فى الغرفة ، فقد شبت بين أخويها على أنها الولد الثالث لأبيها !

وقال الدكتور محمد وهو يدس رجله فى بنطلون البيجاما :

— أفضل أن أتزوج امرأة جاهلة ذات عينين جميلتين ساحرتين ، على أن أتزوج مهندسة عبقرية على عينيها نظارة سمك عدستها بوصة !

فنهضت نادية فى سرعة وهرولت إلى المكتب ، ووضعت الكتاب أمامها وراحت تقرأ فيه ، فصاح أحمد :

— كفى تهريجا ، أريد أن أذاكر .

فصاحت نادية فيه :

— اذهب إلى غرفة أخرى .

— هذه غرفتى .. اذهبى أنت إلى غرفتك .

— سأبقى فى هذه الغرفة .

واتجه الدكتور إلى أحمد وقال له :

— قم من سريرى من فضلك

فقام أحمد ، ولاحظت نادية أنه سينتقل إلى سريره ، فغادرت المكتب وارتمت فى سريره وهى تقول :

— إنك تنشد الهدوء ، ستجده هناك فى غرفتى .

فحمل أحمد كتبه وغادر الغرفة ، ونادية تنظر إليه وقد رفت على شفتيها بسمة ، فلما غاب عن عينيها قالت :

— أجمل ما فى أحمد أنه يستسلم سريعا .

فقال الدكتور وهو يتمدد فى فراشه وقد ارتدى بيجامة قصيرة الأكمام :

— هذا هو عيبه ، وأنت السبب .

— أنا ؟

— نعم . رأسك الذى لا يفلقه الحجر . كان كلما اصطدم بك أصررت على رأيك وانتصرت عليه بتعنتك ، فتعلم ألا جدوى من معارضتك فآثر أن يستسلم .

وكانت تنظر إلى ذراعه العارية وهو يتحدث ، وجذب بصرها بروز فى جلده فى حجم الحمصة ، فنهضت من فراشها ومررت أصبعها عليه وهى تقول :

— ما هذا ؟

فقال فى عدم اكتراث :

— لا شىء .

— سمعت أن هذه لو ربطت بشعرة من ذيل حصان ، تذبل وتسقط .

وشردت تفكر ثم غادرت الغرفة ، واتجهت إلى حجرة أبيها وراحت تبحث فى صوان ملابسه حتى عثرت على منشة ، فجذبت منها شعرة وعادت تهرول إلى غرفة أخيها .

كان الدكتور ممددا على جنبه ، وذراعه العارية فوقه ، وذلك الشىء البارز فى حجم الحمصة شامخا بأنفه ، وكان الدكتور غارقا فى أفكاره ، حتى إنه لم يحس دنو نادية ، ولم يفطن إلى ما عزمت على فعله .

وأعدت شعرة ذيل الحصان بحيث تضع الحلقة حول ذلك البروز الذى بدا بغيضا لعينيها ، ثم تجذب طرفها فينتهى كل شىء ، وفى مثل لمح البصر انقضت

على الدكتور ، ووضعت الحلقة وجذبت طرف الشعرة فى قسوة ، فهب الدكتور مفزوعا وهو يصرخ :

ـــ آه .. آه ..

وجلس على حافة السرير يلتقط أنفاسه وهو يقول :

ـــ أنت قاسية . قلت لك مائة مرة أن لا داعى لهذه القسوة .

فقالت فى هدوء :

ـــ كل علاج فيه لون من ألوان القسوة ، وكل دواء فيه مرارة .

وأراد أن يؤلمها كما آلمته فقال لها :

ـــ أنت قاسية بطبعك . أنسيت أنى كنت أنقذ القطط من يديك وأنت تخنقينها ؟

وصمت فجأة ، فقد عادت إلى ذاكرته صورة القطة السوداء ، فانكمش وانقبض صدره ، فمال بجسمه ووضع رأسه على الوسادة وهو يحاول أن يقنع نفسه أن شؤم القطة السوداء قد زال بعد أن ذرف أمام صورة أمه دمعة .

ومس أذنيه نعيب بومة ، فخيل إليه أن وهمه أمده بذلك الصوت الذى يمقته أشد المقت ، بيد أن النعيب تردد فى سكون الليل فقال فى خوف :

ـــ نعيب بومة !

وكانت نادية تعلم أنه يتفاءل ويتشاءم ، وكانت هذه نقطة الضعف فيه ، فعزمت على أن تطعنه منها وتقسو عليه كما قسا عليها ، فقالت فى سخرية :

ـــ بومة تنعب ، فما وجه الغرابة فى هذا ؟

ـــ هذا نذير شؤم ، هذا إعلان خراب .

ـــ دكتور ويؤمن بالخرافات !

ـــ إنها نعبت من قبل وبعدها بيومين ماتت أمى ، ترى على من ستكون

الدائرة هذه المرة ؟

وعادت البومة تنعب ، فقفز الدكتور من سريره وهرول خارجا من الغرفة وهو يقول :

ـــ لا بد من طردها ، لن أدعها تنعب هنا أبدا .

وخرج ونادية ترقبه وصوت البومة يرن فى أذنيهما ، فراحت تتلفت وهى تعجب من ذلك الانقباض الذى انتابها .

وعاد الدكتور وفى وجهه رضا ، وقال فى زهو :

ـــ طردتها .. طردتها .

فقالت له فى سخرية :

ـــ أتعتقد يا دكتور أن هناك صلة بين الأعمار ونعيب البومة ؟

ـــ أعتقد أن هناك أشياء كثيرة لا نفهمها .

فقالت وهى تبتسم ، فقد عزمت على أن تطعنه فى صميم إيمانه :

ـــ لذلك تؤمن بالأحلام .

ـــ كل الإيمان ، فما رأيت رؤيا إلا تحققت ، وما عزمت على أمر واستخرت الله فيه إلا رأيت الطريق التى علىّ أن أسلكها فى المنام .

وجلست على حافة السرير ، كانت تعرف أنه سيقص عليها قصة بداية حياته العملية ، وسينفعل وهو يرويها ، وسيغدو ويروح وهو شارد البصر وقد طافت بوجهه موجة من الإيمان ، وراحت ترقبه وتصغى إليه وإن كانت تحفظ ما سيقوله عن ظهر قلب ، فيا طالما سمعت القصة منه ، ولكنها كانت تحبه حبا جما ، وكانت فى معظم الأحايين تعبر عن ذلك الحب بالقسوة عليه .

قال الدكتور وقد شخص ببصره إلى لا شىء :

ـــ كنت مترددا بين أن أقبل الوظيفة الحكومية أو أن أفتح عيادة ، وكاد

جبنى يقنعنى بقبول الوظيفة ، فما الذى سيدفع الناس إلى الذهاب إلى طبيب حديث التخرج ؟ ودخلت فراشى وأنا مشتت الفكر ، وما أسلمت جنبى للرقاد حتى رأيت فيما يرى النائم خبزا قد صف فوق الموائد وتكدس فى كل مكان ، واستيقظت من نومى منشرح الصدر وقد قررت أن أرفض الوظيفة وأفتح العيادة ، وقد تحقق ما رأيته فى المنام ونجحت فى فترة وجيزة .

فقالت نادية فى عناد :

ـــ ما الذى جعلك تعتقد أن تأويل هذا الحلم حضك على فتح العيادة ؟ لماذا لا يكون دافعا لك على قبول الوظيفة ؟

فقال وهو يبتسم فى انتصار :

ـــ ليس هناك خبز فى الوظيفة ، وإن كان هناك خبز فهو خبز جاف لا يصف على الموائد ولا يكدس فى كل مكان .

فقالت له نادية :

ـــ نم وتغط جيدا لكيلا تحلم .

وذهب الدكتور إلى سريره وتمدد فيه وراح يتثاءب ، واستلقت نادية فى السرير الآخر وقد رفعت الكتاب فوق وجهها وانهمكت فى القراءة . وساد السكون ، ووقف الأب عند باب الغرفة ينظر ، فقد كان فى طريقه إلى غرفته ، وكان فى شوق إلى أن يتحدث مع أبنائه ، ولكنه وجدهم مشغولين عنه بآمالهم ومستقبلهم وأحلامهم ، فانسل فى خفة وذهب إلى غرفته يتسلى بالقراءة حتى يغلبه النوم ويسقط الكتاب من يده .

وهتك الهدوء صوت شخير الدكتور ، فوجدت نادية أن بقاءها أصبح مستحيلا ، فقامت وحملت كتابها وذهبت إلى غرفتها ، فألفت أحمد منهمكا فى القراءة فقالت له :

ـــ اذهب إلى غرفتك من فضلك . أريد أن أنام .

ونظر إليها فى حيرة و لم ينبس بكلمة ، وقام وكتابه فى يده فقالت له :

ـــ ستنام أم ستستمر فى المذاكرة ؟

ـــ سأستمر فى المذاكرة .

ـــ انتظر .

وذهبت إلى درج مكتبها وفتحته وأخرجت منه قطعة قطن . واتجهت إلى أحمد وسدت أذنيه به وهى تقول :

ـــ الآن تستطيع أن تقرأ وأنت فى مأمن من تقاسيم الدكتور !

وانطلق إلى غرفته واستأنف قراءاته ، و لم يستطع أن ينهمك فيما كان يقرؤه أو يركز ذهنه فيه ، فقد كان يسترق النظر بين لحظة وأخرى إلى الدكتور بعد أن عجز القطن عن أن يحول بين أذنيه وبين الشخير الذى كان أقرب إلى الصفير .

ونحى أحمد الكتاب جانبا ، وقام وأطفأ النور واستلقى فى سريره وشخير الدكتور يدوى فى جنبات الحجرة ، فسد أحمد أذنيه بوسادة وراح يتقلب ويدور ويتكور وينثنى وينفرد ،وقد تركزت كل آماله فى أن يخطفه النوم وينتشله من العذاب الذى يقاسيه !

٤

استيقظ الأب فى البكرة ، وبعد أن اغتسل بالماء البارد كعادته صيفا وشتاء عاد إلى غرفته ، وراح يصنع القهوة بنفسه ، أخرج موقد السبرتو من درج ، وأخرج الفنجان والكنكة من درج آخر ، وأخرج البن من درج ثالث ،

وكانت معه حلقة كبيرة بها مفاتيح كثيرة ، كان يعرفها مفتاحا مفتاحا .

وبعد أن شرب القهوة وتصفح صحف الصباح ارتدى ثيابه ، وراح يمر على غرف أولاده ، اتجه إلى غرفة نادية فألفى بابها مفتوحا ، فأطل برأسه فرآها قد نامت على بطنها وضمت إلى صدرها وسادة ، وسقط على الأرض الكتاب الذى كانت تقرأ فيه ، ونور الغرفة لا يزال مضيئا . فسار على أطراف أصابعه صوب زر الكهرباء وأغلقه فى حرص حتى لا يحدث صوتا يوقظ النائمة أو يقطع أحلامها .

وذهب إلى الكتاب والتقطه ووضعه على نضد قريب من السرير ، وسحب الغطاء عليها ، ووقف ينظر إليها والحنان يترقرق فى وجهه ، ومد يده وأزال خصلة من شعرها تهدلت على عينيها .

وظل مدة وهو يسعد بمشاعر الأبوة ، ثم غادر الغرفة واتجه إلى حجرة محمد وأحمد ، وقبل أن يصل إليها بلغ سمعه شخير الدكتور على الرغم من أن باب الغرفة كان مغلقا .

وأدار المقبض وفتح الباب ، وإذا بالشخير يعلو كصفارة إنذار ، وتقدم ينظر ، كان رأس الدكتور بعيدا عن الوسادة وقد انثنى نحو صدره ، وتدلت من ذراعه شعرة ذيل الحصان ، ولاح فى وجه الأب دهش ثم هز كتفيه كأنما يقول لنفسه : عجب ! ، والتفت إلى أحمد فرآه وضع ركبتيه فى أسنانه وتكور فى فراشه ، فدنا منه ولمح القطن فى أذنه القريبة فابتسم وعاد ينظر إلى محمد الذى كان شخيره يتردد فى ذبذبة عالية ، فاتسعت ابتسامته وانطلق مغادرا الغرفة .

وهبط إلى الحديقة الصغيرة الواقعة خلف الفيللا فوجد سيدة وقد أطلقت بعض كتاكيت فى الشمس ، فقال لها :

ـــ ألم تتعظى بالكتاكيت الأخرى التى ماتت ؟

فنهضت سيدة وقالت :

ـــ صباح الخير يا سيدى !

ـــ صباح الخير يا سيدة . خسارة أن تتعبى فى رعايتها ثم تموت .. ستموت كما ماتت الأخرى .

ـــ كتكوت التوت يأكل ويموت ، أما كتكوت الفول فيأكل ويفور .

فهز رأسه موافقا لينهى هذا الحديث ، ثم قال :

ـــ قولى يا سيدة للأولاد إنى سأكون هنا فى الساعة الثانية بعد الظهر ، لنتغدى معا .

ـــ حاضر .

وسار صوب السيارة التى كانت تنتظره عند الباب الخارجى ، وذهبت سيدة تعد الإفطار من فولٍ وبيض وجبن وزيتون وزبد ومربى وقهوة وشاى ، فهى تعلم علم اليقين أنه لو هبط أحدهم دون أن يكون طعام الإفطار معدا على المائدة فسيرتفع صراخه ليبلغ السماء ، ثم ينفلت من البيت غاضبا .

واستيقظت نادية ، وكان أول ما فعلته أن نظرت فى ساعتها ، ثم قامت تهرول إلى غرفة أخويها لتوقظهما ، رفعت القطن من أذن أحمد فتكفل شخير محمد بإيقاظه ، ولما كان قصف المدافع لا يوقظ الدكتور فقد جذبت شعرة ذيل الحصان فى قوة ، فهب محمد مفزوعا وهو يصيح :

ـــ آى .

فقالت نادية وهى تضحك :

ـــ صباح الخير !

وراح الدكتور يتحسس يده ويقول :

— صباح الدم .. قلت لك مائة مرة إنى لا أحب هذا الهزار الثقيل .

ولمحت نادية أحمد يتحرك ليذهب إلى الحمام ، فقالت له :

— مكانك ! سأدخل الحمام أولا .

فقال أحمد فى ضيق :

— ولماذا هرعت لإيقاظنا ما دمت لم تذهبى إلى الحمام بعد ؟!

فقال الدكتور محمد :

— لأنها تتلذذ بتعذيبنا .

وضحكت نادية فى مرح ، وهرولت إلى الحمام .

وارتدوا ثيابهم ، وأسرعوا إلى غرفة السفرة ، وجلسوا يتناولون إفطارهم ، وراح الدكتور محمد يمرر يده على رقبته ويقول :

— لم أنم جيدا .

والتفت إلى أحمد وقال :

— أطار شخيرك النوم من عينى .

فقال أحمد فى فزع :

— شخيرى أنا ؟

فقال الدكتور محمد فى إصرار :

— نعم ، شخيرك .

فالتفت أحمد إلى نادية وقال :

— قولى له شخير من الذى يقلقنا .

فقالت نادية لأحمد فى خبث :

— شخيرك أنت .

فقال أحمد وهو يقفز من فوق كرسيه :

ـــ لا ، هذه مؤامرة .

وأخرج قطعة القطن من أذنه وقال :

ـــ الحمد لله . هاكم البرهان . لقد وضعت هذا القطن بيدك لترحمينى من شخيره .

فقالت نادية فى عناد :

ـــ أبدا .. وضعت القطن حقا بيدى لما قلت لى إن آذانك تصفر .

فقال الدكتور محمد :

ـــ اسمع نصيحتى واعرض نفسك على طبيب ، سأعطيك توصية لصديق متخصص فى الأذن والحنجرة .

فقالت نادية فى هدوء :

ـــ اكتب التوصية وهاتها .. سأذهب معه بعد الامتحان .

وراح أحمد يقلب عينيه فيهما وهو مذهول فى وجهه دهش وحيرة ، ولم يدر ماذا يفعل ، ولم يحاول أن يقول شيئا ، فقد آثر أن يستسلم .

وساد الصمت بينهم ، وقرأت نادية فى وجه الدكتور أشياء كثيرة ، إنه يفكر ، وأفكاره ليست سعيدة ، فيها قلق وخوف من مجهول ، فقالت له :

ـــ ما الذى يقلقك ويشغل بالك ؟

فقال أحمد فى لهفة :

ـــ يقظة ضمير ، أقلقه ضميره لأنه ظلمنى .

وقال الدكتور وهو شارد البصر دون أن يأبه بما قال أحمد :

ـــ كنت أنوى أن أستعير من عماد سيارته ، لأذهب بها بعد العيادة إلى النادى لأدلى بصوتى فى انتخابات النقابة ، ولكنى تذكرت فجأة حلما رأيته الليلة الماضية .

فقالت نادية :

— وماذا رأيت ؟

فقال الدكتور فى انفعال :

— رأيت شيئا غامضا يلف حولى خيوطا من حرير ، وبعد مدة أحسست أنى داخل « شرنقة » وأنى صرت دودة ! وقمت من نومى مفزوعا وقد جف حلقى واستبد بى خوف شديد ، وفى مثل لمح البصر ربط عقلى بين نعيب البومة وبين كونى دودة فى شرنقة .

وفطنت نادية إلى ما أوجس منه خيفة فأشفقت عليه ، بيد أن أحمد لم يفهم شيئا فقال :

— وماذا فهمت من الحلم ؟

فقال الدكتور فى أسى وخوف :

— نعيب البومة خراب ، ودخولى الشرنقة وتحولى إلى دودة قد يكون كناية عن دخولى القبر ، فلما فكرت فى استعارة سيارة عماد تملكنى الفزع ، وخيل إلىّ أنها هى التى ستقودنى إلى نهايتى .

وساد بينهم وجوم ، وحتى نادية تطيرت ، ولكنها لم تستسلم للأوهام فما لبثت أن سيطرت على أعصابها وقالت :

— قلت لك تغط جيدا قبل أن تنام .

وابتسم أحمد وقال :

— أظن أنى السبب فى أنه لم يتغط .

وجاءت سيدة وقالت :

— سيدى سيكون هنا فى الساعة الثانية ليتغدى معكم .

فقال الدكتور :

— إنى مدعو اليوم للغداء .

وقال أحمد :

— وأنا لا أستطيع أن أكون هنا فى الساعة الثانية .

فقالت له نادية :

— لماذا ؟

— لأنى سأقضى اليوم كله فى المعمل .

وقال الدكتور :

— تتغدى نادية اليوم معه .

وقال أحمد فى حماسة :

— ونتغدى معه كلنا بعد انتهاء الامتحان .

وخرج الدكتور ، وغادر أحمد الفيللا ، وبقيت نادية تغدو وتروح فى الردهة الواسعة وفى غرفة الاستقبال وغرفة السفرة ، ولمحت الزهرية البللورية التى كانت أحب ما فى الدار إلى أمها ، فاتجهت إليها وقبلتها .

ودوى فى المكان صوت كلاكسون ، فأشرق وجه نادية وخرجت تجرى فى مرح ، إنه عماد قد جاء . واستقبلها عند الباب الخارجى وهو يمد لها يديه ، فوضعت فيهما يديها وهى تقول فى صوت زاخر بالمحبة :

— صباح الخير يا عماد .

— صباح الهناء .

— تفضل .

— شكرا ! لقد تأخرنا .

وجذبها برفق وهو يقول :

— هيا .

— إلى أين ؟

— إلى القناطر ، تفتيش اليوم هناك .

وفتح باب السيارة فصعدت فى رشاقة ، وأغلق الباب خلفها ، ثم أسرع وجلس خلف عجلة القيادة فألفاها قد أدارت المحرك ، فابتسم راضيا وانطلق فى طريقه هابطا إلى الجيزة .

والتفتت نادية إليه وقالت :

— ألا يسيء إليك أن تصحب صديقة معك فى أثناء قيامك بعمل رسمى ؟

فقال وهو يبتسم :

— لولا هذه الصديقة ما أظهرت مثل هذا النشاط فى التفتيش والمرور على مزارع الوزارة .

— أيقدرون هذا ؟

— المهم أنى أقدره .

وساد الصمت برهة ثم قال :

— نادية ! أحبك .

والتفت إليها وقرأ فى عينيها سعادة ، فقال :

— وأتمنى أن نتزوج الليلة .

— لن أتزوج قبل أن أنتهى من دراستى .

— نعلن خطبتنا .

— أخاف أن تشغلنى هذه الخطبة عن دراستى .

— قولى بصراحة : أتحبيننى ؟! أتقبليننى زوجا لك ؟!

فقالت فى وجد :

— أحببتك منذ كنت طفلة . منذ تلك الأيام التى كنت أدير لك الحبل أنا

وأحمد وأنت تقفز فى خفة الغزال . إنى أذكر كل ما كنت تفعله وتقوله فى تلك الأيام .

فقال فى ابتهاج :

ـــ ماذا تذكرين ؟

ـــ أذكر ذلك اليوم الذى أردت أن تثبت فيه أنك أشجع أولاد الحى كله .

كانت الشمس تميل للغروب وكنا نلعب فى الحارة الضيقة التى كانت بين بيتنا وبيت مجدى ، وكان فى يد أحدهم سوط طويل ، فقلتَ :

« من يستطيع أن ينتزع السوط من يد من يضربه به ؟ » . وصمت الجميع ، وقال أحدهم :

« أتستطيع أنت أن تنتزع السوط منى لو كان فى يدى ؟ » فقلت فى تحد : « نعم أستطيع » . فقال : « قد أضربك به حتى تموت » . فقلت « سنرى » .

وتناول السوط ، وراح يضرب به الهواء ليرهبك وقال : « يمكنك أن تنسحب قبل أن نبدأ » فقلت : « بل نبدأ » .

وبدأت المباراة وأنا أنظر فى لهفة وخوف ، وراح يضربك ويهوى عليك بالسوط وأنت تنقض عليه وهو يتقهقر ، وأخيرا أطبقت على يده وانتزعت منه السوط وأنا أصفق فى سعادة وانفعال . وانتظرت أن تهوى عليه بالسوط ولكنك لم تفعل. وأثبت فى ذلك اليوم أنك أقوى أولاد الحى وأشجعهم ، وأكدت زعامتك عليهم . أتذكر ذلك اليوم ؟

قال وهو يبتسم :

ـــ أذكره ولا أنساه . كان السوط يمزق جلدى ، وكنت أتأ لم حتى أنى هممت أن أصرخ أكثر من مرة ، وتجلدت وانقضضت عليه فى يأس وانتزعت

السوط من يده ، وفرحت لأنى نجوت من العذاب الذى كنت أقاسيه ، ووقفت شامخا برأسى لحظات ، ثم رحت أعدو نحو البيت ، ولما بعدت عن عيون الأولاد بكيت من الألم ، ولم تغمض لى عين فى تلك الليلة ، كنت أحس كأن نارا تلسع جسمى ، ولم يكن يخفف من وطأة الألم إلا لذة الانتصار .

وصمت ولاح فى وجهه الزهو ، ثم قال :

ـــ وماذا تذكرين أيضا ؟

فقالت وهى تنظر إليه لترى أثر حديثها فى وجهه :

ـــ أذكر أنى رأيتك مرة وأنت فى الشرفة تمرر يدك على شعرك ،وكانت « بطة » فى النافذة أمامك .

ولاحظت تدفق الدم فى وجهه ، وسرها أنها أربكته ، وصمتت لتزيده ارتباكا ولتضطره إلى الحديث لتسمع صوته المتهدج المضطرب :

قال :

ـــ كانت « بطة » الفتاة الوحيدة المتفتحة فى الحى .

ـــ كنت أحس سعادة كلما اجتمع نساء الحى عندنا وذكرنها بكل سوء . لقد تنبأت أمى بنهايتها ، قالت : ستفر يوما مع رجل من الرجال ، وقد فرت مع مهندس كان يشرف على بناء عمارة أمام بيتهم .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـــ ما رأيك فى « بطة » الآن يا عماد ؟

ـــ لا أكاد أذكر شكلها . كانت أكبر منى .

ـــ الحق كانت جميلة ، وكانت لعوبا ، وقد لعبت بعقولكم ، كنا أطفالا ، ومع ذلك كنا نتندر بما فعلت بكم جميعا .

— وماذا فعلت ؟

— وقفت فى نافذة وأشارت لك أن تهبط ، ثم ذهبت إلى نافذة أخرى وأشارت لأحمد أن ينزل ثم أشارت لمحمد أن ينزل ، وانطلقت إلى نافذة ثالثة وأشارت لمجدى أن ينزل ، وذهبت إلى نافذة رابعة وأشارت لآخرين ليهبطوا لمقابلتها وهبطت وسارت وسرتم كلكم خلفها ، ودخلت دكان بائع خضر فدخلتم كلكم وراءها ، واشترت ما تريد واضطررتم إلى شراء أشياء لستم فى حاجة إليها ، وعادت إلى بيتها ، وعاد كل منكم إلى أهله بما اشترى .

— ومن قص عليك ذلك ؟

— كانت الأمهات يتندرن بما كانت تفعله بكم .

وأخفى عماد وجهه بيديه ، وأسرعت نادية وقبضت على عجلة القيادة وهمست فى أذنه :

— وعلى الرغم من كل ذلك أحببتك .

ومد ذراعه ولفها حولها وضمها إليه وقال :

— ليتك توافقين على أن نعلن خطبتنا .

وانطلقت السيارة ، ومر الوقت ، وانقضت الساعة الثانية ونادية وعماد فى القناطر ، ولم يخطر لها أبوها على بال ، كانت تتناول الغداء فى الكازينو مع حبيب الفؤاد بينا كان والدها يغدو ويروح فى الدار ينتظر أوبتهم ليتغدوا معه ، ولما يئس من عودتهم ضغط الجرس المتدلى من الثريا البللورية الفاخرة ، وقال للخادم الذى جاء مهرولا :

— قل لسيدة تعد الغداء لى .. وحدى .

٥

صنعت نادية من مجارى الستائر المعدنية قضبان سكة حديدية لقطار صغير ، ومدت القضبان على هيئة دائرة كبيرة وضعتها فى الردهة الواسعة الكائنة أمام غرف النوم الثلاث فى الطبقة الثانية من الفيللا ، ووضعت على منضدة أخرجتها من غرفتها بطارية ، وراحت توصل البطارية بالقطار الصغير الذى وضعته فوق القضبان ، وانطلق القطار ، وراحت تتحكم فى سرعته تزيدها مرة وتبطئها مرة أخرى ، ولما اطمأنت إلى كفاية أجهزتها راحت تركب على جانبى القضبان الإشارات ، واتسخت يدها فمسحتها فى صدر « العفريتة » التى كانت ترتديها .

وعادت إلى جهاز القيادة وكان على النضد إلى جوار البطارية ، ووصلت الكهربا بالقطار والإشارات ، فراح القطار يعدو وتحركت الإشارات ، ولم تكن حركتها تتفق مع ما يجب أن تكون عليه ، كانت تشير إلى إغلاق الطريق بينا أن حركة القطار تحتم أن تشير إلى فتحه ، وكانت تشير إلى فتح الطريق فى حين أن الواجب أن تشير إلى إغلاقه ، فاتجهت إلى الأسلاك الكهربية الموصلة بين الإشارات والبطارية وراحت تصلح وضعها .

وبلغت الأصوات مسامع أبيها فآنس إليها ، كان ممددا فى سريره وكان الملل قد تسرب إليه ، فما أحس بوجود حركة فى البيت حتى دبت الحياة فيه ، فنهض وارتدى الروب فوق البيجاما وخرج مسرعا كأنما يفر من شبح بغيض .

ورأى نادية وهى منهمكة فى إصلاح الإشارات ، كانت ركبتاها وظهرها إليه ، فوقف برهة ينظر ثم قال :

— مساء الخير يا نادية .

فنهضت مسرعة وهى تهتف فى سرور :

— بابا !

واتجهت إليه وهمت بأن تضمه وهى تقبله ، بيد أنها فطنت إلى أنها ترتدى « العفريتة » وبها آثار زيت وشحم ، فمدت له خدها فقبلها فى حنان وقال :

— انتهى الامتحان ؟

— انتهى أول أمس !

— وماذا فعلت ؟

فقالت فى ثقة :

— النجاح مضمون ، ولكنى متلهفة على ظهور النتيجة .

— لماذا ؟

— لأنى سأحزن إن لم أكن أولى الناجحين .

وابتسم وقال :

— وماذا فعل أحمد ؟

— نائم وسأوقظه بعد ساعة .. امتحان البكالوريوس بعد أسبوعين .

والتفتت إلى أبيها وقالت :

— عن إذنك .

واندفعت إلى حجرتها وعادت تحمل كرسيا وضعته إلى جوار النضد وقالت :

— تفضل .

وجلس أبوها ينظر وهو مسرور ، لم يعد وحده ، أشعره وجوده معها أن الدنيا كلها معه ، وذهبت إلى حيث وضعت إشارات السكة الحديدية وقالت :

— سأمد طريقا للسيارات يخترق السكة الحديدية ، وسأضع مزلقانا هنا يغلق من تلقاء نفسه عندما يمر القطار .

فقال الأب مشجعا :

— من الأفضل أن تضعى إشارات مضيئة ، وجرسا يدق باستمرار إلى أن يمر القطار.

— إنى أفضل المزلقان على الإشارات الضوئية ودق الجرس ، فأغلب الناس فى هذه الأيام شاردون ، غائبون عن كل ما حولهم بما يشغل رءوسهم .

وطمع الأب فى أن يقضى مع أبنائه ليلة فقال لها :

— ماذا ستفعلون الليلة ؟

فقالت وهى تحمل القطار فى يد وتثبت به الأسلاك باليد الأخرى :

— دعانا الدكتور للعشاء . سيأتى عماد ومجدى وسنذهب إليه فى العيادة ، ثم تنطلق معه إلى حيث لا ندرى ، فقد أعد لنا مفاجأة .

وهم بأن يقول إنه سيأتى معهم ، ولكن عز عليه أن يعرض نفسه ، إنه فى أشد الحاجة إلى أن يقضى معهم أوقات فراغه المملة القاسية ، بيد أن فرض نفسه على أبناء تختلف دنياهم عن دنياه أقسى وأمر ، فلاذ بالصمت وطافت به موجة من الأسى .

وانهمكت نادية فى توصيلاتها الكهربية ، وجاء الخادم وقال :

— عماد بك ومجدى بك فى غرفة الاستقبال .

فقالت نادية وهى تتبع القطار بنظرها :

ـ قل لهما تفضلا .

وهبط الخادم ، وبقى الأب مترددا أينسحب إلى غرفته أم ينتظر حتى يقبل صديقا أبنائه ويتسامر معهما ؟ وآثر الانتظار ، ومرت لحظات ورآهما صاعدين فوقف يرحب بهما :

ـ أهلا .. تفضلا .

وأسرع عماد إليه ومد يده مصافحا :

ـ كيف حالك يا عمى ؟

ـ الحمد لله .

وخف مجدى وصافحه .

والتفت عماد إلى نادية وإلى السكة الحديدية وقال :

ـ ما شاء الله !

فأقبلت نادية وهى تحمل القطار بيديها وقالت :

ـ عزمت على أن أصنع فى الإجازة قطارا يسير بالبخار ، حجمه ١ إلى ٢٠ من حجم القطار .

فقال مجدى :

ـ فى أى مصنع ؟

فقالت نادية فى حماسة :

ـ هنا فى الجراج ، عندى منجلة ومبارد وصلب وكل ما أحتاج إليه من عدد وأدوات .

فقال عماد :

ـ ستحتاجين إلى مخرطة .

ـ سأخرط كل شىء فى الكلية .

فقال مجدى فى حماسة :

ـ المهم أنك تملكين اللمسة الفنية .

وراح الأب يقلب عينيه فيهم دون أن ينبس بكلمة . وإن كان يحاول أن يقرأ بعينه الفاحصة خبايا نفوسهم . كانت نظرات عماد لنادية تكشف عما يكنه لها من حب ، وكان قلق مجدى ينم عن أنه يكتم شيئا يريد أن يفضى به إليها ، و لم تخب فراسته إذ قال مجدى دون مناسبة :

ـ لقد استجبت يا نادية لنصيحتك .

فالتفتت نادية إليه وقالت :

ـ حقا !

والتفت عماد إليها فى انتباه و لم يغب عن عين الأب أن وجهه تغير قليلا ، وأصاخ الأب سمعه ليعرف النصيحة التى استجاب لها مجدى ، وقال مجدى :

ـ عثرت على أسطورة عربية ، وقد بدأت فى صياغتها صياغة فنية .

وقال عماد :

ـ هل ستنظمها شعرا ؟

ـ لم أقرر بعد .

ـ وحول ماذا تدور الأسطورة ؟

ـ حول فتح مصر .

ووضعت نادية القطار على النضد إلى جوار البطارية ، والتفتت إلى أبيها وقالت :

ـ عن إذنك .

وقال الأب :

ـ تفضلوا .

وراحت نادية تهبط فى الدرج ، وعماد ومجدى فى أثرها ، والأب ينظر فى أسى ، كان فى شوق لسماع حديث الشباب وآمالهم العذاب ، بيد أن نادية ضنت عليه دون أن تدرى بتلك المتعة التى ما كانت تكلفهم شيئا ، وظل يتبعهم بنظره حتى إذا ما غابوا عن عينيه دار على عقبيه واتجه إلى غرفته .

وجلست نادية فى الردهة وعن يمينها عماد وعن يسارها مجدى ، والتفتت إلى مجدى وقالت :

ــ قص علىّ الأسطورة .

فانبسطت أسارير مجدى ، سره أنه أصبح موضع اهتمامها وإن لم تراوده فكرة أن يحتل مكانة عماد عندها ، وقال :

ــ المصريون قبل الفتح الإسلامى فى عيد من أعظم أعيادهم ، الناس فى فرح وسرور والموسيقى تصدح والأناشيد تنشد ، وعمرو بن العاص وبعض التجار العرب يجوسون خلال الناس ، فقد كان من عادتهم أن يأتوا إلى مصر للتجارة .

وبدأ احتفال رمى الكرة فيكتم الناس أنفاسهم وتشرئب أعناقهم ، فهم يعلمون أن الكرة إذا سقطت على أحدهم فهذا دليل على أنه سيعتلى عرش مصر يوما ، وقد ألقيت الكرة فى السنين الخوالى و لم تخطئ مرة .

ويُلقى الكاهن الأعظم الكرة ، وتسقط على عمرو بن العاص بين الدهشة وصيحات الاستنكار ، وظن الجميع أن الكرة أخطأت هذه المرة فأين هذا الأعرابى الغريب من ملك مصر ؟!

وتمر السنون ، ويقدم عمرو بن العاص على رأس جيش المسلمين لفتح مصر ويتم له فتحها ، ويدخل عليه الكاهن الأعظم ويتذكر أمر الكرة ، فيقول له عمرو : ستتلقفها كابرا عن كابر .

وصمت قليلا ثم التفت إلى نادية وقال :

ـــ ما رأيك ؟.

فقالت نادية دون أن تدرى أنها تستعير منه تعبيره :

ـــ المهم اللمسة الفنية .

وأحس عماد شيئا غريبا فى نبرات صوتها ، فاختلس النظر إليها وهو يقول لمجدى :

ـــ من الأفضل أن تعالج أساطيرنا المحلية .

فقالت نادية مشجعة :

ـــ المهم أن يبدأ وأن يسير فى الطريق ، وأنا واثقة أنه سيحقق بعد ذلك كله ما نريد .

ونظرت فى ساعتها وقالت :

ـــ عن إذنكما سأغير ثيابى لنذهب إلى الدكتور ، فقد حان الميعاد .

وأحس عماد شيئا من الغيرة ، بيد أنه سخر من مشاعره وقال :

ـــ ليت أحمد يأتى معنا .

فقالت نادية وهى فى طريقها إلى السلم الداخلى :

ـــ كان الله فى عونه فى هذه الأيام .

وغيرت ثيابها وارتدت ثوبا بسيطا فبدت فيه رائعة ، فقد كان جمالها فى بساطتها ، وانطلقوا إلى السيارة وركبت بينهما وانسابوا فى الطريق إلى الجيزة .

وتأهب شوقى بك للخروج ، لم يعد يطيق البقاء فى البيت وحده ، حتى الكتب التى كان يأنس إليها ضاق بها ، وهبط إلى الجراج وركب سيارته الصغيرة وانطلق لا يلوى على شىء .

وراح يضرب على غير هدى ، ولمح مطعما هادئا فوقف عنده ودخل ليعيش مع الناس ، كان المكان قاعة متوسطة صفت فيها موائد على كل مائدة شمعة كبيرة ، ولم تكن هناك إضاءة غير أنوار الشموع فبدا الجو ساحرا ترتاح إليه النفس وتغفو فيه عين القلق ، وكانت الموسيقى الهادئة الحنون تفتح القلوب للمحبة ، وتجعل الأرواح ترفرف فى عوالم من الرقة والشفافية .

ومشى بين الموائد حتى إذا بلغ مائدة منعزلة جلس وحده ، وراح يرقب الشمعة ودموعها تنهمر كاللآلئ وتحترق دون أن يحس بها أحد ، ليس لها فى دنياها إلا الدموع والذبول ، وستظل نارها تحرقها حتى تموت ، ولن يذرف أحد عليها دمعة هى التى كانت كل حياتها دموع !

وراح يدير عينيه فى المكان ، كانت الموائد غاصة بالناس ، البشر فى الوجوه ، والابتسامات على الشفاه ، وضحكات تجلجل هنا وهناك ، ولم يكن على مائدة وحده أحد غيره وغير سيدة جلست وحيدة يفصل بينه وبينها مائدتان .

ومد عينيه إليها ، لم تكن شابة ، كانت فى الأربعين ممتلئة الجسم قليلا بيضاء البشرة يسكو وجهها مسحة أسى وفى عينيها شجن . إنه يعرف حقيقة مشاعرها فهو يذوق نفس الإحساسات التى تكابدها ، وتحركت شفقته وهمس فى جوفه هامس :

ـــ ما أقسى الوحدة !

والتقت عيناه بعينيها ، ولم تنبسط أساريره بيد أنه أحس بسمة عريضة فى وجدانه وبصيصا من النور يتسلل إلى ظلام نفسه .

وعاود النظر إلى الشمعة فهالته الدموع المنهمرة فى غزارة على جوانبها ، فراح يكفكفها بالشوكة ويعيدها إلى جوار اللهب لعله يطيل بقاءها .

وشُغِل بإعادة دموع الشمعة لتنصهر مرة أخرى وهو غارق فى التفكير ، وفطن إلى أنه مثل هذه الشمعة إذا ظلت النار مندلعة فى جوفه ودموعه تجرى على خديه فسيذوى ويموت ، إنه فى حاجة إلى من تطفئ ناره وتكفكف عبراته .

والتمعت فى ذهنه فكرة ، فمد يده وأطبق على لهيب الشمعة بإصبعيه فانطفأ وجمدت الدموع، وبقى كيان الشمعة وما عاد يذوب ، فاستشعر راحة ، ورفع رأسه وتلفت فوجد السيدة تنظر نحوه ، فابتسم وإذا بوجه السيدة يتطلق وترف على شفتيها بسمة .

وخُيل إليه أن الشيب الذى نبت فى ضميره ذاب كما تذوب الثلوج إذا ما سقطت عليها أشعة الشمس ، وراودته أفكار فيها رعونة كتلك الأفكار التى تطوف بأخيلة المراهقين ، وراح هامس يزين له أن ينهض وأن يذهب إليها يشاركها مائدتها ، ولكنه كبح جماح هذه الرغبة وإن كان فى قرارة نفسه يشتهيها .

وجاء الجرسون بالعشاء ، وقبل أن يضعه أمامه خف إلى الشمعة وأعاد إشعالها ، وما ابتعد الجرسون حتى أطبق عل اللهيب بأصبعيه وكتم أنفاسه ، ثم التفت إلى السيدة فألفاها تبتسم ابتسامة عريضة .

وراح يتناول عشاءه فى شهوة ، ويصغى إلى الموسيقى فتنسكب فى روحه عذبة تدغدغ الحواس ، ورفع رأسه عن الطعام أكثر من مرة ونظر نحوها ، ووسوس له شيطانه أن يغمز لها بعينه بيد أنه أوصد فى وجهه أبواب الاستجابه من نفسه .

وانتهى من طعامه ، فنهض ومر بها وقال فى رقة :

— مساء الخير .



فقالت فى صوت خافت فيه أنوثة محببة :

ـــ مساء الخير .

وسار و لم يلتفت وذهب إلى سيارته وانطلق عائدا إلى داره ، وما خلف المطعم وراءه حتى أطبقت عليه وحدته ، وأحس وحشة وانقباضا ، وملأ رأسه شبح الشمعة وهى تذرف الدموع بكاء على حياتها التى تذهب هباء .

وذهب إلى غرفة أحمد وراح يتلفت ، فرآه منهمكا فى القراءة فقال له :

ـــ أعاد الدكتور ونادية ؟

ـــ لم يعودا بعد .

واتجه إلى غرفته ، وراح يفكر فى أبنائه وهو يخلع ثيابه ، كان ذلك حالهم قبل موت أمهم ، فما كانت تحفل كثيرا بخروجهم أو عودتهم ، وما كانت تهتم إذا ما تأخروا فى الليل أو تخلفوا عن الغداء أو العشاء ، فقد كانت ترقبه هو ، وترصد مواعيده ، وتغضب إذا غاب عنها ، حتى لو اضطره عمله إلى ذلك ، كانت تخشى أن تخطفه امرأة أخرى منها ، فإذا عاد وشاركها طعامها رضيت ونامت ملء جفنيها .

وتذكر ذلك اليوم الذى ظهرت له صورة فى الصحف وإلى جواره بعض السيدات ، كانت صورة التقطت فى حفل عام ، وعلى الرغم من ذلك غضبت وثارت وألقت بالصحيفة أرضا وراحت ترغى وتزبد وتدوسها فى حركة هستيرية بأقدامها .

كانت تضايقه أحيانا ، وكانت تغضبه أحيانا ، وكانت تجرحه أحيانا بشكوكها ومع ذلك كان يحبها .

وارتدى البيجاما وتمدد فى فراشه وإذا به يفكر فيما كان فى المطعم الليلة ، إنه ليرى السيدة وهى تبتسم فى وضوح ، ويرى نفسه وهو ينطلق إلى جوارها

ويقول لها :

ــ مساء الخير .

ويرن فى وجدانه صوتها الحنون المشحون أنوثة يقول :

ــ مساء الخير..

فينقلب فى سريره ، ويمد يده ويطفئ الكهرباء وهو يهتف بصوت مسموع قائلا :

ــ مساء النور .

٦

دخل مجدى مكتب عماد فى الوزارة وهو يحمل بعض الكتب ، ولم يكن عماد وحده ، كان يشاركه الغرفة ممتاز . وهو شاب تدل ملامحه على أنه من أصل تركى ، كان بدينا وكان قصيرا وكان زميلا لعماد فى الدراسة ، وقد تعرف مجدى به من تردده على المكتب للقاء صديقه .

ووقعت عيناه أول ما دخل على ممتاز ، فقال وهو يرفع يده إلى رأسه بالتحية :

ــ صباح الخير يا ممتاز .

ــ أهلا مجدى ! تفضل .

وهم واقفا ومد له يده مصافحا ، ومد يده الأخرى ليتناول الكتب ، ولمح عماد هذه الحركة فأسرع وأخذ الكتب من مجدى وهو يقول لممتاز :

ــ هذه أمانة ، وأنت لا تحب الأمانات .

فقال ممتاز :

— هذه كتب ، وأنا أحب الكتب .

— ولكنك تكره ردها .

— وكيف أرد العلم بعد أن يدخل بيتى ؟

— هذه الكتب لا بد من ردها ، لأن مجدى استعارها من المكتبة لأقرأها ثم أردها .

فقال ممتاز وهو يجلس :

— إنى أمقت الكتب التى ترد .

فقال مجدى وهو يبتسم :

— وعلى ذلك فهناك كراهية بينك وبين المكتبات العامة .

وجلس مجدى على كرسى قريب من مكتب عماد ، وقال ممتاز :

— بالعكس إنى أحبها ، لا لأنى كنت أقرأ فى قاعاتها ، بل لأنى كنت أواعد صديقاتى على اللقاء فى دار الكتب .

وضحك حتى اهتز كل جسمه ، وفطن إلى أن عماد ومجدى لم يضحكا فسكت فجأة ، ثم راح يستأنف عمله .

ودنا مجدى من عماد وقال له :

— قلت لى ذات ليلة إنك ستتقدم لخطبة نادية بعد انقضاء أيام الحداد ، وقد مضى أكثر من شهرين على موت أمها ، فلماذا لا تنفذ أمنيتك ؟ هذه أفضل الأيام لإعلان الخطبة لتهجر الكآبة التى رانت على البيت بعد موت السيدة الطيبة .

فقال عماد :

— فاتحت نادية فى هذا فقالت إنها لن تفكر فى الزواج قبل أن تنتهى من دراستها ، ورفضت فكرة إعلان خطبتنا .

ـــ لماذا ؟

ـــ تخشى أن تشغلها عن الدراسة .

ـــ لا . سأكلمها فى هذا الموضوع ، لا بد من إعلان الخطبة .

ووقعت عيناه على التليفون القريب من مكتب عماد ، فقام إليه ورفع السماعة وأدار القرص ، وعماد يرقب أصابعه ، ففطن إلى أنه يطلب بيت شوقى بك .

قال مجدى :

ـــ آلو .. الأستاذ أحمد من فضلك .

وسمع عماد صوت الخادم يقول :

ـــ نائم .

وقال مجدى فى صوت متهدج جعل عماد يتفرس فى وجهه ليستشف حقيقة مشاعره التى يكبتها :

ـــ الآنسة نادية .

وقال الخادم :

ـــ فى الجراج ، انتظر حتى أدعوها .

فقال مجدى :

ـــ متشكر لا داعى لإزعاجها .

ـــ أتحب أن أبلغها شيئا ؟

ـــ قل لها إنى آت الآن لمقابلتها . أنا مجدى .

ووضع سماعة التليفون ، وقال عماد وهو متطلق الوجه :

ـــ بدأت فى صنع قاطرتها البخارية .

فقال مجدى وهو واقف :

— إنها صاحبة عزم .. ماذا ستفعل الليلة ؟

— لن أغادر مكتبى .. أنتظر تقارير مقاومة الدودة والعنكبوت الأحمر .

وقال مجدى وهو يرفع يده إلى رأسه محييا :

— السلام عليكم .

— وعليكم السلام .

وسار مجدى وعماد يرقبه ، وقبل أن يغادر الغرفة ناداه عماد :

— مجدى .

والتفت مجدى فإذا بعماد قد نهض واتجه إليه وهو يقول :

— خذ مفاتيح السيارة واتركها للدكتور ، فهو فى حاجة إليها اليوم .

وتناول مفاتيح السيارة وانصرف .

وانطلق مجدى بالسيارة إلى طريق الهرم ، وفكر فى أنه ذاهب إلى من يحبها بكل جارحة من جوارحه ليلتمس منها أن تقبل إعلان خطبتها لآخر ، فسرت فيه موجه من الأسى ، ولاح فى وجهه شجن ، وما لبث أن قاوم ذلك الحزن الذى نزل به وراح يقنع نفسه أن ليس له إلا أن يرضى ، فإن كانت أحبت عماد فهذا شىء خارج عن إرادتها ، فقلبها خفق بحبه ، وروحها هامت بروحه ، وما لأحد سلطان على ذلك الشىء الغامض الذى يؤلف بين الأفئدة ، ويزاوج بين الأرواح .

ودنا من الفيللا وضغط على الكلاكسون ، وما أن بلغ صوته مسامع نادية حتى تركت كل شىء وخرجت تعدو لاستقبال عماد ، وإذا بها ترى مجدى فتستقبله بابتسامة وتقول فى صراحة :

— حسبتك عماد .

فخفق قلبه على الرغم منه ، وقال وهو يغتصب ابتسامة :

— ما جئت إلا من أجل عماد .

فنظرت إليه نظرة فاحصة فلم يغب عنها اضطرابه ، وفطنت إلى أنه يقاوم انفعالا يموج بين جنباته فقالت له :

— وما خطب عماد ؟

— جئت أسألك ، أنا أخوك الأكبر ، عن أسباب رفضك لإعلان خطبتكما .

لماذا تهدج صوته ؟ لماذا اضطرب وهو يقول : أنا أخوك الأكبر ؟ آه لو طاوع هواه لقال لها : أنا الذى أحبك من أعماق نفسى ، أنا الذى أهواك بكل جوارحى ووجدانى ، أنا الخاشع فى محراب الحب دون أن يحس حرارة صلاته معبوده !

قالت نادية :

— قلت له فى صراحة ، إن خطبتنا لن تعلن قبل أن أنتهى من دراستى ، لا أريد أن يشغلنى عنها شىء .

— نادية ! عماد يحبك .

— وأنا أحبه .

— ليس هناك شىء فى الوجود أروع من أن تحب وأن تكون محبوبا ممن تحب . كل نجاح فى الحياة يتضاءل إلى جوار النجاح فى الحب ، شهادتك التى تفضلينها على خطبتك ممن يهواه فؤادك لا تساوى خفقة واحدة من مهجة سعيدة راضية مرضية ، الجامعة كلها لا تساوى هذه الخفقة .

وشرد ببصره وقال :

— لو خيرت بين أن أفقد مؤهلى أو أفقد حبى ما ترددت فى أن أنقذ حبى ، فما أكثر السعداء الذين يعيشون دون مؤهل دراسى ، وما أشقى الذين

يعيشون بلا حب .

وقالت وهى ترمقه مفتوحة العينين والحس :

— لم أطلب منه إلا أن نتريث ، أن ننتظر سنتين ، وما أقصرهما إذا قيسا بالعمر !

— كيف تطلبين من محب أن يطمئن للأيام ؟

فقالت فى ثقة :

— الأيام فى جانبنا ، إنها تزيدنا شوقا وتعمق جذور حبنا .

— حرام أن تتركى عماد يقاسى من قلقه .

— وما الذى يقلقه ونحن معا كل يوم ؟

— يقضى الصراف أغلب أوقاته بين أكداس وأوراق البنكنوت ولا يفرح إلا بالأوراق القليلة التى تدخل جيبه ، شتان بين أن تكون نادية معه وبين أن تكون نادية خطيبته معه .

فقالت وهى تبتسم .

— لا أجد فرقا كبيرا ، فأنا معه فى الحالتين .

وصمت قليلا ثم قال :

— نادية ، إننا لا نعرف قيمة ما نملك ، الحب الذى بينك وبين عماد شىء عظيم . أعظم ما فى هذا الوجود ، ويجب أن يعلن .

فراحت تحملق فى وجهه دون أن تطرف لها عين وقالت :

— سأفكر .

فقال فى ابتهاج كأنما قبلت حبه :

— شكرا .

ومد لها يده مصافحا فقالت له :

— إلى أين ؟

— إلى الدكتور محمد لأترك له السيارة .

وانصرف ، وخطر لها أن تكلم عماد فى التليفون ، أن تقول له : لا يجب أن يدخل أحد بين محبين ، بين اثنين سيصبحان عما قريب زوجا وزوجة ، وأن كل أمورهما يجب أن تسوى بينهما بعيدا عن الآخرين ، وانطلقت إلى التليفون وقبل أن تصل إليه دارت على عقبيها وعادت من حيث جاءت ، تذكرت طيبة مجدى فعز عليها أن تجرح شعوره .

وترك مجدى السيارة للدكتور ، فلما انتهى من عيادته ، وكانت الساعة قد أشرفت على الثالثة ، راح يقودها وهو مجهد ، وانساب فى الطريق الضيق المرشوش بالماء ، الذى تطوع القهوجى برش أغلبه بخرطوم طويل عنده .

ودارت السيارة فى ميدان الجيزة ، واتخذت سمتها إلى طريق الهرم ، وما كادت تقطع بضعة أمتار حتى ظهرت أمامها فجأة فتاة فى التاسعة عشرة ترتدى ثوبا أبيض وفى يدها حقيبة من الشبك الأبيض ، فظهر الهلع فى وجه الدكتور ، وراح يبذل كل جهده ليتحاشاها ، أدار عجلة القيادة فى سرعة ليحيد بالسيارة عن طريقها ، وداس بكل قوته على الفرملة ، وعلى الرغم من كل ذلك زحفت السيارة واصطدم بها صدمة خفيفة ، لم تدفعها بعيدا بل جعلتها تسقط على الأرض فى مكانها .

وقفت السيارة ، وهبط الدكتور منها وهرع إلى حيث وقعت الفتاة ، فإذا به يراها فى بركة من الدم ، وفى مثل لمح البصر أنكر ما رأى فقد لمستها السيارة لمسا ، وتعطل فكره عن العمل ، وأحس غثيانا وسحابة تنسدل على عينيه ، ثم انهار مغشيا عليه إلى جوار السيارة .

وتحركت الفتاة وقامت منتصبة ، ولمحته وهو فى غيبوبته وقد أسند ظهره

إلى مقدمة السيارة ، فذهبت إليه وجعلت تربت على وجهه فى خفة إلى أن فتح عينيه ، وهز رأسه ليستعيد ذاكرته .

ورآها أمامه فراح يرمقها فى دهش ، وزاد فى استغرابه لما سمعها تقول فى هدوء :

ـــ آسفة ، هذه غلطتى ، اجتزت الشارع دون أن ألتفت كنت مشغولة بأفكارى .

وأشار بأصبعه إلى آثار الدماء وقال :

ـــ وما كل هذا ؟

فقالت وهى تبتسم :

ـــ بسيطة .

فجعل يفرها بعينيه فى خوف ، كان يحسب أن صحوة الموت هى التى جعلتها تقف على قدميها بعد أن نزف منها كل هذا الدم ، وقال :

ـــ من أين كل هذا ؟

وفطنت إلى فزعه فضحكت وقالت :

ـــ من زجاجة شربات كنت أحملها فى حقيبتى .

فزفر فى راحة ونهض ، وما لبث أن أقلع خوفه وعاد إليه هدوؤه ، فراح يرمق الفتاة بعين فاحصة ، كانت بيضاء البشرة دقيقة التقاطيع شعرها يميل إلى الاصفرار ، وقد كشفت بسمتها عن خفة ظلها .

ودنا منها وقال :

ـــ سليمة !

ـــ الحمد لله .

ولم يهتم بالناس الذين التفوا حولهما ، كانت كل حواسه مركزة فيها ،

وقال لها :

— سيرى أمامى أرجوك .

فرفعت عينيها إليه وقالت :

— لماذا ؟

يا لعينيها الجميلتين ! أهما خضراوان أم زرقاوان ، أم فى لون الفيروز ؟ لم يتحقق من لونهما تماما ، ولكنه أحس شيئا لذيذا يمس شغاف قلبه ، وقال :

— لأطمئن عليك .

وسارت أمامه رشيقة ، يا ألله ! من أين لها كل هذه الفتنة ؟ إن شيئا ما يجذبه إليها ، شيئا يجعله يتمنى لو تطول وقفته معها . وأقبلت عليه وقالت :

— اطمئن ، سليمة .

وأسرع إلى السيارة وفتح بابها وقال :

— تفضلى أوصلك إلى البيت .

— شكرا ! البيت قريب .

ووقف مترددا برهة ثم قال :

— آسف تمزق جوربك ، واتسخ فستانك ، ولن تستطيعى السير فى الطريق على هذه الصورة .

ونظرت ببصرها إلى الناحية الأخرى وقالت :

— البيت على بعد خطوات من هنا .

أيتركها تفلت من يده بعد أن ساقها قدره إليه ؟ إن شيئا ما فى داخله يحرضه على أن يتشبث بها ، فأخرج من جيبه بطاقة وقدمها إليها وقال :

— أرجو أن تمرى علىّ فى العيادة لأطمئن عليك .

وتناولت منه البطاقة وهى تبتسم وقالت :

ـــ إن شاء الله .

ـــ وأرجو أن يكون ذلك قريبا حتى لا يساورنى القلق ..

ـــ بإذن الله .

ومدت يدها تصافحه ، فمد إليها يده ، وضغط على يدها فى رقة وقال :

ـــ مع السلامة .

والتقت العيون لحظة فصيحة معبرة ، ثم دارت على عقبيها وسارت تجتاز الطريق ، وخطر له أن يسرع خلفها يسألها عن اسمها ، بيد أنه آثر أن يتريث ، فقد وعدته بزيارته فى العيادة . وعدته ؟! إنها لم تعده ، فهو الذى التمس منها أن تزوره ليطمئن عليها وهو يرجو أن تفعل .

وغابت عن عينيه ، فأسرع إلى السيارة وراح يقودها وهو منشرح الصدر تداعبه رؤى عذبة وآمال نابضة بالحياة .

آه لو لم تأت لزيارته ، لنقب عنها فى الحى كله حتى يعثر عليها ، فهو يحس وهو منطلق فى طريقه إلى البيت أن شيئا رائعا جميلا دخل حياته ، وجعل لها طعما لذيذا .

٧

أتى المساء ، وارتدى شوقى بك بذلة سوداء من الموهير ، وتعطر ولمَّع شعره الأسود ، وبدا أنيقا غاية الأناقة ، حتى إن العين الساذجة إذا وقعت عليه فطنت إلى أنه على موعد هام مع فاتنة من فاتنات النصف الآخر .

وخرج من غرفته على أطراف أصابعه ، وأغلق بابها فى هوادة خلفه ، كان يريد أن ينسل دون أن يلمحه أحد ، فما عاد يهمه فى هذه الليلة أن يجلس إلى

أبنائه أو يجد من يعاونه على قتل الملل الذى يستبد به ، فقد عزم على أن يتناول عشاءه على أضواء الشموع ، فى ذلك المطعم الذى رآها فيه فى أمسه ، كانت حاسته السادسة تؤكد له أنها الآن هناك فى انتظاره ، وإن لم يضرب أحدهما للآخر موعدا .

ومر بغرفة أحمد وكان يغط فى نومه تأهبا لسهر الليل ، فاستشعر راحة ، وهبط فى الدرج وإذا بسيدة تتسلى بمشاهدة التليفزيون وحدها ، فسار على أطراف أصابعه وغادر الفيللا واتجه إلى الجراج .

كان المكان غارقا فى الضوء ، وكانت نادية وحدها ترتدى « العفريتة » وتعمل فى برد قرص من الحديد من أقراص القطار الذى بدأت فى صنعه واستولى على كل طاقات تفكيرها ونشاطها .

وذهب إلى سيارته وجلس خلف عجلة قيادتها فى خفة ، ولما اطمأن إلى أنها لن تلحظ ما طرأ على روحه من تبدل لمجرد أمل داعب خياله ، قال :

ــ مساء الخير يا نادية .

فقالت نادية دون أن ترفع عينيها عما كانت تصنعه :

ــ مساء الخير يا بابا .

وفى لحظات انسابت السيارة وغادرت الفيللا ، وانطلقت براكبها الذى استخفه المرح فجعل يصفر لحنا خفيفا ويهز رأسه فى نشوة إلى قبلته ، إلى المطعم المنشود الذى تجسد فيه أمله .

ووقفت السيارة أمام المطعم فهبط منها فى نشاط وأغلقها فى سرعة ، ثم تقدم ثابت الخطو ودخل إلى الردهة الواسعة التى صفت فيها الموائد وراح يدير عينيه فى المكان ، وتهللت أساريره ورقص قلبه مرحا ، كانت هناك فى نفس المائدة التى كانت جالسة إليها بالأمس ، وسره أن عينه الفاحصة لمحت أنها الليلة

أكثر زينة وأكثر إشراقا .

ومشى إلى مائدتها والتقت عيناها بعينيه فابتسم ، فرفت على شفتيها بسمة ، ووقف أمامها والمائدة تفصل بينهما وقال :

— مساء الخير .

فقالت فى هدوء :

— مساء النور .

وجذب الكرسى ليتمكن من الجلوس وقال :

— أتسمحين ؟

فقالت فى رنة فيها رضا :

— تفضل .

وقال وهو يجلس :

— شكرا .

ونظر إليها نظرة فاحصة فخيل إليه أنه غاص فى أعماقها ، إنها مثله ، وحيدة ، تكاد تقتلها وحدتها ، إنها فى شوق إلى من يمد لها يده ينتشلها من حياتها الجافة الكئيبة التى تحياها .

من يدرى ؟ لعلها كانت تفكر فيه كما كان يفكر فيها ، ولعلها كانت تتزين له كما كان يتزين لها ، ولعلها كانت تأمل لقاءه كما كان يأمل لقاءها ، وراح يفكر : كيف يبدأ حديثه بحيث يجرها إلى الإفضاء بما فى صدرها ، ليعرفها ، وليمكنها من أن تجد منفسا لما كانت تقاسيه فى وحدتها ، وليجد هو نفسه منفسا للانفعالات التى تمور فى جنباته ؟

وفكر فى أن يقدم لها نفسه حتى تفعل مثله وتقدم له نفسها ، بيد أنه وجد أن من الأوفق أن يدع ذلك حتى يأتى عرضا دون ترتيب ، قال :

ــ يُخيل إلىّ أنك وحيدة فى القاهرة .

قالت وهى تبتسم ابتسامة تقطر مرارة :

ــ لم أكن وحيدة قبل أن يسافر ابنى فى بعثة ، كان يملأ كل حياتى ، وفجأة سافر ليتم دراسته فى الخارج فوجدت نفسى تائهة فى دنيا واسعة عريضة . كانت رسائله لا تنقطع . وكانت تروى كل ما يقع له فى حماسة ، وكانت تنم عن شدة تعلقه بى ، ثم قلت الرسائل ، وفترت حماستها ، حتى إنى أحسست أنه شُغِلَ عنى بغيرى ، أحب ، أنا واثقة من أنه أحب ، ومن حقه أن يحب ، ولكن ليس من حقه أن ينسانى .

وترقرقت فى عينيها دمعة ، فقال لها مواسيا وإن كانت الدهشة تملؤه ، فما دار بخلده أنه سيضع من أول كلمة أصبعه على جروح متقيحة فى نفسها :

ــ إننا لم نذكر فى شبابنا إلا أنفسنا ، كنا نحسب أن الدنيا ما خلقت إلا لنا ، وما نقاسيه الآن من أبنائنا قاساه آباؤنا منا ، فإن كنا نشكو من جحودهم فيا طالما جحدنا أفضالا ، وإن أنكرنا عليهم أنانيتهم فما أكثر ما كنا أنانيين !

فقالت وقد شردت ببصرها :

ــ كنت أحب أبى وأمى من كل قلبى .

ــ ومن قال إن أبناءنا لا يحبوننا ! إنهم يحبوننا كما نحبهم ، ولكن الفرق بين حبنا وحبهم أننا مشغولون بهم ، بينما هم مشغولون عنا بآمالهم .

ــ وهل عندك أولاد ؟

فقال فى فخر :

ــ ثلاثة ، أكبرهم طبيب أسنان ، والثانى فى السنة النهائية بكلية الزراعة ، والثالثة فى السنة الثالثة فى كلية الهندسة ، وستنتقل عند ظهور النتيجة إلى السنة الرابعة ، إنها عبقرية .

ونظرت إلى الكرافتة السوداء ، وتيقنت من إجابة السؤال الذى دار برأسها ، ولكنها أحبت أن تسمعه منه فقالت :

— وأمهم ؟

فقال فى أسى :

— ماتت من شهور .

فقالت وهى تتظاهر بالارتباك :

— آسفة !

وصمتت قليلا ثم قالت :

— مات زوجى من خمس سنوات ، ولكنى لم أذق قسوة الفراق ومرارة الوحدة إلا بعد أن سافر ولدى .

فقال وهو ينظر فى عينيها :

— كان لا بد أن يتركك وحيدة يوما .

والتفت إلى الشمعة وهى تذرف دموعها ، فتناول شوكة وراح يعيد الدموع إلى اللهيب ليطيل حياتها ، وقال :

— أولادى فى البيت معى ولكنى لا أكاد أحس وجودهم ، وحتى إن أرهف حسهم وهرعوا إلىّ لمؤانستى فسينفضون من حولى يوما ، سيتزوجون ويكونون لهم بيوتا كما فعلنا ، وسأبقى فى البيت وحدى ، لا يحس تردد أنفاسى إلا الحيطان والصمت المطبق على حياتى .

وأحس أن الكآبة رانت عليهما ، فقرر أن يغير الموضوع وأن يوجهه وجهة أخرى أكثر إشراقا ومرحا ، فالتفت إليها وقال :

— الإنسان مُحير ، أحيانا يخيل إلىّ أنى عشت عمرا طويلا ، وأنى شبعت من الدنيا و لم يعد فيها ما أشتهيه ، وأحيانا يخيل إلىّ أنى لم أذق طعم الحياة ، حتى

أولادى كثيرا ما أفكر متى جئت بهم وما وجدت فى الدنيا إلا فى اللحظة التى أنا فيها !

فابتسمت وقالت :

— كم سنك ؟

— شهادة الميلاد تقول إنى فى الثانية والخمسين ، ولكن يُخيل إلىّ أحيانا أنى تجاوزت المائة ، ويُخيل إلىّ أحيانا أخرى أنى لا زلت ألعب فى الحارة !

— شكلك لا يدل على حقيقة سنك ، من يرك يحسبك أقل من ذلك بكثير .

— شكرا ، هذه أرق مجاملة سمعتها من سنين .

وجاء الجرسون ووقف ينتظر أوامرهما ، فقال شوقى للسيدة :

— ماذا تطلبين ؟

— عشاء خفيف ، حساء وقطعة دجاج ولا شىء آخر .

وقال شوقى :

— أى نوع من أنواع السمك .

وانصرف الرجل ، وقال شوقى لها :

— الظاهر أنك من رواد هذا المطعم .

— أبدا . جئت أمس صدفة . وأنت ؟

فقال وهو يرمقها فاحصا :

— وأنا جئت ليلة أمس صدفة ، أما الليلة فلم يكن مجيئى صدفة ، فكرت طويلا قبل أن آتى ، وأخيرا قررت المجىء ، كنت واثقا أنى سأجدك هنا . وأنت ؟

فقالت وهى تبتسم :

ـــ وأنا لم يكن مجيئى الليلة صدفة .

وسره صراحتها ، فقرب كرسيه منها وقال :

ـــ أحسست أمس أنك وحيدة ، وأنك تقاسين من الصمت المطبق عليك ، فاستشعرت انجذابا إليك ، وراحت قوة خفية تزين لى أن أهرع إليك لأنتشلك من الصمت المخيف الذى يرهقنا ، كانت محنتك نفس محنتى ، لذلك كنت متلهفا على أن أخرجك وأخرج نفسى منها ، بيد أننى آثرت ألا أجازف وأتريث خشية أن يفزعك إقبالى عليك .

ـــ لو كلمتنى بالأمس ما صددتك ، ولو وجدت فى نفسى الشجاعة لقمت إليك ، كانت وحدتى تمزقنى ، وكنت فى قرارة نفسى أشتهى أن يعرض علىّ إنسان صداقته ، ولما وقعت عيناى عليك رأيت فيك مأساتى ، وعندما كنت تطفئ لهب الشمعة بين أصبعيك كنت أبتسم وقلبى يدمى ، أحسست أنك تريد أن تطفئ النار المستعرة فى حياتك ، أن تكفكف دموع روحك ، أن توقف الزمن الذى يذهب بالعمر هباء ، ظلت صورتك وأنت تطفئ لهب الشمعة بين أصبعيك ماثلة فى ذهنى ، تهز وجدانى ، حتى أنى بكيت وانهمرت دموعى على خدى وأنا ممددة فى فراشى ، رأيت فيك انعكاس مشاعرى وإحساساتى .

فقال فى صوت خافت كأنما يحادث نفسه :

ـــ الملل . الوحدة . الصمت . كلمات لم يكن لها مدلول فى حياتى ، كنت أعيش حياة زاخرة بالحركة ، وما كنت أهدأ أبدا ، كنت أنتقل من بلد إلى بلد لا أكاد أستقر فى مكان ، وكنت كثيرا ما أحن إلى الوحدة والصمت والاستقرار . فلما ماتت زوجتى لم يدر بخلدى أن موتها سيترك كل ذلك الفراغ الهائل فى وجدانى ، ران علىّ حزن شل حركتى ، وجعل الشيخوخة

تدب فى روحى ، ودفعنى إلى الوحدة والصمت والملل لتنفرد بى وتلهبنى بسوط عذاب . لم أستبسلم ، حاولت أن أخرج من ذلك الكرب الذى أعانيه ، ولكننى وجدت نفسى مكبلا بقيود ثقيلة تشل إرادتى .

وكدت أيأس وأسلم أمرى لقنوطى حتى كان الأمس ، فقد تحركت فىّ مشاعر جديدة بعد أن وقعت عيناى عليك ، ووضحت لى حقيقة كانت قد غابت عنى ، إنى أعجز من أن أقاوم وحدى جفاف حياتى ، حتى أولادى لو كرسوا كل أوقاتهم لى أعجز من أن يبددوا وحشتى ، إنى فى حاجة إلى جسر يربط بينى وبين الدنيا ، أعبر عليه هوة الصمت التى تفصل بينى وبين الوجود .

ونظرت إليه فى استفسار ولو أنها أحست أحاسيسه وفهمت كل كلمة نطق بها ، ووضحت لها مراميه إلا أنها كانت تحب أن تسمع من محدثها ما يؤكد ما ذهبت إليه ، فقالت :

ـــ وما هو هذا الجسر ؟

فابتسم وقال :

ـــ نصفى الآخر ، إنى موصل ردىء للمشاعر الطيبة والانفعالات السعيدة ما دمت وحدى ، أما إذا ضم إلىّ نصفى الآخر فإنى أصبح موصلا جيدا للبشر والأمل وما فى الوجود من جمال وإشراق . أنا وذلك النصف الآخر كقطبى الكهربا . بدون اتصالهما لا يشع النور ولا يتبدد الظلام .

وجاء الخدم بالطعام ووضع أمامهما ، فراحا يتناولانه وقد ران عليهما صمت ، ورفع عينيه إليها فرآها شاردة غارقة فى التفكير فقال لها :

ـــ ما الذى فى رأسك ؟

وابتسم ، فتبسمت ضاحكة وقالت :

ـــ كنت أفكر فى الحديث الذى دار بيننا فتملكتنى الدهشة ، فما كنت أتصور أن تدور مثل هذه الأحاديث بين رجل وامرأة لم يمض على لقائهما أكثر من نصف ساعة ؟!

فقال فى هدوء :

ـــ العبرة ليست بالزمن ، بل بخواص الأجسام والأرواح المتفاعلة ، إنَّا إذا وضعنا ماء على قطعة رخام ، فالماء يبقى على حاله والرخام يبقى على حاله وإن انقضت ساعات وليالى وأيام ، أما إذا ألقينا الماء على أرض تكاد تموت من الجفاف ، فما أسرع ما يمتص الماء ويسرى فى الأرض روحا تبعث الحياة ، كنا قبل أن نجلس إلى هذه المائدة ماء عديم النفع كمياه الأنهار المتدفقة هباء إلى البحار ، وأرضا صدئة كالأراضى المتعطشة إلى الماء ، فلما التقى الماء بالأرض الظمئى كان التفاعل وكان الانفعال .

وراح الوقت يمر ، وانتهيا من طعامهما ولم يتبادلا إلا النظرات.وأحس حرارة الجو فمد أصبعيه وأطفأ الشمعة ، كانت ترقبه ، ولم تهزها هذه الحركة كما هزتها حركة الأمس ، كانت فى الليلة الماضية مرهفة الحس متوترة الأعصاب ، تمس شغاف قلبها أية إيماءة عاطفية ، وتُجرى دموعها أية إشارة تذكرها بوحدتها ، أما الليلة فلم تعد وحدها ، كان وجوده معها يرطب وجدانها ويشحذ قواها النفسية .

والتفت إليها وقال :

ـــ اشتدت الحرارة هنا .

وأومأت برأسها أن نعم ، فقال وهو ينهض :

ـــ ما رأيك فى أن نخرج إلى الهواء الطلق ؟ أروع ما فى القاهرة جمال لياليها فى الصيف .

ونهضت دون أن تنبس بكلمة ، وتأهبت للانصراف ففسح لها الطريق فسارت وهو فى أثرها حتى غادرا المطعم .

وخف إلى سيارته وفتح لها بابها ، فصعدت ثابتة القدم دون أن تتردد أو تتلفت ، وأسرع إلى مكانه وانساب وهو يستشعر سعادة غامرة .

كانت الليلة من الليالى المقمرة ، وكان الكون مغلفا فى فوف فضى هادئ يضفى على الكائنات سحرا ، وكان الهواء يهب رخاء ينعش الأفئدة ، فراح الاثنان ينعمان بالمشاعر اللذيذة المتفجرة فى أعماقها ، والإحساسات الناعمة المنسكبة فى روحيهما ، خيل إليهما أن الزمن قد عاد بهما إلى أيام شبابهما فبث فيهما خفة وحيوية .

وانطلقت السيارة بهما على كورنيش النيل ، وكان شوقى يختلس النظر إليها وهو نشوان ، وكان يحس فى تلك اللحظة أنه رجل آخر غير شوقى المهيض الجناح ، الذى كان يذرع ذلك الطريق كل يوم ، وهو عابس يكاد يأسه ينقض ظهره .

ونظر فى ساعته وقال :

— أمسى الوقت متأخرا للذهاب إلى الهرم لمشاهدة الصوت والضوء .

والتفت إليها وقال :

— ما رأيك فى أن نذهب إلى هناك غدا ؟

— ومتى يبدأ ؟

— يبدأ فى التاسعة .

— لا بأس .

— أين نتقابل ؟ سأنتظرك غدا فى الثامنة فى جروبى سليمان باشا . ما رأيك ؟

ــ سآتى فى الثامنة .

وراحا يجوسان خلال القاهرة والوقت يمر وهما لا يحسان مروره ، إلى أن قالت فجأة :

ــ أوه . تأخرت . أريد أن أعود إلى البيت .

ــ أين تسكنين ؟

ــ فى السيدة . اضطررت أن أسكن بعد موت زوجى فى بيت من بيوت الأسرة .

واتجه إلى السيدة ، كانت الحوانيت مغلقة والشوارع هادئة ، وسحر الليل ينبعث من كل مكان فيملأ النفوس شاعرية ، ويرهف الحواس ، ويجعل خفقان القلب حنونا يدفق فى الصدور رقة وحنينا .

ونظرت إليه فألفته شاردا ، ترى أيفكر فيما اضطرها بعد موت زوجها إلى أن تسكن منزلا من منازل الأسرة ؟ أظن أنها وقعت فى ضائقة مالية فأشفق عليها ؟ إنها تكره أن يشفق عليها . لا . إنها لا تظن أن ذلك خطر على قلبه ، فمن حديثه معها فطنت إلى أنه صاحى الذهن ، واسع الإدراك ، ولن يفوت مثله أنها لا يمكن أن تكون فى عسر ، وقد أوفدت ابنها فى بعثة . وذهبت فى الليل إلى ذلك المطعم الفاخر الذى تقابلا فيه .

وعلى الرغم من إقناعها نفسها بأنه أذكى من أن يقع فى مثل ذلك الظن ، إلا أنها وجدت فى نفسها رغبة فى أن تعلل له سبب سكنها فى السد البرانى ، فقالت :

ــ بعد موت زوجى لم يبق فى بيتنا إلا أنا وابنى ، كنا فى الزمالك ، وقد أبى أهلى أن أبقى فى ذلك البيت وحدى ، أصروا على أن أنتقل لأعيش مع أمى ، وكان لا بد أن أخضع لإرادتهم وإن كنت أعرف فى قرارة نفسى حقيقة

أغراضهم ، لم يكن إلحاحهم مبعثه إشفاقهم عليّ من الوحدة التى قد تقتلنى ، بل أرادوا أن يطمئنوا إلى أنى أصبحت فى حراسة أمى وتحت عينها .

وبعد سنة ماتت أمى ، وبقيت فى بيتها وحدى ، أنا وابنى ، ولم يفكر أحد من أهلى فى حملى إلى بيت آخر حرصا على صيانتى ، أتعرف لماذا ؟ لأنه ليس هناك أثقل من حمل إنسان غريب فى بيتك .

ــ ألم يكن لك أعمام أو أخوال ؟

ــ أنا غريبة حتى لو كنت فى بيت عمى أو خالى ، غريبة ما دمت فى بيت غير بيتى .

وسرح خياله وقال :

ــ قد نصبح غرباء حتى فى بيوتنا !

ولاح لعيونهما ميدان السيدة ، الأضواء تنعكس على المئذنة وتشع من المقاهى ، والناس يغدون ويروحون ، والأتوبيسات صاعدة هابطة ، وإن كانت ساعة الميدان تؤكد أن الليل قد انتصف !

واقتربت السيارة من المسجد فقالت له :

ــ انتظر هنا أرجوك .

ــ سأوصلك إلى البيت ، أو تخشين أن أعرف العنوان ؟

ــ أخشى ما يقوله الجيران لما يروننى عائدة فى هذه الساعة فى سيارة .

ووقف ، ومدت يدها وصافحته ، ثم هبطت وهى تقول :

ــ غدا فى الثامنة مساء فى جروبى سليمان باشا .

وانشرح صدره ، إنها تؤكد موعدهما ، ولو لم تفعل لفعل هو ، وسره أنها أمست تهتم بلقائهما مثل اهتمامه ، ومن يدرى لعل لهفتها على مقابلته أشد من لهفته !

ــ إلى الغد .. مع السلامة .

وظل يرقبها حتى اختفت عن عينيه ، ثم انطلق بسيارته إلى طريق الهرم وهو نشوان ، يصفر لحنا راقصا .

ودخل إلى الفيللا ، وراح يسترق الخطا وهو يتلفت ، لم يكن يريد أن يراه أحد وهو عائد فى هذه الساعة ، والبشر يترقرق فى وجهه ، والسعادة تفيض من عينيه .

ولم يجد فى الردهة الواسعة أحدا ، فراح يصعد فى الدرج على أطراف أصابعه ، وسمع صوت نادية آتيا من خلفه يقول :

ــ مساء الخير يا بابا .

فالتفت مفزوعا ، وراح يحاول أن يخفى ارتباكه فقال :

ــ نادية ! مساء الخير . ماذا تفعلين هنا ؟

ــ كنت أشاهد التليفزيون .

وأحس أن عليه أن يبرر سبب عودته الليلة متأخرا فقال :

ــ دعانى الليلة صديق عزيز للعشاء ، وقد أخذنا الحديث .

ــ ولماذا تسير على أطراف أصابعك ؟

ــ لكيلا أزعج أحدا .

ــ لن تزعج أحدا ، فالدكتور يغط فى نومه ، وأحمد يذاكر فى غرفتى ، وأنا هنا .

وبلغا غرفته ، فالتفت إليها وقال :

ــ مساء الخير يا نادية .

وقبل أن يدخل قالت له :

ــ بابا . سيتعشى معنا غدا عماد ومجدى ، وستكون ضيف الشرف !

فقال فى ارتباك :

— جميل ! جميل !.

ثم دلف إلى غرفته وأغلق بابها خلفه ، وخلع ثيابه وقفز إلى سريره فى نشاط ، وأطلق لخياله العنان يفكر فى كل ما قال ، وإذا به يتذكر أنه لم يذكر لها اسمه ، ولم يعرف اسمها ، ولكن ماذا يهمه من اسمها ، وما قيمة الاسم ما دام قد عرفها هى وتفتحت لها نفسه . ونام لأول مرة بعد موت زوجه منبسط الأسارير ، فى وجهه رضا وعلى شفتيه بسمة حالمة .

٨

ذهبت نادية إلى غرفة الطعام لتشرف على الخادم الذى كان يعد السفرة لعشاء الليلة ، وراحت تتصور المدعوين فى أماكنهم ، فسيجلس أبوها ضيف الشرف على رأس المائدة ، وستجلس هى عن يمينه وعماد عن يساره ، وإلى جوار عماد سيجلس الدكتور ، وإلى جوارها سيجلس مجدى ثم أحمد ، وخطر فى رأسها خاطر ، لماذا لا يجلس عماد إلى جوارها ويجلس مجدى عن يسار أبيها ؟ وأقنعت نفسها أن عماد سواء أكان أمامها أم عن يمينها أم عن يسارها فهو دواما قريب من قلبها .

وسرها أنها دبرت هذا العشاء ، فسيشرح ذلك صدر أبيها ، فهى تعلم أنه يحب أن يجتمع بالناس ، وأن يرحب بهم فى بيته ، وأن يفتح لهم قلبه ، وأن يداعبهم وهو يناقشهم دعابات تسره وتضفى السرور على كل من حوله ، إنه يتألق ما دام قطب الرحى ومصدر الإشعاع .

ووقعت عينها على الزهرية البللورية التى كانت أمها تعتز بها ، فمشت إليها

وراحت تمرر يدها عليها فى حنان ، وهامس يهمس فى أغوارها يقول :

ـــ آسفة يا أماه إن كنت قد أهملته ، ولكنى أعدك يا أماه أنى سأرعاه ولن أنساه أبدا .

وغمرها شعور بالذنب ، إنها لم تحس شيئا ما تغير فى أبيها بعد موت أمها إلا بالأمس وهو يمر بها فى الجراج منطلقا بالسيارة وحيدا ، بدا فى عينيها غريبا ، خُيل إليها أنه رجل آخر ، وهنت الصلة التى كانت بينه وبينها ، لم تعد إلا قبلة تقليدية تطبع على الخد ، أو تحية لا حرارة فيها ، أو بسمة ترتسم على الشفاه دون أن يتحرك لها القلب . وقررت بعد أن غابت السيارة عنها وهى مشغولة بتقطيع أجزاء القاطرة التى تصنعها أن تهبه بعض وقتها ، وأن تدعو الصحاب إلى اجتماعات فى البيت وفى العزبة ، وكانت دعوة الليلة ثمرة هذا التفكير !

دعت أصدقاءها و لم يخطر لها على بال أن تدعو صديقا واحدا من أصدقائه الذين يرتاح إلى وجودهم معه ، وهى تعرفهم وتعرف مقدار اعتزازه بهم .

وألقت نظرة أخيرة على السفرة ، ثم سارت إلى الردهة الواسعة التى تقود إلى السلم الداخلى ، وراحت تفكر أيمكنها حقا أن تهبه بعض وقتها وهى مشغولة عنه بعماد وقاطرتها وآمالها ومستقبلها ؟ وطافت بها موجة من القلق وهى تصعد فى الدرج فى طريقها إلى غرفة أبيها ، كانت تخشى أن تخفق فى توفير الوقت الذى تمنحه إياه وهى غارقة فى شئونها التى تستغرق كل أوقاتها ، ولكنها أقنعت نفسها أن كل حاجاته التى تدخل البهجة على قلبه لا تزيد على جمع بعض الصحاب فى غرفة أو حول مائدة ، ولن يعجزها أن توفر بعض وقتها للغداء أو العشاء !

ووصلت إلى غرفة أبيها وطرقت الباب فى رفق ، ثم أدارت المقبض



ودخلت ، وراحت تدير عينيها فى المكان وهى مدهوشة ، لم يكن أبوها فى الغرفة ، وكانت بيجامته فى الشماعة . وزاد فى عجبها أنه خرج دون أن تراه ، إنه فى هذه الأيام يسير على أطراف أصابعه ، فما الداعى لذلك ؟! كان يدخل ويخرج حقا دون جلبة أو ضوضاء ، ولكنه كان يمر كالطيف دون أن يراه أحد . وأقنعت نفسها أنه ما خرج إلا ليشترى بعض الفاكهة والحلوى ، فهو يحب أن تكون موائده عامرة بما لذ وطاب وإن كان لا يتناول من الأصناف التى يكدسها إلا صنفا واحدا .

ووقعت عيناها على كتاب موضوع على وسادة سريره ، فمدت يدها وتناولت الكتاب وقرأت عنوانه ، فتبسمت ضاحكة والتمعت عيناها ببريق استخفاف ، ثم أعادت الكتاب إلى مكانه وخرجت .

ومن أعلى السلم رأت عماد داخلا إلى الردهة الواسعة التى تقود إلى غرفة الاستقبال وغرفة الطعام ، فهتفت قائلة :

— عماد .

فالتفت ورفع بصره إليها وابتسم ابتسامة عذبة ، وإذا بها تهبط فى السلم عدوا وتذهب إليه متهللة الأسارير وتضع يدها فى يده ، وتسير إلى جواره وهى تقول له :

— كيف حالك ؟

فالتفت إليها وقد تمهل فى سيره وقال :

— الحق أنى لست على ما يرام .

فقالت فى دهش :

— لماذا ؟ مم تشكو ؟

— منك .

— منى أنا ؟

— نعم . فكرت كثيرا فى الأسباب التى تسوقينها لتبرير عدم إعلان خطبتنا الآن فلم أقتنع بسبب واحد منها ، قد يكون هناك سبب آخر .

— وما هو ؟

— لعلك لم تتبينى بعد حقيقة مشاعرك نحوى ، لعلك ..

فوضعت يدها على فمه لتسكته وقالت :

— عماد . أنت تعرف كم أحبك ! أنت أملى وكل مناى .

— نادية ، فلنعلن خطبتنا الليلة .

فنظرت إليه بعينين تفيضان وجدا وقالت :

— غدا نعلنها .

— وما الفرق بين الليلة والغد ؟

— سأشاور أبى الليلة فى الأمر ، أنا واثقة من أن هذا النبأ يفرحه ، ويملؤه غبطة .

فضمها إليه وقال :

— نادية ، أنا سعيد .. أسعد مخلوق فى الوجود .

ودخلا غرفة الاستقبال ، وما كادا يستقران فيها حتى أقبل مجدى وقال :

— مساء الجمال .

فقال عماد فى حركة تمثيلية :

— مساء الهوى والجوى والحب والوجد والهيام والغرام .

وابتسمت نادية وقالت :

— ركبه شيطان الشعر .

فقال عماد وهو يضحك :

ـــ ما لى والشعر ! شيطان الشعر لا ينزل عن ظهر مجدى أبدا .

فابتسم مجدى وظل يرمق عماد بنظرة فاحصة ، ثم قال :

ـــ إنه سكران بخمر الحب .

وقالت نادية وهى تشير لمجدى أن يجلس :

ـــ وما أخبار أساطيرك ؟

فقال مجدى فى حماس :

ـــ طيبة ، أجمع ما يصلح منها للصياغة الفنية ، وسأعكف على كتابتها فى الإجازة ، سأسافر إلى الإسكندرية فى الشهر القادم . وأنتم متى تسافرون ؟

ـــ عقب انتهاء أحمد من الامتحان .

فقال مجدى :

ـــ وأين أحمد ؟

وقال عماد فى حسرة :

ـــ ألغيت إجازاتنا هذه السنة بسبب إصابات القطن .

و لم تجب عن سؤال مجدى وقالت لعماد :

ـــ خسارة .

وقال لها مجدى دون أن يحس مرارة لإغفالها سؤاله :

ـــ إصابة القطن أم إلغاء الإجازة ؟

فقال عماد :

ـــ كلاهما خسارة !

وأقبل أحمد يرتدى بيجاما وفوقها روب دى شامبر من حرير لونه أزرق به دوائر بيضاء صغيرة ، وقد أطلق لحيته وبان عليه الجهد ، وتضعضعت عيناه ، ودخل يتلفت وقال :

ــ أين بابا ؟

فقال له عماد :

ــ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

ومد يده مصافحا فضربها أحمد بأطراف أصابعه ، وقام إليه عماد يعانقه فقال له أحمد فى توسل :

ــ أرجوك ! لا تهزنى حتى لا تطير المواد التى ذاكرتها .

فقال له مجدى :

ــ خير ما تفعله أن تنام وأنت واقف حتى لا تنسكب الدروس من رأسك .

وابتسموا ، وعاود أحمد التلفت وقال :

ــ أين بابا ؟

فقالت نادية :

ــ خرج دون أن أراه ، وأظن أنه لن يتأخر طويلا .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ــ أتعرفون ماذا يقرأ فى هذه الأيام ؟ يقرأ كتابا بعنوان « الحياة تبدأ فى الستين » .

فقال عماد وهو يكور نفسه محاولا أن يتلاشى :

ــ على ذلك نحن لم نولد بعد .

والتفت إلى نادية وقال :

ــ بينك وبين ميلادك أربعون سنة على الأقل .

وراح عماد يعبث بشفته السفلى وهو يفكر ثم قال :

ــ ترى من أى أبوين سيكون مولدى ؟!

وقالت نادية :

ـــ هذا تخريف ، وأوهام أناس يتشبثون بالحياة وأرجلهم على حافة القبور .

وقال أحمد فى ثقة كأنه يقول شيئا رائعا :

ـــ الحياة تبدأ بالولادة وتنتهى بالموت .

وخرج مجدى عن صمته وقال :

ـــ الحياة تبدأ كلما ولد أمل جديد ، وتنتهى إذا ماتت الآمال ، وقد يولد فى الستين أو فى السبعين فيكون ذلك الأمل بداية الحياة ، وقد تموت كل الآمال فى الخامسة والعشرين فيكون ذلك هو الموت وإن ظل فى العمر بقية .

وصمت ، أحس فى صوته رنة أسى ، وخشى أن يفطن أحد من السامعين أنه ينعى نفسه وحبه وآماله ، وراح يتلفت ، وأراد أن يخرج من ذلك الاضطراب الذى نزل به فقال :

ـــ قرأت اليوم أن سيدة فى الخامسة والسبعين تزوجت رجلا فى الثمانين ، وبعد عشرة دامت خمس سنين طلقها ، فعلقت السيدة على ذلك قائلة : « تعلمت ألا أثق فى الرجال بعد الآن » .

وضحكوا ، وقال مجدى :

ـــ هذه السيدة بدأت حياتها فى الخامسة والسبعين يوم تزوجت ، و لم تنته حياتها بعد لأنها اكتسبت تجربة ، ولا تزال تأمل أن تستفيد منها فى مستقبل حياتها .

وجاء الخادم وقدم لهم جيلاتى ، وراح عماد يقضمه بأسنانه فأحس كأنما يقضم ثلجات ، فتأفف وقال وهو يرنو إلى نادية :

ـــ أتريدون أن تكسروا أسناننا ؟

فقالت وهى تضحك :

ـــ أنسيت أن أخى طبيب أسنان .

فقال عماد :

ـــ لن يستفيد شيئا من تكسير أسنانى لأنى سأعالج مجانا !

ونظرت نادية فى ساعتها وقالت :

ـــ ما الذى أخر الدكتور ؟ تُرى ماذا يفعل الآن ؟

فقال أحمد فى إشفاق :

ـــ يخلع ضرس بائس من عباد الله !

* * *

كان الدكتور فى عيادته يتأهب لمغادرتها لينطلق إلى الدار يشارك أهله وأصدقاءه فى عشاء الليلة ، وكان فى شوق لأبيه ، فقد مضت مدة طويلة لم يتبادلا فيها إلا التحيات العابرة وإن كانا يعيشان فى بيت واحد !

ودخلت الممرضة وقالت :

ـــ هناك آنسة تريد مقابلتك فى أمر خاص .

فقال فى رنة فرح لم تغب عن الممرضة :

ـــ آنسة ؟ أين هى ؟.

هزه الفرح فقد جاءت أخيرا بعد أن كاد ييأس من مجيئها فى هذا اليوم ، وزاد فى فرحه أن الممرضة أكدت أنها آنسة ففكرة أن تكون متزوجة تضايقه وتجعله ينقبض لحظات . ولم يستطع أن ينتظر حتى تذهب الممرضة وتعود بها ، فهرع إليها ، وما كاد يراها حتى تهللت أساريره وانشرح صدره ورفرف قلبه وغردت فى روحه بلابل نشوته ، وقال فى صوت هدجه انفعاله :

ـــ أهلا . تفضلى .

وأشار بيده إلى غرفة الكشف ، فتقدمت وهى تقول :

ـــ مساء الخير يا دكتور .

ودخلت الغرفة ، وأدارت عينيها دورة سريعة فبهرتها الآلات وحسن تنسيق المكان ، وأحست بغريزتها أن أثمن ما فى العيادة الدكتور نفسه .

فالتفتت إليه وقد أرهفت حواسها وتفتحت كل مشاعرها وسمعته وهو يقول :

ـــ شكرا على مجيئك .

فقالت وهى تبتسم وتنظر إلى نفسها :

ـــ جئت لأطمئنك أنى سليمة .

ونظر إليها نظرة فاحصة فالتمعت عيناه سرورا ، والتقت عيناه بعينيها فاضطرب ، وأشار إلى كرسى الفحص وقال بطريقة لا شعورية :

ـــ تفضلى .

فتبسمت ضاحكة وقالت :

ـــ وأسنانى سليمة .

ورن جرس التليفون فذهب إليه ورفعه ، وسمع صوت نادية تقول :

ـــ آلو .. آلو ..

فأشار بيده للآنسة أن تعالى ، فاتجهت إليه ، فدفع إليها بالتليفون وهو يهمس قائلا :

ـــ قولى لها إنى خرجت .

وتناولت التليفون منه وقالت :

ـــ آلو .

وكان يصيخ السمع حتى أنه لم يكن يفصل بين خده وخدها إلا سماعة

التليفون ، قالت نادية :

ـــ الدكتور موجود ؟

ـــ خرج .

ـــ متى ؟

ـــ من خمس دقائق .

ـــ أنت من ؟ فاطمة ؟

فأشار إليها الدكتور برأسه أن نعم ، ولكنها قالت وهى ترمقه بطرف عينها :

ـــ لا أنا زبونة ، جئت وعلمت من فاطمة أنه خرج من خمس دقائق . أتريدين أن تكلمى فاطمة ؟

ـــ لا شكرا .

وسمع صوت وضع السماعة فتنفس فى ارتياح ، ووضعت السماعة وقالت له :

ـــ لماذا تنكر نفسك ؟

وكأنما أصبح من حقها عليه أن تعرف تصرفاته ، قال لها وهو يسير مبتعدا عن التليفون :

ـــ إنها أختى نادية تنتظرنى للعشاء معها ومع بعض أصدقائنا .

والتفت إليها وقال :

ـــ على فكرة ، لم أعرف بعد ما اسمك .

ـــ إيمان .

وتحركت لتغادر الغرفة وهى تقول :

ـــ آسفة إن كنت أخرتك .

— أبدا ، لم يكن فى نيتى أن أتعشى معهم ، كنت أحس إحساسا غامضا أنك ستأتين الليلة .

فقالت كأنما تحاول أن تنفى تهمة :

— ما جئت إلا لتطمئن إلى أنى سليمة ، ولكيلا يساورك القلق علىّ .

فقال وهو يرمقها فى إعجاب :

— هذه الزيارة الخاطفة لا تكفى للاطمئنان ، لا بد من أسئلة وأجوبة واستفسارات قبل أن يعرف الاطمئنان طريقه إلى قلبى . تعالى لنقضى على القلق الذى بدأ يساورنى .

وسارت وسار إلى جوارها ، ونظرت إليه نظرة سريعة ففطنت إلى شروده ، فقالت له :

— فيم تفكر ؟

فقال وهو يبتسم :

— أحاول أن أتذكر أول من وقعت عليه عيناى هذا الصباح لأطلب منه أن يوقظنى كل يوم من نومى ، فقد كان يومى سعيدا موفقا .

وغادر العيادة وانطلقا إلى طريق الكورنيش ، وسارا يتحدثان ويتناجيان والوقت يمر وهما مشغولان عن الزمن وعن كل ما حولهما ، فقد تركزت كل خلجات نفسيهما فى مشاعرهما الغنية بالعواطف الرقيقة الحالمة النابضة بأشهى الإحساسات .

وأفاقت لحظة من الجو المسحور الذى كانت تحلق فيه ، ونظرت نظرة خاطفة إلى ساعة دقيقة رقيقة تزين معصمها وقالت فى خوف :

— أوه تأخرت ، كيف خطفنا الوقت هكذا دون أن نحس ؟ عن إذنك .

— غدا أريد أن أراك لأطمئن عليك .

فقالت وهى تبتسم :

ـــ ألا تكفى زيارة اليوم ؟

ـــ لى رجاء : أن تتعلمى القاعدة الذهبية التى تقول « أطيعى أوامر الطبيب » .

فقالت وهى ترنو إليه فى دلال :

ـــ أهذا أمر ؟

ـــ قلت : لى رجاء .

ومرت بهما سيارة تاكسى فأشار لها فوقفت على بعد خطوات منه ، فالتفت إلى إيمان وقال :

ـــ تفضلى أوصلك .

ـــ شكرا ، أفضل أن أسير على قدمى .

ـــ تفضلى .

ـــ أمر ؟

ـــ أرجوك .

فذهبت إلى السيارة وهى منشرحة ، وركبت وصعد خلفها ، وانطلقت بهما حتى إذا بلغت نفس المكان الذى صدمها فيه الدكتور بالسيارة قالت للسائق :

ـــ هنا من فضلك .

فقال الدكتور فى انفعال :

ـــ هنا دبر المُدبِّر لقاءنا ، وما أظن ذلك كان عبثا .

وتحركت لتهبط وهى تقول :

ـــ مساء الخير .

فقال لها وهو يتبعها بنظرة :

— إلى الغد ، فى التاسعة مساء .

وانسابت السيارة فى طريق الهرم ، وقد اضطجع الدكتور وشرد وأطلق لخياله العنان . كان كل تفكيره فى إيمان ، وكانت كل أحلامه المجنحة تدور حولها ، وترفعه يسبح فى عوالم رقيقة تخفق فيها روح شفافة هفهافة صيغت من نور المحبة والصفاء .

ووقفت السيارة أمام الفيللا ، فانساب إلى الداخل وهو مفعم بالنشوة ، وبلغ غرفة السفرة ، فألفى نادية وأحمد وعماد ومجدى قد كادوا أن ينتهوا من عشائهم ، انتظروا طويلا حتى يئسوا من عودة الأب والدكتور فقاموا إلى الطعام وهم فى ضيق .

وقف ينظر إليهم منبسط الأسارير وعلى شفتيه ابتسامة ، ونظروا إليه جميعا فى تساؤل ، وهبت نادية واقفة فى غضب وقالت فى انفعال :

— أهذه مواعيد ؟

فقال الدكتور فى هدوء :

— لم أطلب منكم أن تنتظرونى .

فزاد غضب نادية وصاحت :

— قلت لكم إننا سنتعشى الليلة معا ، وقد قبلت وقلت إنك ستكون هنا فى التاسعة ، ولم يعتذر أبى وخرج دون أن أراه ، ولم يفكر لما وجد أنه لا يستطيع أن يأتى فى الميعاد أن يعتذر فى التليفون ، لماذا وجدت التليفونات فى البيوت ؟

وراحت تغدو وتروح وتطوح ذراعها فى ضيق وهى تتكلم :

— ما فكرت فى دعوة الليلة إلا لنجتمع به ، لنشعره أننا معه ، نملأ دنياه

حياة .. ترى أين هو الآن ؟

وطوحت ذراعها فارتطمت بالزهرية البللورية التى كانت أمها تعتز بها ، فسقطت على الأرض وتهشمت ، وعلا صوت تحطيمها ، فنظر الجميع بعيون زائغة إلى حطامها ؛ وساد المكان سكون قلق ، والتفت أحمد إلى نادية فى خوف ، وراح الدكتور يتلفت وهو مفزوع وينظر إلى الحطام فى هلع ، طارت نشوته وحل مكانها رهبة ؛ فقد وقر فى نفسه أن تحطيم الزهرية نذير شؤم وسوء .

٩

كان شوقى فى جروبى قبل الساعة الثامنة بكثير ، وتعمد أن يجلس قريبا من الباب ليوفر عليها الغوص بين الموائد والتفت يمينا ويسارا بحثا عنه ، وكان واثقا أنها ستأتى فى الموعد المضروب ، فقد قبلت صداقته فى لهفة ، وفتحت له قلبها راضية ، وقصت عليه قصة حياتها وهى تبتهج فى أعماقها ، لأنها وجدت من يصغى إليها وإن كانت قصتها حزينة مؤلمة .

وقرر أن ينطلق معها إلى الهرم عقب وصولها ، فقد كان بطبعه يكره الجلوس فى الأماكن المغلقة التى يموج الناس فيها موجا ، وتدوى الأصوات فيها دويا ، وتنعقد سحب الدخان فى سماواتها .

وراح يتلفت فى ملل ، وهو يعجب لهؤلاء الرجال والنساء الذين يجلسون إلى الموائد ساعات ولا شىء غير احتساء القهوة أو شرب الشاى ، وتدخين السجاير أو السيجار ، وقطع الوقت بلغو القول وفارغ الكلام ، فقد بدأ يشعر بعد مرور دقائق أنه شىء تافه ، ولولا ارتباطه بذلك الموعد لقام من فوره

وعاد إلى بيته يقرأ كتابا ، فوحدته القاسية أخف على نفسه من ذلك الجو الخانق الذى يضيق به صدره .

وأشرفت الساعة على الثامنة فراح يرصد الباب فى انتباه ، وهو يرجو إقبالها لينطلقا معا إلى عالم نابض بمشاعر جميلة عذبة . حسب أنها شاخت ومر مذاقها قبل أن يلقاها وتضىء فيه أنوار المحبة وتحيى موات الآمال .

وراح الوقت يمر وهو يتحامل وينظر فى ساعته بين لحظة وأخرى ، وأخذ يتسلى بمراقبة عقرب الثوانى ، وما أشار عقرب الدقائق إلى النصف بعد الثامنة حتى كادت روحه تزهق ، وفكر فى الانصراف ، وانتابه يأس ، وانقبض قلبه ، ولولا بصيص من نور الأمل كان يجاهد ليقاوم الظلام الذى كاد يطبق على روحه ، لقام ليعود إلى أبنائه الذين دبروا عشاء الليلة فى لحظة من لحظات الصحو ليبددوا لساعات سحب وحدته وسأمه ، وضايقه إحساسه بأنه لو عاد فسيدخل البيت مطأطئ النفس فى روحه مذاق الهزيمة والانكسار .

كان مبتهجا لما كانت معه ، وقد أحس عظم الخسارة التى سيمنى بها لو أنها آثرت الفرار منه ، فقد غرست فى صحراء وجدانه واحة وارفة الظلال ، وما كاد يتفيأها حتى هبت عواصف الحرمان فطمرتها بالرمال ، وما عادت فيه قوة احتمال ليستأنف الضرب فى البيداء لعله يبلغ واحة أخرى .

آه لو جاءت فسيشدها إليه ولن يدعها تتسرب كالماء من بين أصابعه ، فما عاد يحتمل مرارة الوحدة التى تغمره أينما كان . تلك المرارة التى تلسع روحه وهو فى عمله ، وهو فى بيته ، وهو فى هذا المكان الزاخر بالناس .

ونظر فى ساعته فاكتسى وجهه بالأسى ، فما عاد هناك أمل ف مجيئها ، كانت الساعة تقترب من التاسعة وقد بدأ الناس فى الانصراف ، فنهض فى تراخ وسار فى خطوات ثقيلة ، وإذا به يلمحها خلف زجاج الباب ، لم تكن

صورتها واضحة لعينيه ، بيد أن روحه عرفتها، فخفق قلبه فى غبطة ، وابتهجت نفسه ، وانشرح صدره ، وخفت حركته فهرع إليها نشوان .

وجذب الباب نحوه فإذا هو وهى وجها لوجه ، فأشرق وجهه بالابتسام وقد تبخرت مشاعر الضيق والأسى والملل والحرمان ، وتبسمت وإن كانت الحيرة والخوف والقلق تطل من عينيها . وأحس ذبولها ، وشعر أن شيئا ما يقلقها ، فلم يتنابه خوف ، فمجيئها على الرغم من شحوبها ورهبتها وقلقها أرضى غروره وأنزل على قلبه السكينة ، وفطن إلى أنها خاضت مع نفسها معركة رهيبة وخرجت منها تجر فلولها لتنحاز إليه ، لعله يبث فيها روحا جديدة أو يجهز عليها .

وقال فى رقة :

ـــ شكرا لمجيئك .

فقالت فى اضطراب :

ـــ كنت قررت عدم المجىء ، ولكنى لم أستطع .

ـــ أعلم ، لذلك شكرتك .

وسارا خارجين من المحل وهى تقول :

ـــ فكرت طويلا فيما كان بيننا بالأمس فأنكرت كل تصرفاتى ، وعجبت كيف أبوح لك بكل أسرارى دون سابق معرفة !

فقال فى هدوء :

ـــ إنى لا أبوح بأسرارى أبدا لأصدقائى ، فإذا ما قابلت غريبا كشفت له عن مكنون صدرى ، وحدثته عن آلامى ونفست عن مشاعرى لأننا بطبعنا نستريح إذا ما جرت ألسنتنا بما يعتمل بين جنباتنا ، وما تنفعل به ضمائرنا .

وكانا قد وصلا إلى السيارة ، فأسرع يفتح لها الباب ، فدخلت وهى قلقة

تتلفت فى عدم ارتياح ، وخف إلى الناحية الأخرى وركب إلى جوارها ، وراح يستأنف حديثه قال :

ـــ لو أن تعارفنا سار فى طريقه المألوف ، كأن قدمنى صديق إليك أو قدمك صديق إلىّ ، أو لو كنا تقابلنا فى بيت من بيوت الأصدقاء ، لتحدثنا فى حرص وتكلف ، ولما كشفنا فى يسر عن حقيقة ما نحسه فى أعماقنا ، إنى راض كل الرضا عن مقابلتنا البسيطة التى خلت من التكلف والتعقيدات .

فقالت فى أسى :

ـــ ولكننى لم أرض طوال ليلة الأمس عن تصرفى ، كيف أركب مع رجل غريب سيارته دون أن أعرف حتى اسمه .

فقال وهو يبتسم :

ـــ اسمى شوقى ، هل زادت معرفتك بى لما عرفت اسمى ؟

فقالت وهى تفرك يديها فى قلق :

ـــ لم أعد أدرى شيئا ، لا أعرف إلى أين نحن ذاهبون .

وفهم مما ترمى إليه ، ولكنه أراد أن يوجه تفكيرها وجهة أخرى ليخفف من انفعالها ووطأة مشاعرها ، فقال :

ـــ إلى فندق شبرد لنتعشى هناك ، ونؤجل الذهاب إلى الهرم لليلة أخرى فقد بدأ عرض الضوء والصوت .

وقالت وهى تنظر إليه نظرة فاحصة :

ـــ لم تسألنى عن اسمى ؟

فقال فى انفعال :

ـــ يسعدنى أنى عرفتك ، وأنك إلى جوارى ، وأنى لم أعد وحدى ، أما الاسم فإنى أستطيع أن أطلق عليك اسما ، أى اسم .

فقالت وهى تبتسم :

ـــ ولماذا تجهد نفسك وقد تكفل بذلك أبواى .. اسمى عفاف .

وانطلقا وراح كل منهما يفكر وهو صامت ، فإذا بعفاف يعود إليها انقباضها وشرودها فقد احتلت رأسها أفكار الليلة الماضية ، وأفاق من التفكير لما رأى إشارة المررو تضاء باللون الأحمر ، وتركزت كل حواسه فى وقف اندفاع السيارة دفعة واحدة ، فاهتز واهتزت عفاف فى عنف ، فالتفت إليها وقال :

ـــ آسف .

ولاحظ على ضوء مصابيح الطريق الانفعالات المرتسمة على وجهها فقال لها :

ـــ ما الذى يقلقك ؟

فقالت فى صوت خافت كأنما تحدث نفسها :

ـــ أخشى أن تكون هذه الليالي بداية متاعبنا ، كنت راضية لا أعرف الخوف إلى أن التقينا .

ـــ وبعد ؟

ـــ وبعد أن أفقت من المخدر الذى سرى فى حواسى منذ أن سمحت لك بالجلوس معى إلى المائدة حتى غادرت سيارتك فى ميدان السيدة ، استيقظ خوفى واستبد بى قلقى و لم أذق طعم الراحة ، وراح هامس من نفسى يقنعنى أن أقضى على المشاعر الجديدة التى تدفقت فى وجدانى بعد أن التقينا ، قبل أن تنمو وتترعرع ولا يصبح لى عليها سلطان ، وكدت أستجيب لذلك الهاتف ، وتمنيت من كل قلبى لو أستطيع .

ـــ لماذا ؟

— لأسلك السبيل الذى رسمته لمستقبلى ، والذى سرت فيه خمس سنوات هادئة رتيبة ، كنت قد عزمت بعد موت زوجى أن أكرس كل حياتى لابنى ، أن أربط كل خيوط قلبى به وحده ، وإذا ما تزوج ملأت وقتى برعاية أبنائه ، ومنحتهم كل حبى .

— كم سنة سيمكث ابنك فى البعثة ؟

فقالت فى أسى :

— خمس سنوات . .

— وماذا ستفعلين فى هذه السنوات الخمس ؟

— سأنتظره ، سأعيش على أمل عودته .

— إنى أقدر التضحية إن كان هناك ما يبررها ، أما تضحيتك فلا معنى لها ، سيعود فى الوقت الذى يصبح فيه فى حاجة إلى تكوين أسرة يكون عميدها ، ولن يكون فى حاجة إلى رعايتك ، بل قد يضيق بها ، هذه سنة الحياة ولن نستطيع تعطيلها أو تبديلها .

— يكفينى أن أرقب سعادته .

— لو اخترت لنفسك هذه الحياة فلن تذوقى طعم السعادة يومـا ، ستعيشين خمس سنوات طويلة كلها وحدة وسأم ، وقلق ، وبعد عودته ستشاركك فيه امرأة أخرى، ولن يكون ذلك هينا على قلبك بعد أن اعتاد على ألا ينازعه فى حبه منازع ، وستتحالف الغيرة مع وحدتك ، وما أقساها حياة تلك التى يقف فيها الإنسان وحده فى وجه وحدته ومشاعره وأحاسيسه .

وبلغا فندق شبرد فهبطا من السيارة ، وسارا إلى مدخل الفندق ، وفتح لها شوقى الباب الزجاجى فتقدمت وهى مشغولة بأفكارها ، لم يضف حديثه جديدا إلى ما قاسته فى ليلتها الماضية ، فقد رأت فيها فى وضوح مستقبل حياتها لو استمرت

ميتة ، وإن كانت أنفاسها تتردد بين جنباتها ، فحياتها أقسى من الموت ، فالموتى لا يحسون ، أما هي فتتلوى من الوحدة ، وتتلظى بنار السأم ، وتلهبها بسياطها أفكار سود ، ولولا الدموع التي تجرى على خديها تبلل وسادتها لانفجرت من الغيظ أو لأزهق روحها الضيق .

واتجها إلى المصعد ودلفا إليه ، وراح يعرج إلى آخر طبقة وهما صامتان وإن كان كل منهما غارقا فى أفكاره ، وخرجا من المصعد وعرجا إلى اليسار وإذا بردهة واسعة صفت فيها الموائد ، فاتجها إلى مائدة بعيدة تطل على النيل فجلسا إليها وتشاغلا بالنظر إلى المشهد الفريد ، وكل منهما يجرى وراء ما يزخر به ذهنه .

كان مبتهجا بحديثها ، إنها بسيطة لا تعرف كيف تلف وتدور ، تكاد تعترف له أنها فكرت فيما سيكون بينهما ، وقارنت بين أن تعيش معه وبين أن تكرس باقى عمرها لابنها فاختارت العيش معه ، وما كان ذلك الاختيار أمرا سهلا ، كانت تفاضل بين حياة ألفتها وحياة مجهولة تشتهيها وإن كانت تجهل نصيبها فيها ، إن هى إلا كلمة واحدة منه ثم يتحقق كل ما دبره ، فالتفت إليها وقال :

ـــ عفاف . أتقبلينني زوجا ؟

كانت فى أعماقها ترقب هذا القول وتتلهف على سماعه ، فقد هجس فى نفسها هاجس يحذرها من أن يكون هدفه عبثه بها ثم الاختفاء فجأة كما ظهر فى حياتها فجأة ، مخلفا وراءه الدنس ووخز الضمير ، وكان ذلك الهاتف يقلقها ويزيد فى حيرتها وقد عجزت عن أن تكتم صوته ، فلما عرض عليها الزواج اضطربت وخفق قلبها وغامت عيناها بالدموع ، وقالت فى صوت متهدج :

ـــ ما كنت أحب أن أكون زوجة أب .

فقال لها مطمئنا :

ـــ هذا شيء خارج عن إرادتنا ، لا يد لنا فيه .

فقالت فى خوف وإشفاق على نفسها :

ـــ سيكرهنى أولادك .

فقال لها وهو يبتسم فى مرارة :

ـــ لم يعد أولادى أطفالا ، سيقدرون ظروفنا ، وسيرتاحون إلى قرارنا ، فلن يرضوا أبدا أن نعيش ما بقى من حياتنا ضائعين ، ستكون نادية أختا لك ، وسيكون محمد وأحمد أخوين كريمين لنا . كنت طوال حياتى أعاملهما على أنهما أخوَان لى ، نتشاور ونتناقش فى حرية ثم يأخذ كل منا ما يشاء من القرارات ، لم أقهرهما على رأى أبدا ، و لم أرغمهما على أن يسلكا طريقا بعينه، و لم أضغط عليهما لينفذا شيئا ما قسرا ، كان لهما مطلق الحرية فى أن يختارا طريق مستقبلهما ، وسيكون لهما نفس الحرية فى اختيار شريكتى حياتهما ، أو نوع الحياة التى يعيشانها ، ولن يكون لى إلا أن أزجى النصيحة إذا طلب أحدهما رأيى .

ـــ ليتهم يعاملونك بمثل ما عاملتهم به .

وفطن إلى أنه كان يتحدث عن محمد وأحمد و لم يشرك معهما نادية ، كان فى قرارة نفسه مقتنعا أن محمدا وأحمد لن يثورا إذا ما بلغهما نبأ اعتزامه الزواج ، أما نادية فهو فى أعماق ضميره غير مقتنع بأنها ستقبل هذا القرار فى يسر ، فهى أنثى مهما تفوقت وأظهرت تفتحا وسعة أفق فلا يمكن أن تتخلى عن طبيعتها العاطفية ، تُرى ماذا سيكون وقع هذا النبأ فى نفسها ؟ هل ستستطيع أن تتجلد وتسمو على عواطفها أم ستنهار وتنشج بالبكاء وتعيد ما فعلته يوم موت أمها ؟ إنه يعلم أن هذا القرار أليم حتى على نفسه ، فلو خُير

لاختار أن تبقى زوجه وأم أولاده معه ، أما وقد ذهبت ولن تعود دون أن يُسأل أو يكون له رأى فيما جرت به المقادير فمن القسوة أن يظل وحيدا ضائعا تفترسه أيامه ولياليه ، إنها قاسية حقا على نفسه وعلى أولاده أن يحمل إليهم قراره ، ولكن أن يظل شيئا ميتا يتنفس أقسى على نفسه وعلى أولاده لو كانوا يعلمون .

لا بد أن يقتحم هذه العقبة وأن يتحمل قسوتها إن أراد أن ينتشل روحه من البوار الذى يعيش فيه ، وأن يوطن النفس على خفض جناح الذل من الرحمة لأولاده إن ثاروا أو غضبوا ، فلا خير فيهم إن لم تنقبض قلوبهم وتنز بالأسى وهم يرون امرأة أخرى غريبة تحتل مكان أمهم الحبيبة .

إنه على يقين أن قراره هذا سيثير زوبعة فى البيت ، وسيحرك الأشجان ويجدد الأحزان ، ولكنه واثق فى أولاده وفى رجاحة عقولهم ، وهو على يقين من أن هذه الزوبعة ستمر دون أن تخلف تصدعا أو انشقاقا ، فما يستطيع أن يتصور أبدا أن شيئا فى الوجود يستطيع أن يفصم عرى المحبة بينه وبين أكباده .

وهمس فى جوفه هامس يقول :

ــ لن يغيب عن محمد وأحمد ونادية أن حبى لهم شىء عظيم ، وأن حاجتى إلى زوجة شىء آخر .

ورفع رأسه ونظر إلى عفاف وقال :

ــ غدا سأقدمك إلى أولادى .

فقالت وقد اتسعت عيناها من الدهشة والخوف .

ــ غدا ؟ لا أظن أن الأمور ستسير بهذه السهولة .

فقال لها وهو يبتسم :

ــ اطمئنى . ستسير الأمور أيسر مما نتمنى ، فأنا أعرف أولادى .

وابتسم ، وعجزت عن أن تبتسم ، كان القلق يمور فى جنباتها ، وكان الخوف ينسكب فى روحها ، خوفها من نفسها ، وخوفها من أولاده ، وخوفها من ابنها ، وخوفها من المجهول الذى ستقبل عليه ، بيد أن رغبتها فى أن تخرج من ظلام الضياع الذى تخبط فى دياجيره وحدها كانت أقوى من كل قلق وخوف وكل تردد طاف بها أو استقر فى أغوارها ، أو اهتزت به ظلمات نفسها .

١٠

تمدد الدكتور فى فراشه وأطلق لخياله العنان ، كان كل تفكيره يدور حول ما كان بينه وبين إيمان ، وراح يحاول أن يسبق الزمن ليرى مستقبله معها . فملأت رأسه صورة شقة فاخرة فى الزمالك ، وهو وإيمان يستقبلان فيها الأهل والأصدقاء ، ويقودانهم إلى غرفة الاستقبال ، وقد تدلت من سقفها ثريا بللورية فاخرة وزينت صدرها صورة زيتية كبيرة له ولإيمان وهما فى ثياب الزفاف .

وظل يجرى وراء أفكاره وهو راضى النفس منشرح الصدر خافق القلب ، وتسنم ذروة السعادة لما احتلت صفحة ذهنه صورتهما وهما يتعانقان ، حتى إنه كاد يذوق عذوبة القبلة فى روحه ، ويحس تردد أنفاسها الحارة على وجهه .

ووطن النفس على أن يعرض عليها فى أول لقاء لهما أن يتزوجا ، أن يعيشا معا ، أن تشاطره آماله وأمانيه ، أن تشاركه أيامه ولياليه ، أن تصبح محور حياته ، فقد بدأ يحس أن فؤاده بدونها هواء .

وتذكر فجأة الزهرية البللورية التى تحطمت ، ورأى بعين خياله قطعها المتناثرة فى وضوح وجلاء ، فتعكر صفوه ، وتدسس إلى بهجته خوف وقلق ، ولم يستسلم لمشاعره الوافدة التى همت بأن تغمر إحساسات السعادة ، بل راح يقاومها ويسفه أوهامه ، ويحاول أن يقنع نفسه أن تحطم زهرية أو نعيب بومة أو موت كتكوت من كتاكيت سيدة ، إن هو إلا شيء عادى فى حياتنا ، لا يمكن أن يكون له دلالة خاصة ، أو أن يكون نذيرا بشيء نترقبه ونخافه .

واقتنع عقله بيد أن ظلا من خوفه استقر فى أعماقه على الرغم منه ، عجز منطقه عن أن يبدده ، وبقى يترصد ما تأتى به الأيام القريبة ، حتى إذا ما وقع فيها أى شر أوهمه ما لا يرضى عنه ، علق فى عنقه ذلك النذير ، واستراحت نفسه من هواجسها الرعديدة .

وتمددت نادية فى فراش أحمد ، وأفكارها مشتتة بين ما بينها وبين عماد ، وبين ما دعا أباها إلى أن يغيب عن البيت حتى هذه الساعة من الليل ، وما كان يتأخر عادة عن التاسعة !

كانت متلهفة على عودة أبيها لتقول له إن عماد عرض عليها أن يتقدم لخطبتها ، وإنها كانت قررت أن يتريث حتى تنتهى من دراستها ، ولكن ذلك القرار لم يصادف هوى فى نفسه بل جعله يحس أنه غير مرغوب فيه ، ولما كانت لا تحب أن تجرحه أو حتى تخدش أحاسيسه فقد وعدته بأن تمهد للخطبة عند أبيها .

وهمس فى جوفها هامس يقول : « غير مرغوب فيه ؟! آه لو يدرى كم أحبه ! » ونظرت إلى الساعة فألفتها قد بدأت رحلة نصف الليل الآخر فزاد ضيقها وقالت فى صوت مسموع :

— ما الذى أخره حتى هذه الساعة ؟!

ولم يسمعها الدكتور ، كان غارقا فى أحلامه ، كان كل منهما عالما وحده ، قطعت بينهما كل سبل الاتصال وإن كانا فى غرفة واحدة ، لا يفصل بين سريريهما اللذين يتمددان فيهما إلا أشبار قليلة .

وكان أحمد عالما ثالثا مستقلا بآماله وأفكاره ، تركزت كل أمانيه فى أن يجتاز امتحان البكالوريوس وبعدها يتطلع إلى آفاق أوسع وأرحب ، وكان يغدو ويروح فى غرفة نادية وفى يده كتاب يقرأ فيه ، وما كانت نادية ولا الدكتور ولا أبوه ولا أحد من أهله يطرق باب عالمه ، فقد كان يعيش وحده .

كانت نادية وحدها هى التى تفكر فى أبيها فى هذه الليلة ، لأنها تريد أن تفضى إليه بنبأ خطبتها ، ولكن ما أكثر الليالى التى مرت دون أن يطوف بخيالها أو يخطر لها على بال ، كانت مشغولة عنه بعماد وسيارة عماد وأساطير مجدى والقطار الذى بدأت فى صنعه واستولى على كل أفكارها .

وسمعت وقع أقدام فى الدرج ، إنه جاء ، جاء أخيرا ، وهو يصعد فى خطى ثابته ، لا يسير على أطراف أصابعه كما رأته بالأمس لما تأخر فى العودة ، وقفزت من السرير وأسرعت لاستقباله بينا ظل الدكتور فى شروده ، لم يلتفت ولم تتغير الانفعالات المرتسمة على وجهه ، فكل ما يجرى خارج نفسه لا يعنيه .

ووقفت عند رأس السلم ، ولمحها لما دنا منها فقال :

— نادية ؟ مساء الخير .

— مساء الخير . انتظرتك لنتعشى معا ، ما الذى أخرك ؟

فتبسم ضاحكا وقال :

— الحمد لله أن وجِدَ فى بيتى من يهمه خروجى وعودتى !

قالها فى نبرات هادئة ، بيد أن نادية أحست فى طياتها هجوما وسخرية ، وكادت تركن إلى طبيعتها الحادة وتهاجمه ، لولا أنها كانت حريصة على ألا يتوتر

الجو بينهما لتفضى إليه بما فى نفسها ، فقالت :

ـــ وهل لنا فى الدنيا غيرك ؟!

فقال لها وهو يتجه إلى غرفته :

ـــ تعالى .

وكانت ذاهبة معه سواء أدعاها أم لم يدعها ، ودلفا إلى الغرفة ، وجلس الأب على حافة السرير وأشار إلى مقعد قريب وقال :

ـــ اجلسى .

وجلست وهى تنمق مقالتها فى رأسها ، فبعد لحظات تخبره بخطبة عماد لها :

ورماها بنظرة فاحصة سريعة فألفاها مشغولة عنه بأفكارها ، فصمت لحظة يستجمع دهاءه ثم قال :

ـــ نادية ، لم أحضر العشاء الليلة لأنى كنت أفكر فى مستقبلنا جميعا .

ونظرت إليه بعينين مفتوحتين من الدهش ، وأوجست خيفة و لم تدر مصدرها ، كانت الألفاظ التى تفوه بها عادية لا تحمل معانى كثيرة ، ولا تكشف عما يدور فى نفسه ، بيد أن نبرات صوته كانت مشحونة بالمشاعر والانفعالات فحركت مخاوفها ، وقال مسترسلا فى حديثه :

ـــ فكرت فى الدكتور فوجدت أنه عما قريب سيغادر هذا البيت ، سينفصل عنّا ليكون له أسرة ، وسينتهى أحمد من دراسته بعد أيام ، ولن يطول مكثه معنا ، سيلحق بأخيه ولن يبقى فى هذا البيت إلا أنا وأنت .

وهمت نادية بأن تقول له : « وأنا أيضا سأغادر هذا البيت بعد أن أتم دراستى ، فعماد ينتظرنى » ، ولكنها آثرت الصمت ، فقد فطنت إلى موجة الأسى التى زحفت لتغمر وجهه وأطرق قليلا ثم قال فى حزن صادق :

ـــ ماتت أمك فى وقت نحن فى أشد الحاجة إليها ، كنت أرجو أن تؤنس وحدتى فى شيخوختى وأن ترعاك بحبها وحنانها ولكن هذه مشيئة الله .

ورفع رأسه وقال فى عزم :

ـــ نادية ! هذا البيت فى حاجة إلى سيدة ترعاه وتدبر شئونه .

ودق قلبها فى شدة ، استشعرت أنوثتها ما يرمى إليه ، و لم يصدق عقلها ما أحسته فى وجدانها فقالت فى إنكار :

ـــ أتريد أن أهجر دراستى وأبقى فى البيت ؟!

ـــ لا يا نادية ، ما قصدت شيئا من هذا . و لم يدر ذلك بخلدى ، فإن مكثت فى البيت اليوم فستغادرينه إلى بيت زوجك يوما ، هذه تضحية ليس لها ما يبررها .

فأرهفت كل حواسها ، ولفها خوف ونزل بصدرها قلق ، وقالت وهى تنهض كأنما تتحفز للانقضاض عليه إذا ما نطق بما أثار انفعالاتها :

ـــ وماذا تريد أن تفعل ؟

ولاحت الضراوة فى عينيها ، فرأى أن يلقى ماء على نار ثورتها التى بدأت تُولد فى جوفها قبل أن يفضى إليها بقراره الذى يعلم أن وقعه سيكون أليما عليها ، فقال :

ـــ كانت الأيام التى عشتها مع أمك أسعد أيام حياتى ، ولو أنى مت قبلها لكنت أسعد حالا منى الآن ، ولكنها ـــ سامحها الله ـــ ذهبت وتركتنى وحدى .

فقالت نادية فى انفعال :

ـــ بابا ، كيف تكون وحدك ونحن معك ؟

فقال فى حزن :

— أنا ضائع فى هذه الدنيا وأنتم معى ، فماذا يكون حالى لما أستيقظ يوما وأجد نفسى فى هذا البيت وحدى ، ولا شىء معى إلا مرارة السأم وقسوة مرور الزمن !

— ستوفر لك سيدة كل حاجاتك ، ستعد لك طعامك وتغسل ثيابك وتشرف على نظافة البيت ، ولن يمر يوم دون أن نزورك ، وإن شئت بقى أحدنا معك بعد أن يتزوج .

وقال وهو يتحلم ، فهى لا تريد أن تفهمه :

— قلت لك يا نادية إنى ضائع وأنتم معى .

ووجدت ألا فائدة من اللف والدوران ، فقالت وهى تكاد أن تسقط من الخوف :

— وماذا قررت ؟

— فكرت طويلا ، فوجدت أنى فى حاجة إلى زوجة تشاركنى شيخوختى .

فانفجرت نادية صائحة :

— لا ، هذا لن يكون ، لن تدخل امرأة هذا البيت بعد أمى ، لن تأخذ امرأة أخرى مكان أمى أبدا ، سأقتلها وأقتل نفسى .

وراحت تجهش بالبكاء بصوت عال :

— آه يا ماما .. آه يا ماما .

وبلغ صراخها مسامع أحمد فترك الكتاب الذى كان فى يده وهرول إلى غرفة أبيه ، وقوض بكاؤها صرح أحلام الدكتور فقفز من سريره وهرول ليرى ماذا جرى .

ودخل أحمد ومحمد إلى غرفة أبيهما فوجدا نادية منخرطة فى البكاء وأباها

يضمها إليه ويقول :

ـــ نادية ! كنت أظنك أعقل من هذا ، آسف إن كنت آلمتك ، وإن كان ألمى أقسى وأشد . أنت تظلمينى يا نادية . لم تفهمينى أبدا .

وقال محمد فى دهشة :

ـــ ماذا حدث ؟

فانفلتت نادية من بين يدىّ أبيها وهى تبكى وتصيح :

ـــ آه يا ماما .. آه يا ماما ..

وانطلقت كالسهم من بين أخويها اللذين كانا يتلفتان فى قلق ، وذهبت إلى فراشها وارتمت فيه تبكى أحر بكاء .

ووقف محمد وأحمد ينظران إلى أبيهما لعله يكشف لهما سر هذه الثورة التى اندلعت فجأة ، ولكنه أطرق و لم ينبس بكلمة ، فدارا على أعقابهما وذهبا إلى غرفة أختهما ليعرفا سبب بكائها وعويلها .

وجلس الدكتور على حافة السرير بالقرب من رأسها الذى أخفته بين الوسائد ، ووقف أحمد ينظر فى صمت وإن أحس يدا قوية تهصر قلبه وعبراته تخنقه ، فأقسى ما يؤلمه الدموع المنهمرة فهى تلسع روحه لسع النار .

وراح الدكتور يمرر يده فى حنان على رأس أخته ويقول :

ـــ نادية ، كفى بكاء وقولى لى : ما الذى حدث ؟

فراحت تتلوى فى حركات عصبية وتصيح :

ـــ آه يا ماما .. يا حبيبتى يا ماما .

و لم يستطع أحمد أن يكبح عواطفه فأجهش بالبكاء ، فالتفت الدكتور إليه فغامت عيناه بالأسى ، ثم التفت إلى نادية وقال :

ـــ نادية ! لم أعد أحتمل هذا العذاب ، أنت تبكين وأحمد يبكى

لبكائك ، وأنا لا أدرى لهذا البكاء سببا .

وراح يرفعها بين يديه وهو يقول :

— قومى يا نادية ، أنت أعقل من هذا ، وقولى لنا ما الذى جرى ؟

ورفعت نادية رأسها ، وجلست فى سريرها وقالت فى انفعال :

— نسى أبى فى لحظة أمى . نسى عشرة ثلاثين سنة ، تنكر لكل ماضيه ، يريد أن يتزوج بعد أن أوشكت أسنانه الخضر أن تظهر .

فقال أحمد فى فزع :

— يتزوج ؟

وقال الدكتور مستنكرا قولها :

— نادية !

فقالت دون أن تأبه لزجر الدكتور لها :

— كنت أحسب أن أبى آخر من يرتكب هذه الحماقة ، ما الذى ينقصه ؟. بيته مفتوح ، وكل شىء فيه رهن إشارته ، وهو ليس وحيدا كما يدعى ، إننا نملأ عليه بيته ، وقد عرضت عليه إن كان يخشى أن يصبح وحيدا فى المستقبل أن يسكن أحدنا معه بعد أن يتزوج ، ولكنه أصر على أنه ضائع حتى ونحن معه ، إنها ليست الوحشة التى يخشاها ، بل هى الخيانة التى تسرى فى البشر .

فقال أحمد وهو يهز رأسه فى حزن :

— نسى أبى كل أيام أمى ، بل لعل صورتها امحت من رأسه !

فقال الدكتور وهو ينهض :

— لو لم يكن أبى يحب أمى ما فكر فى الزواج بعدها أبدا ، إنه يحن لأيامها ، يريد أن يوهم نفسه أنها لا تزال معه .

فقفزت نادية من السرير وقامت إليه وقالت فى تحد :

ــ هذا كلام ، أتحب أن تتزوج امرأتك رجلا آخر بعد موتك ؟

وارتبك الدكتور ودق قلبه فى شدة وراح يتلفت زائغ البصر ، ولكنه ما لبث أن سيطر على أعصابه وقال فى صوت جاهد أن يبدو هادئا :

ــ ليس من العدل أن يتحكم الزوج فى مصير من شاركته حياته بعد موته ، وإلا كان على الزوجة أن تدفن مع زوجها الميت .

فقالت نادية فى ثورة :

ــ المسألة ليست عدالة ، بل عواطف ، ليس من الوفاء أبدا أن يتزوج أحد الزوجين بعد موت شريك حياته .

فقال أحمد مؤيدا نادية :

ــ نادية على حق ، ليس من الوفاء أبدا أن يتزوج أبى بعد موت أمى وقد شبع من الدنيا .

فقال الدكتور وهو ينظر إليهما فى استخفاف :

ــ ما زلتما صغيرين . الأيام كفيلة بأن تطور نظراتكما إلى الحياة .

فقالت نادية فى إصرار :

ــ لن أحيد عن مبادئ أبدا . الإنسان يحب حبا صادقا مرة واحدة ، فإن فقد هذا الحب فمن الوفاء أن يظل وفيا لذكراه .

فقال الدكتور فى سخرية :

ــ هذه أفكار ابنة العشرين .

وقالت نادية فى تأكيد :

ــ وستظل أفكارى ما حييت .

ولاح فى وجهها أنها تذكرت شيئا فجأة ، فقالت :

ــ كان عماد قد طلب منى أن نعلن خطبتنا ، وقد أمهلته حتى أخبر أبى ،

بيد أن أبى كشف عن الخيانة فى طبع الإنسان قبل أن أكلمه فى أمر خطبتى . إنى لا يمكن أن أتصور أن يتزوج رجلى امرأة أخرى بعد موتى ، إن رفاتى لن تعرف الاستقرار لو أن شيئا من ذلك حدث ، ولكيلا أقع فى مثل هذا العذاب قررت ألا أتزوج أبدا .

وهم الدكتور بأن يقول لها : « هذا عبث أطفال » ولكنه آثر أن يصمت وألا يعارضها حتى لا تركب رأسها كعادتها ، وتصر على رأيها لكيلا تجرح كبرياؤها ، وإذا بها تلتفت إليه وإلى أحمد وتقول :

— عاهدانى على ألا نتزوج أبدا ، لنصون أنفسنا من عبث الآخرين واحتقارهم لنا بعد مماتنا .

فقال أحمد فى حماسة :

— أعاهدك .

وصمت الدكتور وإن ارتسمت فى روحه بسمة ساخرة ، والتفتت إليه نادية وقالت :

— وأنت ؟

فمثل الدكتور الحماس وقال :

— أعاهدك .

وقالت نادية وهى ترفع يدها كأنما تستعد لقسم :

— وعاهدانى على ألا نسمح لأبينا بأن يتزوج ما دمنا على قيد الحياة .

فقال أحمد ومحمد معا :

— نعاهدك .

وكان أحمد صادقا فى قوله ، بينما كانت السخرية تقطر من نبرات صوت الدكتور .

(النصف الآخر)

١١

نهضت نادية من فراشها بعد أن أمضت ليلة لم تذق فيها النوم إلا غرارا ، كانت تفكر فى واجبها نحو أمها التى ذهبت و لم تعد قادرة على أن تدافع عن ماضيها وكبريائها وذكراها ، فوطنت النفس على ألا تسمح لأبيها أن ينسى الماضى وأن يدنس الذكرى . وقررت ألا تدع له فرصة يفلت فيها من رقابتها ، وألا تقصر فى واجب نحوه حتى لا يجد مبررا ينفذ منه إلى شهواته !

إن أباها لما صرح برغبته فى الزواج من امرأة أخرى بعد أمها قوض كل مقدساتها ، وأراق دم الوفاء أمام عينيها ، وحرك مرارة نفسها ، وتعفنت العلاقة بينه وبينها بعد أن كانت تفوح بأطيب أريج . صارت تستشعر عداوة له كلما سرح خيالها فيما قاله . أو تصورته وقد أغلق باب غرفة نومة عليه وعلى امرأة غريبة .

ورأت بعيون أفكارها نفسها وهى تطوح يدها فى ثورة فتحطم زهرية أمها البللورية مرات ، وكانت فى كل مرة تنقبض ويسرى فيها خوف ، وتؤكد لها أوهامها أن ذلك نذير شؤم ، وأنه دلالة على تحطيم آخر ما يربط أمها بهذا البيت ، وكانت تحاول أن تقضى على مخاوفها بتسفيه هذه الأفكار ، وسخريتها من نفسها التى أصبحت تتشاءم وتتفاءل كما يتشاءم الدكتور ويتفاءل ، وكانت فى قرارتها تستخف بأحلامه وتسخر منه ، بيد أنها عجزت عن أن تنتشل نفسها من تأثير هذه الأوهام ، وأن تمحو الرهبة والقلق والكآبة التى رانت على كل مشاعرها وخلجات وجدانها .

وتملكها إحساس ينبض بالقلق والحيرة واليأس ، كذلك الإحساس الذى استبد بها فى الأيام التى كان شبح الموت يطوف بفراش أمها الحبيبة ، فانطلقت تهبط فى الدرج ، وانسابت مهرولة إلى حيث كانت صورة أمها ، ورفعت إليها عينيها ووقفت خاشعة لحظة كأنما كانت فى محراب ، ولم تقو على كبت ضغط مشاعرها فطفرت الدموع من مآقيها ، وغمغمت فى صوت مزق نياط قلبها :

— أمى .. أمى .

وانخرطت فى البكاء .

وطافت بذهنها صورة عماد ، فقد كانت فى حاجة إلى من يقف إلى جوارها فى محنتها ، وكادت نفسها تصفو بيد أن صورة أبيها احتلت أقطار رأسها ، ورن فى أذنيها صوت غدره فاربد وجهها ، وثار حقدها وراح يكتم أنفاس كل إحساس رقيق تحرك بين جنباتها ، وسيطرت كل على مشاعرها قسوتها .

ودارت على عقبيها وعادت إلى غرفتها ، وقد قررت أن تلبس « العفريتة » وتنطلق إلى الجراج لتنهمك فى صنع القاطرة التى بدأتها ، وتوجه إليها كل طاقاتها التى قد تتسلل فى غفلة منها وتغذى ضعفها .

آه ، إنها تحب عماد بروحها وقلبها وعينيها وكل خلجة من خلجاتها ، بيد أن أباها لقنها درسا قاسيا لن تنساه .

وانهمكت فى تحريك المبرد فى قوة على قطعة معدنية فى المنجلة ، وتفصد العرق منها ، بيد أن ذلك الجهد لم يقض على الأصوات التى كانت تدوى فى أغوارها : « عماد ما ذنبه ؟! إنه يحبك ، لم يفعل شيئا يغضبك ! وأبى ألم يكن يحب أمى ؟ أما كان يحوطها بعطفه وما أكثر ما كان يتودد إليها ! لا . لن أخدع كما خُدعت أمى . أمى ماتت راضية .. ليت عماد يسعدنى كما أسعد أبى أمى .. لا . أبى خان أمى ولم يحفظ عهدها ، وما أدرانى أنه لم يخنها أيام كان يتودد

إليها ؟ لا يا نادية ، إنه أبى .. أبى رجل ككل الرجال فى طبعهم الغدر والخيانة . عماد ليس مثلهم ، إنه طراز آخر .. إنه نسيج وحده .. يا لبلاهتك إنه منهم .. كلهم سواء .. كلهم رجال » .

ومر الدكتور بها وهو فى طريقه إلى العيادة ، وهتف قائلا :

ــ صباح الخير يا نادية .

ورفعت رأسها فى ذعر ، كانت غائبة عن كل ما حولها بما يدور فى نفسها ، وقالت :

ــ صباح النور ..

وسار فى طريقه وهو يعجب كيف خطرت فكرة مقاطعة الزواج على قلبها ؟ وتذكر ما كان منه فى أمسه فابتسم ، فقد انحصر تفكيره ــ بعد أن عاهدها على ألا يتزوج أبدا ــ فى إيمان وفى الزواج منها .

وشُغلت نادية فى التفكير فيما تقوله لعماد ، فسيمر عليها بعد قليل ليسمع منها ما جرى بينها وبين أبيها فى شأن خطبتهما ، أتقول له إنها قررت ألا تتزوج دون أن تبدى له أسبابا ، أم تقول له الدوافع التى دفعتها لاتخاذ هذا القرار ؟ وإذا قالت له إن تطلع أبيها للزواج من امرأة أخرى بعد أن عاش معها ثلاثين سنة هو سبب زهدها فى الزواج ، أفلا يكون فى إفشاء هذه النزوة إهانة لأمها ؟

إهانة لأمها ؟ أمها ماتت وقُضِيَ الأمر ، فإن كانت هناك إهانة فهى لأبيها الذى خان الوفاء ، آه من قلوب الرجال !

وتمنت لو أن مجدى يأتى لتستشيره فى أمرها ، فهى تثق فى آرائه وترتاح إليها ، وتستطيع أن تفضى إليه بما لا تستطيع أن تحدث به عماد ، فهى لا تجد حرجا فى أن تقول له إن أباها كفر بماضيه ويشتاق إلى أن يعيد شبابه ، فهو صديق وهى تأتمنه على أسرارها وتكشف له قلبها فى صدق ، أما عماد فهى

تكلمه فى حذر ، ولا تشركه فى مشاكلها خشية أن يستغل ذلك للنيل منها يوما بعد أن يتزوجا .

ليت مجدى يأتى لتقول له ما عزمت عليه ، وتبلغه قرار إضرابها عن الزواج ، وتلقى على مسامعه ما ستقوله لعماد ليناقشها فى الفكرة واللفظ ويخفف من حدتها ، فهى تشتهى أن تقرع عماد بالنبأ العظيم دون أن تخدش كبرياءه أو تخلف فى نفسه مرارة !

وصلك أذنيها صوت « كلاكس » سيارة عماد ، فانتفضت واشتد وجيب قلبها ، وراحت تتلفت فى قلق ، وسرت فيها رهبة ، فراحت تمرر يدها دون تفكير على وجهها ، فخلفت فيه بصمات أصابعها .

وتقدم عماد منها والبشر يتألق فى وجهه ، والابتسامة العذبة ترف على شفتيه ، وبريق السعادة يشع من عينيه ، ووقفت ترقبه منتصبة القامة ثابتة القدم ، وإن كانت نفسها تترجح فى جنباتها كريشة تعبث بها الرياح .

وأمسك براحتيه خصرها ، وقال فى انشراح :

— مبارك .

ومال عليها ليطبع على شفتيها قبلة ، فأشاحت بوجهها عنه . وانتفض كل جسمها وقالت وهى تحس خنجرا مسموما يطعن قلبها :

— آسفة يا عماد ، لن نتزوج .

فقال عماد فى انفعال :

— هذا قرار أبيك ؟

فقالت وقد أطرقت برأسها :

— هذا قرارى .

فراح يقلب عينيه فيها وهو مدهوش ، وقال فى حدة :

ـــ نادية ! لا أحب أن يعبث بى أحد . قولى لى ما الذى حدث ؟

ـــ لا شىء .

ـــ من حقى أن أعرف . قولى إنك لم تحبينى يوما أو اكتشفت أنك لا تحبينني ، وأنا أغلق نفسى على جراح قلبى .

ـــ عماد ! أنت تعلم كم أحبك !

ـــ لهذا قررت ألا نتزوج ؟

ـــ ليبقى هذا الحب ولا يموت ، ليبقى طاهرا لا تدنسه خيانة ولا يعبث به عابث .

فأمسكها من ذراعيها وقال لها :

ـــ أريد أن أعرف كل ما يدور فى رأسك ، غادرتك بالأمس وأنت رقيقة كالنسيم ، وإذا بك اليوم عاتية كالموج الهائج ، قاسية كالحجر الجلمود ، وإن كانت ألفاظك ناعمة نعومة الأفاعى .

وأحست رغبة فى البكاء ، بيد أنها تجلدت وراحت تقاوم دموعها التى بللت روحها ، والألفاظ التى جاشت فى صدرها وتراقصت على طرف لسانها ، وسحبت نفها من قبضتيه وأولته ظهرها لتخفى عنه انفعالها ، فراح يرمقها بعينين زائغتين ونفس مشتتة ، ورأى أن يستسلم لمشيئتها وإن كانت النار ترعى فى جوفه ، والجفاف يكاد يخرط حلقه ، والأسى يقبض فؤاده ، فقال :

ـــ وداعا .

وانهارت مقاومتها ، لم تعد قادرة على أن تمسك لسانها عن أن تروى له سرها وإن كان فيه إهانة لأبيها ، وخدش لهالة القداسة التى كانت تتمنى أن تظل ذكرى أمها محوطة بها ، فالتفتت فى سرعة ونادت فى لهفة :



ـــ عماد !

وهرع إليها وضمها إليه ليطفئ الثورة المتأججة بين ضلوعـــه ، وراح يغمغم :

ـــ نادية ! حبيبتي نادية !

وكادت تلقي برأسها على صدره وتترك شفتيها لشفتيه ، وتستسلـــم للمخدر اللذيذ الذى سرى فى كيانها ، وتدع أنفاسه الحارة تبخر تصميم الأمس ، بيد أنها قاومت كل ذلك الإغراء ، ودفعته فى رفق وقالت فى توسل :

ـــ عماد ! أرجوك أن تفهمنى .. إننا لن نتزوج ، ولكن ليس هناك ما يمنع من أن نظل أصدقاء .

فعاد ينظر إليها وهو فاغر فاه من الدهشة ، وقال :

ـــ أنت لست نادية التى أحببتها .. أنت امرأة أخرى لا يعرفها قلبى ولا تهفو إليها روحى ولا تتفتح لها نفسى . ما الذى غيرك .

فقالت وقد أطرقت برأسها :

ـــ نادية التى كنت تعرفها ماتت بالأمس ، ماتت بالسكتة القلبية ، بعد أزمة عدم ثقة بالرجال ، بل بالبشر جميعا .

ـــ لماذا تعذبيننى كل هذا العذاب ؟ نادية أريحى قلبى وقولى : ما الذى حدث ؟

فأشاحت بوجهها عنه وقالت فى نبرات حزينة :

ـــ بالأمس جاء أبى بعد أن خرجت أنت ومجدى ، وذهبت معه إلى غرفته لأحدثه فى أمر خطبتنا ، وقبل أن أفتح فمى بكلمة قال لى إنه ضائع وهو بيننا ، إنه ضاق بوحدته وقد قرر أن يتزوج .

والتفتت إليه وقالت فى انفعال :

ـــ تصور . أبي يفكر فى الزواج بعد أمى !

فراح يرمقها فى دهش وقال :

ـــ وما وجه الغرابة فى ذلك ؟

فدنت منه حتى أصبحت عيناها فى عينيه وقالت :

ـــ لو أنها ماتت وهو فى ريعان شبابه لالتمسنا له عذرا ، أما أن يفكر فى الزواج بعد أن طلعت أسنانه الخضر فهذه خيانة .. خيانة ..

فقال لها فى إشفاق :

ـــ أنت مجهدة يا نادية .

ووضع ذراعه خلفها وقال :

ـــ اذهبي واستريحى ، وبعد أن تهدأ أعصابك سترين أن ما جرى شيء عادى جسمته أوهامك .

فانفلتت منه فى سرعة ، وواجهته فى تحد وقالت :

ـــ ماذا تقصد أن تقول .

ـــ أقول إن من حقه أن يتزوج ، أنانيتك هى التى تأبى أن تقر له هذا الحق .

فقالت فى حدة :

ـــ أنت مثله .. كلكم مثله ، وهذا ما جعلنى أفر بنفسى من هذه المهانة ، لن أتزوج . لن أتزوج أبدا حتى لا أتيح لرجل فرصة نسيانى وخيانتى بعد موتى !

ـــ ما هذه الأفكار السوداء ؟ إن قلبك اليوم ينز صديدا .

ـــ بعد أن تفتحت عيناى على الحقيقة البشعة .

ـــ إنها حقيقة . مجرد حقيقة ، من حقه أن يتزوج .

وأحست رغبة فى إيلامه فقالت له :

ـــ أتحب أن أتزوج رجلا آخر إذا قُدر لك أن تموت قبلى ؟

فأحس كأن مسا كهربيا سرى فى كيانه ، وغص حلقه ، وتفصد العرق من جبينه ، وانتابه قلق ، ولفته رهبة ، وراح يجاهد ليجمع نفسه التى ذهبت شعاعا ، وقال فى صوت واهن :

ـــ بعد أن أموت لن يكون لى عليك سلطان ، لك أن تفعلى ما بدا لك .

فقالت فى نبرة فيها انتصار :

ـــ لماذا هربت من الجواب ؟ لماذا لم تقل صراحة إنك تبتهج بذلك ، وإن عظامك لن تعرف الراحة والاستقرار قبل أن أتزوج ؟!

فقال فى هدوء مفتعل :

ـــ الحقيقة وإن كانت لا تسرنا دواما فإنها تظل حقيقة .

و لم يستطع أن يستمر فى هدوئه المصطنع فانفجر فيها قائلا :

ـــ قولى لى : من ذا الذى سيرعاه ومن ذا الذى سيملأ فراغ حياته ؟ أنت أم الدكتور أم أحمد أم سيدة ؟

ـــ كلنا سيحمله على أكف الراحة .

ـــ إنه ليس فى حاجة إلى أكف الراحة ، إنه فى حاجة إلى شريكه لحياته ، لا يُشغل قلبها إلا به ، يجدها وقتما يحتاج إلى من يبثه آماله وآلامه ، ويحدثها فى كل شىء ، لا يخجل من أن يلقى عليها تفاهاته .. كلنا فى حاجة إلى من يشاركنا تفاهاتنا .

وأراد أن ينهى هذا الجدل فقال لها :

ـــ نادية ، لا تستسلمى لمثل هذه الأفكار المدمرة ، فلن تحصدى إلا المرارة والألم ، إننا يا نادية أعجز من أن نقف فى سبيل تيار الحياة .

فقالت فى إصرار :

— إنى قررت .

— قررت ماذا ؟

— قررت ألا أتزوج وألا أدع أبى يتزوج .

فقال دون تفكير :

— هذا عبث أطفال ، أنت يا نادية تلعبين بالنار .

وتكهرب الجو ، وتأهب أن يثور ثورة عارمة إذا ما عادت لمثل هذا الهذيان ، لم يعد يحتمل أكثر مما احتمل فما خطر له على قلب أن تقرر فتاة أن تعيش عانسا لأن أباها رأى أن يتزوج بعد موت أمها . كان على ثقة فى أول الأمر من أن أعصابها متوترة ، وأنه سينجح فى تهدئتها ، وإذا به يجدها قد ركبت رأسها ، وهو يعرف عنادها ، وراودته فى تلك اللحظة فكرة أن يقسو عليها وأن يضربها لو استطاع . وساد الصمت القلق بينهما برهة ، ثم قالت :

— آسفة يا عماد ، ما كنت أحب أن أسىء إليك ، ولكنى اتخذت قرارى ولم يعد عندى ما أقدمه لك إلا صداقتى .

ومدت له يدها لتصافحه وتعاهده على أن يظلا صديقين ، ولكن كان ذلك فوق احتماله ، فترك يدها الممدودة ودار على عقبيه وانصرف ، وهو يكاد ينفجر من الغيظ .

١٢

خرجت نادية من الحمام وراحت تمشط شعرها ، ولم تستطع أن تتريث حتى تتم زينتها ، بل خفت إلى التليفون والمشط فى يدها وراحت تدير القرص

فى لهفة ، ثم قالت :

— آلو .. الدكتور ؟

وجاء صوت الدكتور محمد من الناحية الأخرى يقول :

— أهلا نادية !

— محمد ، أرجو ألا تتأخر اليوم عن الغداء ، سنتغدى جميعا مع بابا .

وأرادت أن تثير اهتمامه فقالت :

— وأعددت لك الصنف الذى تحبه : حمام محشو .

وفطن إلى أنها قد قررت أن تضرب على أبيها حصارا حتي لا يفلت منها ، فقال لها مطمئنا :

— لن أتأخر . سأكون فى البيت قبل الثامنة .

فقالت فى انشراح :

— مدهش .

ووضعت السماعة وراحت تستأنف تمشيط شعرها ، ثم انطلقت إلى غرفة أحمد فألفته يغط فى نومه ، فراحت تهتف :

— أحمد .. أحمد .

وظل فى سباته وقد تفصد العرق من جبينه . فمدت يدها وراحت تهزه وهى تنادى :

— أحمد .. أحمد .

ففتح عينين محمرتين مجهدتين ، وقال فى تكاسل :

— دعينى أرجوك ، أريد أن أنام .

فقالت فى إصرار :

— قم لنتغدى .

— لا أريد أن آكل الآن ، دعينى أنام .

— ستتغدى مع بابا .

وكأنما فطن فى لمحة إلى كل ما تقصده ، فنهض قائما وهو يقول :

— لماذا لم ينتظر بابا حتى أنتهى من الامتحان ؟ لماذا اختار هذا الوقت بالذات ليقرر فيه الزواج؟ أننى لو رسبت فسيكون هو السبب ، فقد تشتتت أفكارى و لم يبق على الامتحان إلا يومان !

فقالت فى إصرار :

— أبى لن يتزوج ، لن أسمح له بذلك أبدا .

فقال أحمد وقد انتفش كالديك :

— أجل لن نسمح له بذلك أبدا .

وعادت نادية إلى غرفتها تستأنف زينتها ، وتفكر فى المشكلة الجديدة التى طرأت على حياتها ، إنها ستقاوم رغبة أبيها ، فإن عجز منطقها أن يثنيه عن عزمه فدموعها خير سلاح ، فهو لا يقدر على مقاومتها !

واحتلت صفحة ذهنها صورتها وهى تمد يدها لعماد ليعاهدها على الصداقة ، فانقبضت وأحست قلبها يضطرب ، ومرارة تسرى فيها حتى ذاقت طعمها على طرف لسانها ، ولفها شعور بالضيق والأسى ، وزاد فى ضيقها أن صوتا هامسا فى أغوارها أكد لها أنها تجنت على عماد وأساءت إليه دون ما سبب ، وأن ما تفعله لا عقل له ولا منطق ، بيد أن عنادها ثار وراح يحرضها على أن تستمر فى موقفها القوى الذى لا تحتمله إلا فتاة صلبة مثلها ، فإن ضعفت أو وهنت فلن تكون فى حياة أى رجل أكثر من لعبة يلهو بها ، فإذا ما تحطمت اشترى بنقوده لعبة أخرى .

وتدفقت أفكارها فرأت أن النساء جميعا سلعة فى السوق ، يختار الرجال ما

يشاءون منها ، وما على السلعة إلا أن تُحمل إلى بيت من يشتريها ، من يدفع ثمن التمتع بها !

إنها لن تكون سلعة أبدا ، سواء أغضب عماد أم لم يغضب ، إنها أحبته حقا ، وتهفو إلى أن تعيش معه وتشاركه حياته ، فهل إذا اكتشفت بعد الزواج أنها لم تعد تحبه أتستطيع أن تهجره بمحض اختيارها ؟ إنها ستظل ترسف فى الأسر ما لم يوافق عماد على تسريحها .

لا . لا . لن تضعف أبدا إن أرادت أن تعيش بكرامتها !

ونبتت فى رأسها فكرة ، إذا كانت تتمنى أن تكون حرة فى تقرير مصيرها إذا ما كرهت زوجها ، فلماذا تنكر على أبيها حريته إذا ما فكر فى أن يتزوج بعد أن ماتت زوجته ؟ وقام عنادها يؤكد لها أن ذلك ليس من حقه ، فقد عاش مع زوجته حتى آخر أيام حياتها عيشة راضية ، ولم يعد للزواج معنى بعد أن بلغ ذلك العمر وشبع من الدنيا !

وسمعت وقع أقدام فى الردهة فى الطبقة السفلى ، فخرجت من حجرتها ونظرت من أعلى السلم فرأت الدكتور مقبلا ، فهتفت فى انشراح :

— دكتور ! شكرا .

وصعد الدكتور وهبطت مسرعة ، ومرت بأخيها دون أن تتمهل أو تحادثه ، فراح يتبعها بنظره حتى غابت فى غرفة الطعام ، وهز رأسه فى استخفاف ثم عاود صعوده .

وراحت نادية تشرف على إعداد السفرة لأول مرة فى حياتها ، والتفتت ناحية زهرية أمها البللورية فألفت مكانها خاليا ، فتسمرت فى مكانها برهة ، وسرت فى جوفها رهبة كان مبعثها تشاؤمها ، ولكن ما لبثت أن استولت على نفسها وردت إلى طبعها ، فراحت تغدو وتروح فى الغرفة وتعاون سيدة ،

وتصدر أوامرها للخادم الذى كان يساعدهما .

ومس أذنيها وقع أقدام خفيفة الوطء ، فهتفت :

— بابا !

ثم أسرعت إليه وراحت تستقبله بقبلاتها ، فراح يربت على ظهرها فى حنان دافق ، وإن لم تخف عن فطنته الدوافع التى أثارت اهتمامها به .

وقالت وهى تبتسم له :

— السفرة فى انتظاركم .

— صاعد ، ونازل حالا !

ونادت :

— دكتور .. أحمد .. هيا فقد جاء بابا .

وخرج الدكتور وأحمد من غرفتهما ، ووقفا عند رأس السلم يستقبلان أباهما ، والتفت الأب خلفه ورنا إلى نادية رنوة طويلة كأنما يقول لها : هذا من تدبيرك .

وجلسوا حول المائدة ، وراحوا يثرثرون بأحاديث طالما خاضوها ، كانوا مجتمعين بأجسامهم أما أفكارهم فكانت مشتتة ، كل منهم يهيم فى دنيا رفاقه ، كان الدكتور يفكر فى إيمان وفيما كان بينه وبينها وفيما سيقوله لها هذه الليلة ، وكان أحمد يفكر فى الامتحان ويبتهج فى قرارة نفسه أنه وجد سببا يعلل به رسوبه إذا ما أخفق ، أبوه هو السبب ، أربكه لما قال إنه سيتزوج ، وكان الأب يفكر فى عفاف وفى نادية معا . فالمعركة بينه وبين ابنته قد بدأت ، وهو قادر على سحقها ، ولكنه كان يرجو أن تكون أعقل مما بدت ، وأن تقبل الواقع دون إثارة معارك ستخرج منها مدحورة ، ولن تجنى منها إلا المرارة والكراهية ، وكانت نادية تفكر فى طريقة تُقيد بها أباها هذه الليلة ، فقالت :

— ما رأيكم فى أن نذهب إلى السينما ؟
فقال أحمد فى فزع :
— لا . الامتحان .
وقال الدكتور :
— آسف ، مرتبط الليلة بموعد مع أحد المرضى !
وقال الأب ليُسكن الطمأنينة قلب ابنته :
— لن أخرج الليلة ، سأقرأ حتى يغلبنى النوم .
وأراد أن يزيد فى طمأنينتها فقال لها :
— وسأتعشى لبن زبادى .

واستراحت نادية وراحت تأكل هادئة ، ولكن سرعان ما رأت نفسها وهى تمد يدها إلى عماد ، وعماد يدور على عقبيه دون أن يلتفت إلى يدها الممدودة إليه ، فشردت وتوقفت عن الأكل ، وكان أبوها يرمقها بعينيه ليقرأ على وجهها ما يدور فى رأسها ، فقال لها :
— نادية ! فيم تفكرين ؟
فقالت فى ارتباك :
— لا شىء . لا شىء .

وانصرفوا إلى حجراتهم ، وراح الأب يغدو ويروح فى الغرفة دون أن يخلع ملابسه ، ويرهف السمع ليتأكد أن الرجل قد هدأت فى البيت ، ولما سيطرت عليه السكينة ، ذهب إلى فراشه وراح يصنع من الأغطية على هيئة رجل نائم ، ثم سحب فوقها ملاءة بيضاء ، ووقف بعيدا ينظر فاطمأن إلى أن أى متلصص عليه من ثقب الباب سيتأكد من أنه فى سبات .

وتناول كتابه وفتحه فى يده ، وفتح الباب ومد عنقه وتلفت ، فلما وجد

الطريق خاليا خرج وأغلق الباب خلفه فى رفق ، ورفع الكتاب أمام عينيه كأنما كان يقرأ ، ثم راح يهبط فى الدرج على أطراف أصابعه .

وغادر الردهة الواسعة فى أمان ، واقترب من الجراج فلم يفكر فى أن يستعمل سيارته حتى لا ينكشف أمره ، بل راح يهرول مبتعدا عن البيت ، وينطلق فى طريق الهرم ، وسار يجد السير والعرق يتفصد منه فقد كانت الشمس حامية والجو حارا ، بيد أنه كان سعيدا مبتهجا .

ومر به تاكسى فأشار له واندس فيه ، وقال دون تفكير :

— جروبى من فضلك .

وانسابت السيارة مسرعة ، وهو يرجو فى قرارة نفسه لو أن المسافة تطول لينقضى بعض الوقت الطويل الفاصل بين حاضره وموعده مع عفاف ، وخُيل إليه أن السيارة وقفت أمام جروبى فى مثل لمح البصر ، فهبط منها ودخل واتجه إلى ركن بعيد ، فقد كان المكان يكاد يكون خاليا ، وجلس يقرأ فى الكتاب الذى كان معه وما كاد يفهم مما يقرأ شيئا ، كان ذهنه مشغولا بالترتيب للحادث الخطير المقبل عليه !

ومر الوقت وغابت الشمس وبدأ الليل يزحف ، فتأنق الدكتور وذهب للقاء إيمان ، وهبطت نادية إلى الجراج ووقعت عيناها على سيارة أبيها فابتسمت فى انتصار ، واستأنفت عملها ، حتى إذا ما تعبت عادت إلى غرفتها ، ومرت بغرفة أبيها ، فوقفت تفكر فى أن تدخل لتحادثه لتستأنس به ويستأنس بها ، وهمت بأن تطرق الباب ، ولكنها أحجمت خشية أن تقلقه ، ومالت على ثقب الباب ونظرت منه فألفته نائما ، فراحت تفرك يديها فى ابتهاج .

ونظر شوقى فى ساعته ، وأخرج حافظته واطمأن إلى وجود بطاقته الشخصية وإلى ورقة صغيرة بها رقم تليفون ، ثم نهض وخرج واستقل تاكسيا

وذهب للقاء عفاف .

وجلسا إلى نفس المائدة التي تقابلا عندها أول مرة ، فأشرق وجه عفاف وقالت :

— مصادفة طيبة ! نفس المائدة !

وابتسم شوقى ، لم تكن مصادفة فقد رتب فى الصباح كل شىء ، وقال :

— ما رأيك فى أن نحملها معنا ، فقد أصبحت منا .

وتألقت عيناها ببريق السعادة ، فقد فهمت بغريزتها أشياء كثيرة ، إنه يريد أن يقول لها إنه سيحملها معه ، وإن زواجهما أمسى مقررا ، وأنه مهد كل شىء حتى أن حمل مائدة عزيزة عليهما أصبح رهن مشيئتهما .

واقتربت بكرسيها منه لتسمع أنباءه ، وفطن إلى لهفتها فقال لها :

— سنتزوج الليلة .

كانت تتلهف على سماع هذا القول ، وعلى الرغم من ذلك اضطربت وغاض لونها وخفق قلبها رهبة ، وظلت مدة صامتة وإن ثارت مشاعرها واختلطت ، وامتزج الفرح بالقلق ، والرهبة بالخوف ، فقد كانت مقبلة على مجهول لا تدرى كنهه .

وأخيرا قالت فى صوت مضطرب :

— وما رأى الأولاد ؟

فقال وهو يجاهد ليبدو هادئا :

— لم يبتهجوا للخبر وبكت نادية .

وفطنت إلى أنه لن يقدمها إلى أهله ، فسرت فيها موجة من الأسى وقالت :

— أليس من الأفضل أن نتريث حتى تهدأ نفوسهم ؟

فمد يده ووضعها على يدها وقال :

ــ عفاف ، هذه حياتنا ، سنتزوج الليلة ولتهدأ نفوسهم وقتما تشاء .

وراحت ترمقه بعيون قلقة ، فقال لها :

ــ اطمئنى ، جهزت كل شيء ، معى رقم تليفون المأذون ، وهو ينتظر منى مكالمة .

ونهض ليذهب إلى التليفون ، وقال قبل أن يتحرك :

ــ مأذون السيدة زينب .

وسار ، وسرح خيالها فيما قال ورن صدى صوته فى أذنيها : مأذون السيدة زينب ، لقد قرر أن يعيش معها فى بيتها حتى تهدأ نفوس أولاده ، واحتل رأسها سؤال : ترى أتليق شقتها به ؟ وكان الجواب مزيدا من الخوف والقلق .

وعاد إليها والبشر يتألق فى وجهه ويشع من عينيه ، وقال فى فرح :

ــ هيا إنه ينتظرنا .

وفى بيت المأذون المتواضع تم العقد وشهد عليه خادم زاوية وتابع المأذون الذى يحمل له العقود والأوراق ، ووزع شراب الورد على أهل بيت المأذون ، وأطلقت الخادم زغرودة وهى تقدم الشراب للعروسين طمعا فى أن يزيد شوقى المبلغ الذى سينفحها إياه !

وخرجا من البيت وفى حقيبتها صورة من العقد وفى حافظته صورة ، وراحا يسعيان سيرا على الأقدام إلى بيتها فى السد البرانى ، وكان مسرورا غاية السرور ، أشبه بمراهق مقدم على تجربة ، وكانت لا تزال قلقة ، تخشى الناس إذ يرونها صاعدة إلى بيتها فى رفقة رجل .

وأغلق باب الشقة عليهما ، كانت مؤثثة تأثيثا بسيطا لا تحف ولا لوحات ولا تماثيل ولا أوانى بللورية متناثرة هنا وهناك ، كانت بعيدة كل البعد عن

فخامة الفيللا التى يعيش فيها ، إلا أنها كانت فى عينه جميلة ، أجمل من كل مكان غارق فى الترف والزينة ، ففيها امرأة تقضى على الوحشة القاتلة التى كان يحياها ، وتمسح من قلبه صدأ الأيام والليالى التى عاشها وحيدا .

وذهبا إلى غرفة النوم ، ووقفت تتلفت فى حيرة ، فدنا منها وضمها إليه وقبلها ، وكان ذهنها يفكر فيما تقدمه إليه من ثياب إذا ما خلع بذلته ، و لم تجد إلا بينجامات ابنها ، فانطلقت وعادت إليه ببيجاما .

وارتداها فإذا بها لا تستر إلا جزءا من ذراعيه وثلاثة أرباع ساقيه ، فلم تستطع أن تكتم ابتسامتها ، وإذا بالابتسامة تنقلب إلى ضحكة ، فيهرع إليها سعيدا ، ويضمها بين ذراعيه ، ويلثمها فى كل مكان تقع عليه شفتاه .

ومر الوقت سريعا ، وقبل الفجر نامت عفاف ، فراح يمرر يده على شعرها وهو راضى النفس منشرح الفؤاد ، واستمر ينظر إليها فى وجد حتى أذن المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر ، فنهض وارتدى ثيابه ، ومال عليها وطبع على خدها قبلة ثم انصرف .

ووصل إلى الفيللا وقد لاحت تباشير الصباح ، وسار يسترق الخطا ، وفتح الباب الداخلى فى رفق ، وقبل أن يغلقه سمع نباح كلب ففزع ، ولكن سرعان ما عاد إلى هدوئه ، وأغلق الباب خلفه ، وراح يصعد فى الدرج فى حرص .

ووضع المفتاح فى ثقب باب غرفته وقبل أن يديره سمع صوت أحمد يقول فى إنكار :

ـــ بابا ! أين كنت ؟

فالتفت مفزوعا وقال :

ـــ أحمد ؟ آه .. استيقظت مبكرا فخرجت أصلى الفجر فى الجامع .. يا سلام ! ما أجمل صلاة الفجر .. نور .. روحانية .. كنت محروما من هذا النور

هذه الروحانية .

فقال له أحمد مصدقا :

— وأين صليت ؟

— فى مسجد السيدة زينب .

وفتح الباب ودخل ، وأحمد ينظر إليه فى بلاهة ثم قال :

— بابا . عندما تصلى الفجر ادع الله لى بالنجاح .

— إن شاء الله .

وأغلق الباب خلفه ، وارتمى فى فراشه وراح يزفر فى راحة واطمئنان .

١٣

حاولت نادية أن تنهمك فى عملها دون جدوى ، عجزت عن أن تركز كل حواسها فيه حتى إنها جرحت يدها أكثر من مرة ، كانت تفكر فيما كان من عماد ، لقد مضى يومان دون أن يأتى لرؤيتها أو يسأل عنها ، وما كان يمر يوم دون أن تراه أو تتحدث معه فى التليفون أوقاتا طويلة تمر كمر السحاب .

ودست المجس تقيس الفراغ بين قطعتين ستركب كل منهما فى الأخرى ، وشردت عما كانت تفعل ، وأخرجت المجس دون أن تقرأ دلالته وهى ساهمة تنظر إلى لا شيء ، غائبة عن كل ما حولها بما يدور فى رأسها .

وفطنت إلى اضطرابها وإلى تشتت أفكارها ، فألقت كل ما فى يدها فى ضيق وغادرت الجراج ، وانطلقت صوب الفيللا ومرت بسيدة وهى تطعم الكتاكيت فى الحديقة الخارجية فقالت لها :

— ألم يطلبنى أحد فى التليفون ؟

فقالت سيدة وهى منهمكة فى مراقبة الكتاكيت :

ـــ لا يا ستى .

ثم قبضت على ديك صغير ورفعته فى يدها برفق واتجهت به إلى نادية وهى تقول :

ـــ انظرى . اسم النبى حارسه ابن شهرين .. أتصدقين ؟

ثم قالت فى فخر :

ـــ تربية يدى !

وتحركت نادية لتدخل ، ونظرت سيدة إلى الكتاكيت وقالت :

ـــ والله لأبخركم الليلة .. من عينى .. لا يحسد المال إلا صاحبه .

وغابت نادية فى الفيللا ، وذهبت إلى التليفون وأخذت تنظر إليه فى لهفة ، ومدت يدها أكثر من مرة ورفعت السماعة ووضعت أصبعها فى ثقب من ثقوب القرص ، وقبل أن تديره كانت تعيد السماعة إلى مكانها وهى تزفر فى ضيق ، كان يعز عليها أن تكون البادئة بطلبه بعد أن رفض يد الصداقة التى مدتها إليه .

وارتمت فى مقعد قريب ، وراحت تتخلل بأصابعها شعرها وترنو إلى السقف وعقلها فى حركة دائبة ، ونظرت إلى التليفون مرات كأنما كانت تتوسل إليه أن يخرج عن صمته الذى أرهق أعصابها .

ونهضت تقطع المكان صاعدة هابطة ، وكانت ترصد التليفون فى ذهابها وجيئتها . وتسرب الملل إلى روحها ، وأجهدها السأم ، واستشعرت رغبة فى أن تبكى ، ليت أحمد كان فى غرفته لتذهب إليه وتقضى على هذه الوحدة القاسية التى لا تطيقها ، ولكنه خرج فى البكرة ليؤدى امتحانه .

ورن جرس التليفون فجأة فانتفضت فى فزع ، واستشعرت رنينه فى أعمق

أعماقها ، وهرعت إليه ورفعت السماعة وقالت فى لهفة :

ـــ آلو .

وجمعت شتات نفسها وإذا بصوت أبيها يأتى من الطرف الآخر قائلا :

ـــ نادية ! أنا آسف لن آتى للغداء ، وصلتنى الآن دعوة من الوزير لتناول الغداء مع وفد رجال الاقتصاد الألمان .

ـــ وهل ستخرج الليلة ؟

ـــ سأعود متأخرا لأن الغرفة التجارية دعت الوفد للعشاء فى المقطم . السلام عليكم .

ـــ وعليكم السلام .

ووضع شوق السماعة وراح يقلب الدعوتين بين يديه ، ثم ضغط جرسا قريبا منه فأقبلت السكرتيرة ، فدفع إليها بالدعوتين وقال :

ـــ أرجو أن تعتذرى عن الدعوتين ، وبعد الاعتذار آتينى بهما .

لم يكن فى حاجة إلى أن يختلق المعاذير للغياب عن البيت ، فما أكثر الأسباب التى تدعوه للغياب ، بيد أنه قرر أن يستغل هذه الأسباب ليذهب إلى بيته الجديد بعد أن يعتذر عن الاحتفالات والدعوات والاجتماعات واللجان وما أكثرها وما أيسر أن يترك هذه الدعوات تحت بصر نادية ليستريح فؤادها !

وراحت نادية تصعد فى الدرج وهى مطرقة ، وقد دب الخمول فى أوصالها ونزل الضيق بصدرها ، ودخلت غرفتها وارتمت فوق سريرها وتناولت كتابا وراحت تقرأ فيه ، و لم تفقه مما تقرأ شيئا فطوحت الكتاب وأخفت وجهها براحتيها .

ومر الوقت وهى تتململ فى رقدتها ، وتدور فى الفراش دورات ، وترفع الوسادة من تحت رأسها مرة وتضمها إليها ثم تعيدها تحت رأسها مرة أخرى ،

وتصلح وضعها مرات ، وترفع رأسها وتعيده على الوسادة مرات ، كانت كل حركاتها تنطق بالضيق والسأم والضياع .

ومس أذنيها رنين التليفون ، فقفزت من سريرها وخرجت من غرفتها كالعاصفة وهبطت فى الدرج قفزا ، وفى مثل لمح البصر كانت سماعة التليفون على أذنيها وقالت وهى تلهث :

ـــ آلو !

وإذا بصوت الدكتور يأتى من الطرف الآخر فيرسم على وجهها خيبة أمل ، إنه يعتذر عن عدم الحضور للغداء لأنه ذاهب لطبيب أسنان ، فهو يشكو ألما فى ضرسه .

وألقت سماعة التليفون فى ضيق ، وارتمت فى أول مقعد قابلها منهارة يائسة ، وعادت فريسة لأفكارها ووحدتها وسأمها ، واستشعرت كأنما تتنفس من ثقب إبرة ، فمررت يدها على عنقها ، ثم قامت لتذهب إلى سيدة لتفر من الفراغ الذى كاد يزهق روحها .

واقتربت من غرفة الاستقبال ، وسمعت سيدة تتحدث بصوت عال ، ترى مع من تتحدث وقد خرج الخادم لقضاء بعض حاجات البيت و لم يعد ؟ وظهر التساؤل على وجهها ، واقتربت دون أن تحدث صوتا ، ومدت بصرها ونظرت فرأت سيدة واقفة تحت صورة الأم الراحلة وقد رفعت عينيها إليها وراحت تناجيها قائلة :

ـــ البيت خرب من بعدك يا ستى ، لم يعد أحد يهتم به ، الغرف فوضى .. المواعيد فوضى .. والخزين انتهى .. والمفاتيح بعثرت .. أين ترتيبك ؟! لم يعد شىء فى هذا البيت على عهدك به إلا الكتاكيت ، فأنا الوحيدة فى هذا البيت الباقية على عهدك ، وإن ينسوك كلهم فلن أنساك أبدا ، فأنا وحدى التى

تيتمت بعدك ، لم يعد أحد يهتم بى كما كنت تهتمين بى . لا أحد يكلمنى ولا أحد يسأل عنى ، ولولا أن روحك معى لانفجرت جنباتى .

وتعمدت نادية أن تحدث صوتا وهى تتقدم ، فالتفتت سيدة وقالت فى دهش :

ـــ ست نادية !

فقالت نادية لتفر من وحدتها وتستأنس بحديث سيدة ، وقلما كانت تقف معها تكلمها فما كان الحديث بينهما يزيد على إصدار الأوامر المقتضبة وتلبيتها :

ـــ ماذا تفعلين ؟

ـــ أشكو إلى ستى همومى .

فرفعت نادية عينيها إلى صورة أمها وقالت :

ـــ الله يرحمها . ماتت و لم تعد تسمعك .

فقالت سيدة فى حماس :

ـــ لا يا ست نادية ، إنها تسمعنا ، إنها معنا الآن . إننى أكلمها كل يوم ، وكثيرا ما أسألها فى أثناء الطبيخ عن مقدار الملح أو الفلفل الذى أضعه فى الطعام .

وأشارت إلى نحرها وقالت :

ـــ وفى كل مرة أسألها عن شىء أسمع إجابتها هنا .

فقالت نادية فى رفق :

ـــ الموتى لا يتكلمون يا سيدة .

ـــ إنهم يعيشون معنا يا ست نادية ، ويتحدثون إلينا ، ولكننا نحن الذين نصم آذاننا عنهم ، ولو فتحنا لهم قلوبنا لسمعناهم . إنى أسمع ستى كل يوم منذ

أن تركتنا، ولما يشكل عليّ أمر تزورنى فى نومى وتحدثنى حديثا أفهمه . رأيتها أول أمس محلولة الشعر غزيرة الدمع ترتدى السواد ، سألتها عما بها فأشاحت بوجهها عنى و لم تكلمنى ، فبكيت وقمت من نومى فوجدت دموعى تغسل خدى . إنى منذ ذلك الحلم منقبضة لا أدرى سبب حزنها .

ورفعت سيدة رأسها إلى السماء وقالت :

ـــ اللهم سترك .

وراحت نادية تفكر فيما قالت سيدة ، تُرى أسمعت أن أباها فكر فى الزواج فاختلقت هذه الرؤيا أم أنها رأتها حقا ، وزاد فى حيرتها قول سيدة :

ـــ الميت يدرى قبل الحي يا ست نادية .

أكانت تقرأ أفكارها ؟ إنها سمعت أن أجهزة الاستقبال فى بعض الناس قوية ، أيكون ذلك القول حقيقة واقعة ؟! وسخرت من هذه الأفكار ولكنها أحست راحة ، و لم تعد وحيدة وتلاشى إحساسها بالضياع للحظات :

والتفتت سيدة إليها وقالت :

ـــ عن إذنك يا ست . الحلة على النار .

ـــ وما الذى جاء بك إلى هنا ؟

ـــ جئت أسأل ستى أنطبخ أرزا أم مكرونة ؟

ـــ وماذا قالت ؟

ـــ مكرونة لأن ست نادية تحبها . إنها لا تنساك أبدا ، أنت روحها .

وربتت سيدة على ظهر نادية فى حنان وانصرفت ، وبقيت نادية واقفة فى ذهول وقد انفعلت بذلك الحديث الغامض الذى مس قلبها على الرغم منها .

وغابت سيدة عن عينيها ، فالتفتت إلى صورة أمها وأرهفت السمع ، وظلت صامتة لحظات بيد أنها لم تسمع شيئا ، فهزت كتفيها فى استخفاف

وانصرفت عائدة .

ووقعت عيناها على التليفون فانتشر فى جوفها القلق واللهفة على سماع صوت عماد ، وسارت مسلوبة الإرادة إليه ، ورفعت السماعة ووقفت مترددة برهة ، ولاح على وجهها كأنما التمعت فى ذهنها فكرة استراحت لها ، فراحت تدير قرص التليفون ، ثم قالت :

ـــ آلو ! مجدى . أنا نادية .

ـــ أهلا نادية . كيف حالك وكيف حال الدكتور وبابا وأحمد ؟

ـــ بخير . أحمد بدأ امتحانه اليوم .

ـــ ربنا معه .

ـــ مجدى . أرجو أن تمر علىّ اليوم ، أريد أن أحدثك فى موضوع هام .

واضطرب مجدى و لم يستطع أن يصبر ، فقال فى لهفة :

ـــ أى موضوع ؟

ـــ سوء تفاهم بينى وبين عماد .

فقال دون أن يفقد حماسه وإن انقبض قلبه على الرغم منه ، فما كان له عليه سلطان وإن جاهد لترويضه والقضاء على ضراوته وكتم أنفاس حنينه .

ـــ ومتى أمر عليك ؟

ـــ فى أى وقت تشاء .

ـــ الساعة الخامسة ؟

ـــ لا بأس .

ووضع سماعة التليفون وظل يرنو إليها فى وجد ، وبحركة لا شعورية مد يده فى جيبه الداخلى وأخرج منه صورة له ولنادية والدكتور وراح يديم النظر إليها فى حب وهيام ، وشرد بذهنه ، وإذا بمشاعر الحرمان تتحول إلى أفكار ، فراح

يترنم بأبيات من الشعر وهو غائب فى انفعالاته وإحساساته عن الوجود .

وراح الوقت يمر ونادية تتمدد فى فراشها وما تلبث أن تنهض وتهبط إلى الطبقة الأولى تحادث سيدة ، وسرعان ما تعود إلى حجرتها تحاول أن تقرأ فى كتاب من الكتب القريبة من سريرها فتشرد وتتشتت أفكارها ، تفكر فى القاطرة التى تصنعها مرة ، وفى عماد مرة ، وفى مجدى مرة ، وفى أبيها مرات ، وفى الدكتور مرة ، ولم يخطر لها أحمد على بال .

وسمعت وقع أقدام فهرعت إلى رأس السلم فى لهفة وانشراح ، فستجد من تحادثه وينتشلها من وحدتها ، ووقعت عيناها على أخيها فقالت فى راحة :

ــ أحمد !

وخفت إليه وراحت تحادثه :

ــ كيف حال الامتحان ؟

ــ إذا سار كله على وتيرة واحدة فأنا ضامن النجاح .

وجلست على طرف سرير الدكتور ، وراح أحمد يخلع ثيابه وقالت له :

ــ أظن أنك جائع ؟

ــ أكاد أموت من الجوع ، لن أستطيع أن أنتظر أبى .

ــ لن يتغدى معنا .

فقال أحمد فى لهفة :

ــ أعاد يلعب بذيله ؟

فضحكت نادية وقالت :

ــ اطمئن . إنه مشغول مع الوفد الألمانى .

واستشعر ندما لأنه أساء الظن بأبيه ، وأراد أن يذكر عنه شيئا طيبا يمسح به تلك الإساءة فقال :

— من كان يصدق أن أبى يخرج فى البكرة ليصلى الفجر . وأين ؟ فى السيدة زينب !

— ومتى كان ذلك ؟

— أول أمس .

فنظرت إلى السقف تتذكر ثم قالت :

— آه . كان لا بد أن يستيقظ مبكرا ، فقد دخل غرفته بعد الغداء وظل بها لم يغادرها .

والتفتت إلى أحمد وقالت :

— أنا مرتاحة لأن أبى أصبح يصلى كل الأوقات .

— ولماذا لا تصلين ؟

— سأصلى لما أصل إلى مثل سنه !

وارتدى أحمد بيجامته فقالت له وهى تنهض :

— هيا لنتغدى .

— ألا ننتظر الدكتور ؟

— كثرت معاذيره ، قال إنه لن يتغدى معنا لأنه ذاهب إلى طبيب أسنان ، من يدرى أين يذهب .

فقال أحمد وهو يضرب كفا على كف فى استغراب :

— طبيب أسنان يذهب إلى طبيب أسنان ؟ الدكتور لا يعرف كيف يكذب . ألم يجد حجة أخرى معقولة يبرر بها غيابه ؟

وقبل أن يغادرا الغرفة دخل عليهما الدكتور وقد أسند خده بكفه ، وسار وهو ساهم لا ينبس بكلمة ، فالتفتا إليه فى دهش ، وإذا به يتجه إلى سريره ويجلس عليه وهو مغرق فى الصمت ، فخفت إليه نادية وقالت له :

ـــ محمد . ما بك ؟

فنظر إليها فى انكسار وقال فى نبرة حزينة :

ـــ ذهبت إلى طبيب الأسنان ، وبعد أن كشف على أسنانى قرر خلع هذا الضرس .

فقال له أحمد فى استخفاف :

ـــ أكل هذا الحزن من أجل ضرس ؟ كان الله فى عون الناس الذين تخلع أسنانهم وضروسهم فى كل لحظة دون شفقة !

فقال الدكتور فى خوف :

ـــ أنا أعرف مضاعفات خلع الضرس ، فقد ينقطع شريان ويحدث نزيف ، قد يقرر الدكتور إعطائى حقنة بنسلين وما أكثر الذين ماتوا من البنسلين .

واقتربت نادية منه وقالت :

ـــ ما رأيك فى أن أخلعه لك ؟

فمد يده ليمنعها ، كأنما كانت قادرة حقا على فعل ذلك ، وهو يقول :

ـــ لا . لا . لا يا نادية .

فقالت وهى تبتسم :

ـــ قم لنتغدى معنا .

فقال فى يأس :

ـــ لن آكل ولن أشرب قبل أن أطمئن على خلع ضرسى .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ لن أذهب إلى الطبيب وحدى ، لا بد أن يذهب معى أحد .

ونظر إلى أحمد فى استعطاف ، فقال له أحمد :

— لا أستطيع . عندى امتحان .

فقالت له نادية وهى تربت على صدرها :

— اطمئن ستذهب مع ماما .

وأفزعه كلامها وكره هذه الدعابة وتشاءم ، تُرى هل القدر هو الذى أنطقها بهذا القول الخطير دون أن تدرى ؟ أكتب، عليه أن يموت حقا ؟أن يلحق بأمه ؟ وأشاح بوجهه عنها ؟ وتمدد فى سريره بملابسه وهو يئن ويقول :

— آه يا ضرسى .

ولم يكن ضرسه يؤلمه فى تلك اللحظة مثلما كانت مخاوفه تسومه سوط عذابها !

وانطلق أحمد ونادية إلى غرفة السفرة وتناولا طعامهما ثم عادا إلى الدكتور وراحا يركبانه بدعاباتهما حتى غفا الدكتور وارتفع شخيره ، ففرت نادية من الغرفة وهى تقول لأحمد :

— هذا أنسب وقت لتراجع المقررات التى ستمتحن فيها غدا .

وشد أحمد شعره فى غيظ ، وارتمى فى السرير وهو يخفى أذنيه بالوسادة .

وأشرفت الساعة على الخامسة ، فهبطت نادية إلى غرفة الاستقبال تنتظر مجدى ، وما مرت لحظات حتى كان مجدى أمامها يحييها ، وأشارت إلى مقعد قريب منها وقالت :

— تفضل .

وقال مجدى وهو يجلس :

— إنى اتصلت بعماد وسمعت منه كل الموضوع ، وهو غاضب وله حق أن يغضب .

وضايقها أن يقرر من فوره أن عماد على حق ، فمعنى هذا فى تقديرها أنها،

أخطأت ، وهى لا تحب أن تُتهم بارتكاب أى خطأ ، فهى على الدوام راضية عن كل تصرفاتها ، تعتقد فى قرارة نفسها أنها أعقل من كل من حولها وأذكى ، لذلك قالت فى حدة :

ـــ ومن أين استمد هذا الحق ؟

وفطن مجدى إلى رنة الغضب فى نبرات صوتها ، وأحس كبرياءها تتحرك ، وكان قادرا على أن يقرأ دخيلة نفسها كما يقرأ كتابا منشورا ، فقرر أن يرضى غرورها وكبرياءها فقال :

ـــ من حبه لك . إنه يحبك . يهواك . لا حياة له بدونك .

فقالت فى انفعال :

ـــ قلت له إنى قررت ألا أتزوج ، وعرضت عليه صداقتى .

فقال فى أسى :

ـــ لا يقبل الصداقة إلا من فقد الأمل ، أما هو فلا يزال يرجو أن تكونى له ، له وحده ، بكل شعورك .. بكل وجدانك .. بكل كيانك .. ومن كان مثله فلن يقبل دون ذلك .. كل شىء أو لا شىء .

وصمتت وأطرقت ولاح فى وجهها الانفعال فقال لها :

ـــ اتخذت هذا القرار فى لحظة من لحظات الغضب ، بيد أن الغضب لن يلبث أن يتلاشى كما يتلاشى الدخان ، قرارك يا نادية لا يسنده منطق ولا عقل ، من يصدق أن فتاة ناضجة مثلك ، جميلة ، جذابة ، تستطيع أن تعيش بلا زواج .

وضايقها أن يسفه آرائها فقالت فى حدة :

ـــ إنى قررت بعد أن فكرت .

وراحت تتحدث فى انفعال وهو ينظر إليها مأخوذا لا يسمع شيئا مما

تقول ، كان مسحورا بفتنتها ،بثورتها، بانفعالاتها ، بحدتها . ليته يستطيع أن يضمها إليه ! وأحنقته أفكاره التى كانت تنثال على رأسه ، وغضب على نفسه لأنه أساء السفارة التى قام بها . كان على يقين من أن كلامه الذى قاله سيحرك غضبها ويجعلها تتمسك برأيها وإن كان خطأً ، فهو يعلم أنها عنيدة تتشبث برأيها ولا تتنازل عنه حتى تبرهن على صدقه ، وتؤكد صواب أفكارها . وكشف نفسه أنه تعمد إثارتها ليبعدها عن عماد ، ليؤجج نار الفراق وإن كان ظاهر حديثه يقطر مرارة . إنه حنث بوعده لنفسه أن يدع نادية لعماد وألا يفسد يوما ما بينهما ، بل يصلحه إذا ما دب الشقاق أو وقع ما يعكر صفو علاقاتهما ، وتكتم صوت ضميره .

وأفاق على صوتها وهى تقول :

— هذا قرارى الأخير ، أن يقبل عماد صداقتى أو لا شىء .

— نادية أرجوك ، لا تحطمى كبرياءه .

— أوَ لم يحطم كبريائى لما مددت له يدى وتركها دون أن يصافحها ؟!

— نادية .. نادية ..

وأحسّ وهو يناديها أن شيئا لذيذا يمس شغاف قلبه ، ولو طاوع نفسه لظل يهتف باسمها وهو هائم فى سعادته . ولكنه شعر بانفعاله ، وبنظرة نادية المصوبة إليه ، فقال وهو ينهض ويمسكها من يدها :

— تعالى يا نادية كلميه فى التليفون . إنه ينتظر كلمة منك .

— لن أكلمه . لن أبدأ بحديثه أبدا ، فقد أهاننى ، وعليه أن يعتذر لى .

— نادية ، لا لزوم لهذا العناد ، تعالى .

فقالت فى انفعال :

— قلت لن أكلمه .

وهم بالانصراف ، وقبل أن يتحرك قال :

— إنى مسافر إلى الإسكندرية بعد غد . متى تسافرون ؟

— بعد أن ينتهى أحمد من الامتحان .

ومد يده مصافحا وقال :

— نراكم بخير .

— مع السلامة .

وانصرف وقد خرجت معه حتى الباب تودعه ، ثم عادت ومرت بالتليفون ورنت إلى رنوة طويلة ، ثم هزت كتفيها وخفت إلى غرفتها .

١٤

عاد شوقى إلى الفيللا بعد شروق الشمس ، وانسل فى خفة إلى غرفته دون أن يلحظ عودته أحد ، و لم يرتم فى فراشه فقد نام الليلة الماضية ملء جفونه ، بل سحب أكبر حقيبة عنده وراح يضع فيها ملابسه وهو يصفر فى مرح .

وراح يدور فى الغرفة ينقب عن أشياء ، وكان فى حركاته أشبه بمن يرقص وحده فى حلبة ، وسمع ركض أقدام هابطة ، ففتح بابه وخرج ينظر فألفى أحمد يهرول منطلقا إلى الامتحان ، فهتف فى انشراح :

— صباح الخير يا أحمد .

— صباح الخير يا بابا .

— ربنا يوفقك ويأخذ بيدك .

— متشكر يا بابا .

وخرجت نادية على أصواتهما وهى تتثاءب ، وقالت :

— صباح الخير .

فالتفت الأب إليها وقال :

— صباح النور يا نادية . آسف إن كنا أزعجناك .

— أبدا .

وسار إلى غرفته وهي إلى جواره ، ووقعت عيناها على الحقيبة المفتوحة وقد صفت فيها ملابسه ، فقالت في دهش :

— لم تقل إنك مسافر !

— ذاهب إلى الإسكندرية للتفتيش على فرع الشركة .

وأرد أن يطمئنها وأن يقضي على أي شك قد يساورها ، فقال لها :

— ما رأيك في أن تأتي معي ويلحق بك أحمد .

فشردت ببصرها لحظة خفق فيها قلبه خوفا ، فلو وافقت فستنقض غزله وتقوض كل تدبيره ، بيد أنها التفتت إليه وقالت :

— سأسافر مع أحمد .

وسكنت الطمأنينة قلبه وانشرح صدره ، ولكنه قال متظاهرا بالاستسلام :

— لم تعد رفقة الشيخ مثلي مسلية !

واستراحت نادية إلى اعترافه بأنه لم يعد شابا ، ولكنها قالت وهي تدنو منه وتعبث في كرفانته :

— اتفقت مع محمد أن أذهب معه إلى طبيب الأسنان .

— طبيب الأسنان !

— نعم . سيخلع ضرسه ، إنه يرتجف من الخوف .

فقال الأب مبتسما :

ـــ كان يغمى عليه لما يجرح أصبعه وينبثق الدم منه !

ـــ وكيف أصبح طبيبا ؟

ـــ لأنه لم يأبه بالدم المنبثق من الآخرين ، فقد حاول أكثر من مرة وهو صغير أن يذبح القطة .

وراح يغلق الحقيبة وأسرعت تعاونه وهى تقول :

ـــ ومتى تسافر ؟

ـــ الآن .

وضغط على جرس قريب فأسرع إليه الخادم ، فقالت له نادية :

ـــ ضع هذه الحقيبة فى السيارة .

وراحت تعاون أباها على ارتداء الجاكتة ، ثم هبطت معه إلى الجراج ، ورأى القطع المبعثرة التى صنعتها فقال لها :

ـــ متى تنتهين من هذه القاطرة ؟

ـــ هذا مرتبط بالمدة التى سنقضيها فى الإسكندرية .

ـــ سنبقى هناك حتى افتتاح الجامعة .

ـــ أوه ! هذا كثير . إنى صنعت نصفها ولو بقيت هنا شهرا واحدا لأنجزتها كلها .

فقال وهو يدخل السيارة :

ـــ لا داعى للعجلة ، ولا ترهقى نفسك . الوقت أمامك طويل .

وأدار السيارة وقبل أن يتحرك قال :

ـــ إلى اللقاء يا نادية .

ـــ مع السلامة يا بابا .

وانسابت السيارة وهى تتبعها بعينيها وفى نفسها سؤال : أأخطأت لما



تركته يسافر وحده ؟ إنه فى حاجة إلى رعاية ، أما كان الواجب يقضى أن تسافر معه ؟

وقفزت إلى رأسها فكرة استراح لها ضميرها ، إن مجدى سيسافر غدا إلى هناك ، وستطلب منه أن يبقى مع أبيها ولا يتركه وحده !.

وغابت السيارة عن عينيها بيد أن شيئا ما أثار عجبها ، إنه لم ينطلق إلى الطريق الصحراوى ولكنه سار فى طريق الجيزة . لعله فضل أن يسافر بالطريق الزراعي وحسنا فعل ، فلو تعطلت السيارة به فسيجد فى المدن الكثيرة التى يمر بها من يخف لنجدته .

وعادت إلى الفيللا ، وقبل أن تصل إلى بابها الداخلى سمعت صوت ولولة ..فذهبت إلى مبعث الصوت فألفت سيدة تعدد ، فقالت لها فى غضب :

ـــ سيدة !

ـــ العرسة . العرسة يا ستى خنقت عشرين كتكوتا ، أنا السبب . قلت سأبخر الكتاكيت من عينى ونسيت .

وهمت بأن تستأنف العديد ولكنها رأت الصرامة فى عينى نادية فسكتت ، وسارت نادية وذهبت إلى الدرج ، وقبل أن تصعد فيه عادت أدراجها واتجهت إلى حيث كانت صورة أمها ، ووقفت عندها وشخصت ببصرها إليها وهى تقول :

ـــ اطمئنى يا أمى . إنى سأرعاه .

وفى تلك اللحظة كان أبوها يفتح باب السيارة لتركب عفاف إلى جواره وينطلقا معا إلى الإسكندرية .

ورفعت نادية سماعة التليفون وقالت :

ـــ آلو . مجدى ؟ صباح الخير .

ـــ صباح النور يا نادية .

ـــ سافر أبى الآن وحده إلى الإسكندرية ، فأرجو عندما تسافر غدا أن تنزل معه ، ألا تتركه وحده .

ـــ إن شاء الله .

ـــ مع السلامة .

ووضعت سماعة التليفون وصعدت إلى حيث كان الدكتور فى فراشه يتأوه ، وجلست على طرف سريره وقالت :

ـــ كيف أصبحت ؟

ـــ لم أنم لحظة .

ووجدت مجموعة من الكتب الطبية إلى جواره فقالت له :

ـــ وما كل هذه الكتب ؟

ـــ مراجع فيها الآثار التى قد تترتب عن إهمال الطبيب فى خلع ضرس .

فقالت فى خبث :

ـــ آثار طيبة ؟

ـــ مخيفة ! مرعبة !

ومس أذنيه صوت عديد سيدة فقال فى فزع :

ـــ ما هذا ؟

ـــ سيدة تعدد لأن العرسة خنقت عشرين كتكوتا .

وانقبض واربد وجهه ، فقد تشاءم أن يكون أول ما يسمعه فى اليوم الذى سيخلع فيه ضرسه إزهاق عشرين روحا !

وقالت له نادية :

ـــ متى ستذهب إلى الطبيب ؟

ـــ يجب أن نكون عنده فى الساعة التاسعة .

فقامت نادية وهى تقول :

ـــ انهض فقد أزف الميعاد .

وتحرك فى فراشه وقال :

ـــ سأكلم عماد ليأتى ليوصلنا بسيارته .

فقالت فى لهفة :

ـــ لا . لا . لا داعى لتعطيله عن عمله ، سنستقل تاكسى .

ـــ هذا أفضل .

وغادرته وراحت ترتدى ثيابها وقد حنقت على نفسها وأخذت تلومها وتقرعها على تسرعها فى رفض فكرة أخيها ، فلو أنها تركته يدعوه لجاء عماد وقابلته وتحدثت معه وقضت على الجفاء الذى وقع بينهما دون أن تضطر إلى الاعتذار له .

أتعتذر له لو لج فى الخصام ؟ إنها تحبه والأيام القليلة التى بعد فيها عنها كشفت لها عن أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه ، فهو روحها ونبض قلبها ونور عينيها ، بيد أنها تفضل الموت على أن تعتذر لإنسان !

وركبا سيارة وانطلقت بهما إلى عيادة الطبيب ، وكانت أفكار السوء تنثال على رأس الدكتور فتفزعه ، وأراد أن يهرب منها بأن يندمج مع أخته فى حديث يستولى على مشاعره وينقذه من عذاب مخاوفه ، فقال لها :

ـــ نادية ! أريد أن أفضى إليك بسرى قبل أن أخلع ضرسى .

قالها كأنما يقول : قبل أن أموت ، حتى إن نادية لم تستطع أن تضحك وأعارته اهتمامها ، فقال :

ـــ عاهدتك يا نادية على ألا نتزوج أبدا حتى لا يعبث أحد بنا أو بذكرانا ،

أتذكرين ؟

فأرهفت حواسها وقالت فى اهتمام :

ــ نعم .

فقال وهو مطرق كأنما يعترف بذنب :

ــ إنى يا نادية لم أكن صادقا عندما عاهدتك على هذا ، لأنى كنت فى تلك اللحظة قررت أن أتزوج .

ــ ولماذا عاهدتنى ؟

ــ لأنك كنت فى نوبة من نوبات ثورتك فأردت أن أرضيك ، ولأن هذا العهد لا يمكن أن يفى به أحد ، فالحب يا نادية شىء خارج عن إرادتنا ، ينفذ إلى قلوبنا دون أن يستأذن منا ، ويرغمنا على أن نخضع له راضين مبتهجين ، الحب يا نادية شىء جميل .

فقالت فى حدة :

ــ كنت واثقة أنك لست أهلا لمثل هذا العهد ، ولا أحسب أن أحدا من الرجال أهل له .

ــ نادية ، لو ذقت طعم الحب ما نطق لسانك بهذا اللغو . الحب شىء عظيم يسمو على التفاهات والخلافات ، ولا يعرف الكراهية ولا الأحقاد : ويغفر كل أخطاء الحبيب ، لو أحبت أمى أبى حقا ، وعلمت بعد موتها أنه يريد أن يتزوج ، لما ساءها ذلك ولباركت خطاه !

ــ أهذا هو الحب ؟ هذا الخنوع . لو كان هذا هو الحب فلعنة الله عليه وعلى المحبين أجمعين .

وصمتت وراحت تفكر فيما بينها وبين عماد . إنها تحبه وتهفو إليه نفسها وتتمنى من كل قلبها أن يأتى إليها ، بيد أنها لن تبدأ بطلبه أبدا ، فإذا أصر على

العناد فلن تضعف ولن تلين .

وضايقها أن تتهمها نفسها بوهن الجبن فراح عقلها يعمل ، وإذا بصوت آخر يرن فى أعماقها : لو كان هو يحبك ذلك الحب العظيم لهرع إليك دون أن ينتظر منك اعتذارا ، ولصافح يد الصداقة التى مددتها إليه . ولكنه مثلك لا يعرف الخضوع ولا الخنوع ، ويل لى : تُرى من منا الذى سينحنى للآخر .. أنا واثقة من أنى لن أنحنى أبدا .. لن أخضع لإنسان ما حييت .

ورن فى أذنها صوت أخيها يقول :

— إذا أخذ الله بيدى بعد خلع ضرسى فسأتزوج من خفق بحبها قلبى . ليتنى أعيش معها ليلة واحدة قبل أن أموت !

— وتتزوج بعدك !

— وتفعل ما تريد .

ووقفت السيارة أمام عيادة الطبيب فعاد الخوف يحتل قلب الدكتور ، وهبطت نادية وهو يتلفت فى فزع ، وصعد فى الدرج الهوينى، وكان فى قرارة نفسه يتمنى لو أن نادية تسند بذراعها ظهره .

ودخل على الطبيب وهو ممتقع الوجه ، مرتجف القلب ، يستشعر غثيانا ، وجلس على أقرب مقعد فرمقه الطبيب وفى عينيه بسمة وقال له :

— كيف حالك اليوم ؟

— لم أنم يا دكتور .

— من الخوف .

— قرأت كل المراجع التى تحدث عن مضاعفات خلع الضرس .

فقال الطبيب فى خبث :

— بعضها يفضى إلى الموت .

فقال الدكتور محمد فى فزع :

ـــ أنا لم أستعمل البنسلين أبدا من قبل يا دكتور . لا تعطنيه مهما كانت الملابسات .

وجذبه الطبيب من يده وأجلسه على كرسى الفحص ،ورش الضرس ببنج موضعى ، ثم راح يملأ حقنة البنج والدكتور محمد يتبع يديه بعينين قلقتين . وقبل أن يغرز الطبيب الإبرة فى اللثة صرخ محمد ورفع يديه إلى فمه وأعاق عمل الطبيب ، فقال الطبيب لنادية :

ـــ أمسكى يديه وإذا تحرك فسأدعو الممرض ليكتفه .

وغرز الطبيب الإبرة فى لثته، وهو يصرخ ويتأوه وقشعر وجهه وتتألم كل حاسة من حواسه .

وسرى البنج فألقى محمد رأسه إلى الخلف وراح يزفر فى راحة ، انتهى الألم ولم يبق إلا خلع الضرس وهو أمر هين إذا لم تتهتك اللثة أو ينزف شريان من شرايينه !

وراح الطبيب يقول له :

ـــ أتذكر يوم الامتحان ساعة أن خلعت الضرس الوحيد الباقى فى فم شيخ فى السبعين . أتذكر ما فعلت به ؟

فقال محمد وهو شارد :

ـــ كان ضرسا ثابتا كالجبل .

ـــ سأفعل بك ما فعلته بالشيخ .

فنظر إليه محمد فى استعطاف وقال :

ـــ أرجوك .

وقبض الطبيب بكماشة على الضرس ، وقبل أن يفعل شيئا صرخ محمد ،

ولم يأبه به الطبيب وراح يهز الضرس هزا حتى خلعه وقدمه إلى محمد الذى كان يرتجف فرقا ، حتى إن نادية أشفقت عليه وقالت له مداعبة :

ـــ مبارك ! تستطيع أن تتزوج .

١٥

كان شوقى يرتدى قميصا أسبور وبنطلونا قصيرا ، وكان يعاون عفاف على تجهيز طعام الإفطار الذى سيتناولانه على شاطئ البحر ، وكان يداعبها فى خفة حتى إنها كانت تضحك مسرورة .

وكانت عفاف منشرحة الصدر تغمرها سعادة ، وما كان يكدر صفوها إلا ما بدر منه فى أمسه ، كان يسير بعيدا عنها ، ويجلس بعيدا عنها ، ويبادلها النظرات من بعيد ، كان يخشى أن يراها أحد معه كأنما لم تعد زوجه ، وساءها أن تتصرف أحيانا تصرف النساء المتسكعات على الشاطئ ، فتذهب إليه تلتمس منه أن يجود عليها بجرعة ماء مثلج ، أو أن يعيرها فوطة أو مظلة أو أن يعود معها إلى البيت .

ضبطهما مرة حارس الشاطئ وهما يختلسان النظر ويغمز كل منهما للآخر بعينه ، ودفعه حب الفضول لمراقبتهما من بعيد ، وكانت تحس به فيضيق صدرها ويسرى فيها أسى ، وقد بلغ أساها غايته لما دنا حارس الشاطئ منها ونظر إليها نظرة خاصة وابتسم مؤكدا بنظراته وابتسامته أنه كشف أمرها وقُضى الأمر ، وعرف حقيقة معدنها .

وعزمت فى قرارة نفسها أن تظهر إلى جواره وأن تجلس معه فى الكابينة وأن تعلن للدنيا لكنها أنها أصبحت زوجه ، فأبغض شىء إلى نفسها أن تواجه

نظرات الريبة الحارة فى العيون . ليتها تقابل حارس الشاطئ وتنبئه الحقيقة .

ودق الجرس ، وقبل أن يتحرك شوقى كانت قد أسرعت إلى الباب وفتحته ونظرت ، فألفت شابا ينظر إليها فى دهشة وريبة ، ويتلفت حوله كأنما ينكر شيئا أو يخشى أن يكون ضل عن الشقة التى يقصدها ، ووقفت برهة تنظر إليه ، فقال فى ارتباك :

ــ شوقى بك موجود ؟

فقالت وهى تفسح له الطريق :

ــ تفضل .

فقال فى تلعثم :

ــ متشكر .

ولم يتحرك ، فتركته جامدا فى مكانه وذهبت إلى المطبخ لتدعو زوجها لمقابلة الشاب الذى يسأل عنه ، وراح ذهن مجدى يعمل فى سرعة ، فلما بعدت عن عينيه رأى أن خير ما يفعله أن ينصرف قبل أن يأتى شوقى بك ، فراح يهبط فى الدرج قفزا حتى اندس فى جموع الناس المتدفقة فى الطريق .

وخرج شوقى فلم يجد أحدا ، ومد عينيه فى بئر السلم فإذا فراغ وسكون ، فهز كتفيه فى استخفاف ودخل وأغلق الباب خلفه وقال :

ــ لعله عابث أراد أن يداعبنا دعابة سمجة .

فقالت عفاف فى تأكيد :

ــ لا . ليس فيه عبث ، وجهه ينطق بالرزانة والجد .

ــ وما شكله ؟

ــ شاب طويل وسيم .

فقال مداعبا :

— فى مثل سنى ، وفى مثل وسامتى ؟

فقالت وهى تضحك :

— هيهات ! أين هو منك ؟ أنت ألطف منه بكثير .

وقبلته قبلة خاطفة ، فلف ذراعه حولها وضمها إليه وقال :

— من منا سيخرج أولا ؟

— أنت .

— خذى طعام إفطارك وسآخذ طعامى معى .

— دع لى « الترمس » .

— خذيه .

وانصرف بعد أن قبلها ، وانصرفت بعده وقد سولت نفسها أمرا .

وجلس أمام الكابينة ، وراح حارس الشاطئ يخرج منها النضد ومنفضة السجاير وبعض الوسائد ، وكان شوقى مشغولا عنه بمراقبة الجهة التى ستأتى منها .

ولمحها مقبلة فتبسم راضيا ، ورآها تتجه نحوه فظن أنها تبالغ فى مداعبته فاتسعت ابتسامته ، وإذا بها أصبحت على خطوتين منه .. لا بد أنها ستنصرف عن طريقه فجأة ، بيد أنها مدت يدها وسحبت كرسيا وجلست إلى جواره وهى تقول :

— صباح الخير !

والتفت حارس الشاطئ إليها وهو مأخوذ ، لم يكن يصدق أنّ تبلغ الجرأة بامرأة أن تجلس إلى رجل دون أن يدعوها إلا أن تكون من الساقطات ، ولكن ما بال شوقى بك الرجل الطيب لا ينهرها ولا يطردها ؟ لعله انحرف بعد موت زوجه .

وتفرس حارس الشاطئ فى وجهها ، لم يجدها طائشة ولا غريرة ، فقد جاوزت سن الشباب ، فلعل الحاجة هى التى تدفعها لسلوك هذا الطريق ، و لم يحس الحارس كراهية لها ، بل تحركت عوامل الشفقة فى نفسه حتى إنه لم يجد غضاضة فى أن يعاونها لتحقق بعض مآربها ، فشوقى بكل رجل غنى ، ولا بأس من أن تنال هذه البائسة بعض أمواله ، ويا حبذا لو أنه شاركها فيها !

ونظر فى عينيها وابتسم مشجعا ، و لم تغب نظراته عن فطنتها فهمت بأن تدعوه وأن تصرخ فى وجهه بأن الرجل الذى تجلس إلى جواره زوجها ، ولكنها استسخفت الفكرة ، ودنت بكرسيها من شوقى لتؤكد معناها ، وإذا بالحارس يومئ برأسه أن نعم وتنفرج شفتاه عن ابتسامة ، كان راضيا عن ذكائها ، فقد استجابت إلى وصية عينيه وبدأت تطوقه بشباكها .

وتمدد شوقى فى الكرسى الطويل وقد استسلم للواقع ، فلن يستطيع أن يخفى زواجة طويلا ، وكان لا بد أن ينكشف أمره يوما فمن الخير أن يواجه العاصفة من أن يعيش قلقا خشية هبوبها .

وجعلت عفاف ترقب الجالسين تحت المظلات ، والخارجين من البحر والمندفعين إليه ، والغادين على الشاطئ والرائحين . وقد هدأت نفسها واستراحت لما لم يعترض شوقى على ظهورها معه أو تبدو منه أية بادرة استياء . كان الشىء الوحيد الذى يعكر صفوها حارس الشاطئ ونظراته !

ولمحت مجدى يسير من بعيد وهو يرمقها بنظرات متلصصة ، فقالت فجأة :

— شوقى ، انظر . إنه هناك .

— من ؟

— الشاب الذى جاء يسأل عنك فى الصباح :

— أين ؟

— بين المظلة المخططة والمظلة الحمراء ، إنه يسير هناك على الشاطئ .

وأشارت بأصبعها ، وأسرع بنظره حيث أشارت ، وراح يفر كل من هناك بعينيه ، ورآه فهتف :

— مجدى !

— من ؟!

— إنه صديق أولادى .

وقام واتجه إليه ، ولمحه مجدى مقبلا نحوه فراغ منه وهو يتلفت ، ورآه يوسع من خطوه ثم يهرول فى اتجاهه ، فتظاهر مجدى بأنه لم يره ، وأطلق ساقيه للريح كأنما كان يتدرب على سباق !

وعاد شوقى إلى الكابينة وهو يلهث ، وقال :

— للأسف لم ألحق به .

— وماذا كنت تريد أن تقول له ؟

— أن يقول لأولادى أنى تزوجت .

— ألم نتفق على أن نتريث حتى تهدأ النفوس ؟

— ليس هناك مبرر للانتظار ، لماذا أرعى إحساساتهم ولا يرعون إحساساتى ؟ لماذا أحقق رغباتهم ولا يتركونى أحقق رغباتى ؟ لماذا أطلق لهم حرياتهم ويحجرون على حريتى ؟ إنى لم أستشرهم ولم آخذ موافقتهم لما تزوجت أمهم ، فلماذا أهتم بموافقتهم الآن كل هذا الاهتمام ؟

إنى ضقت يا عفاف بحياة الكذب التى أحياها ، ما الذى يدعونى إلى التماس المعاذير كلما تأخرت عنهم ؟ لماذا أغادر فراشى فى الفجر وأعود إليهم وأنا أسير على أطراف أصابعى كاللصوص ؟ سألقى فى وجوههم بالحقيقة وليكن ما

يكون .

— لماذا تتعجل المتاعب ؟

— لنواجهها ونستريح .

كانت ترجو أن يعلن على الملأ أنها أصبحت زوجه ، وكانت غاية أمانيها أن يعترف بها أولاده ، بيد أنها لما وجدت أنها ستواجه العاصفة غشيتها موجة من الرهبة ، فمن يدرى ، قد يتكتل أولاده ويرغمونه على أن يطلقها .

ذاقت طعم الطمأنينة بعد أن تزوجته ، وخلفت وراءها أيام الجفاف وليالى الوحشة والسأم والدموع ، فلو فضلت بين أن تبقى معه فى الخفاء وبين أن ينبئ أولاده بزواجه منها ذلك الإخبار المحفوف بالأخطار ، المشحون بشتى الاحتمالات البغيضة لتخيرت أن يبقى زواجهما سرا ، لتدوم السعادة التى تعيش فيها .

ما الذى كان يدعوها إلى التشبث بموافقة أولاده على هذا الزواج ؟ كانت تريد أن تطمئن لمستقبلها قبل أن تخطو أية خطوة قد تحطم حياتها ، أما وقد تزوجت وأقدمت على المخاطرة فلماذا تهتم بموضوع اعتراف أبنائه بها ، أصبحت زوجه سواء اعترفوا بها أو ثاروا عليها ، ولكنهم وإن كانوا أعجز من أن ينكروا حقيقة قائمة إلا أنهم قادرون على أن يفصموا الرباط المقدس الذى عقد بينه وبينها ، ولو أثروا عليه أو أرغموه على أن يستكين لرغباتهم وتوسلاتهم وعبرات مآقيهم .

ترى لو أنه أصر على أن يستأذن ابنها قبل أن يتزوجها أكانت تجد فى نفسها الشجاعة أن تكتب له ، وإذا كتبت له أكان يبارك هذه الخطوة حتى لو تيقن أن فيها سعادتها ؟ إنها على يقين من أنه ما كان يوافق على ذلك الزواج ، وإن ثائرته كانت تثور ويتوعد ويهدد ولن يتورع أن يضربها بسوط عذاب ، بعد

كل ما تحملته فى سبيله وضحت به لتصونه من الهوان ، ترى أيقدر يوما أنها أفنت زهرة حياتها من أجله ، وأنها ما قبلت أن تتزوج إلا لتفر من وحدتها القاسية ومستقبلها المقيت ؟! ليت الأبناء يفهمون !

ودنت منه وقالت :

ــ شوقى ، لى عندك رجاء .

ونظر إليها واتسعت عيناه ، وأرهف السمع دون أن تتحرك شفتاه ، قالت :

ــ لا تخبر الأولاد بأمر زواجنا .

ــ لماذا ؟

ــ لأنهم لن يقدروا ظروفنا ، ولن نجنى إلا عداوتهم وبغضاء قلوبهم .

ــ لن نستطيع يا عفاف أن نخفى أمر زواجنا طويلا ، فإذا لم أحمل النبأ إلى أولادى فسيحمله مجدى إليهم .

ــ أنا واثقة من أن مجدى لن يقول شيئا ، فلو كان فى نيته أن يتحدث ما فر منك مرتين ، مرة فى الصباح عندما دعوته للدخول ، ومرة على الشاطئ لما رأيته وسعيت إليه .

ــ حتى إذا أمسك مجدى لسانه فما أكثر الذين سيهرعون إليهم بالنبأ .

ورمى ببصره على أكداس من الناس المنتشرين تحت المظلات على الرمال وقال :

ــ ترى كم من العيون تصوب إلينا الآن وتتساءل عن سر العلاقة التى بيننا ؟

ومر حارس الشاطئ بهما ، وتسكع لعله يسمع طرفا من الحديث يكشف ما بينهما ، بيد أن عفاف صوبت إليه نظرات غاضبة أحس وقعها فى نفسه ،

فوسع من خطوه وابتعد ، وإن عجز عن مقاومة تلك الرغبة التي كانت ترغمه على إدارة رأسه لينظر إليهما لعله يلمح حركة تفسر حقيقة العلاقة التي بينهما .

وقالت عفاف :

ـــ لو سمعوا الخبر من غيرنا أهون عليهم من أن يسمعوه من أفواهنا ، ستتاح لهم فرصة التفكير في الواقع الذي وجدوا أنفسهم أمامه فجأة ، حتى إذا ما حدثت المقابلة بيننا وبينهم تكون حدة الصدمة قد خفت .

فقال شوقي في إخلاص :

ـــ أريد أن أستقر ، أن تهدأ نفسي ، فأنا أمقت حياة الخداع والكذب .

ـــ تحمل من أجلي .

فقال وهو يهز رأسه :

ـــ أعدك ، وأنا كاره ، أني لن أخبر أولادي بهذا الأمر ، وإن كنت واثقا من أن الخبر سيصل إليهم قبل عودتنا .

ومدت يدها ووضعتها فوق يده وضغطت عليها وهي تقول :

ـــ شكرا .

ورأى حارس الشاطئ هذه الحركة فأشرق وجهه واتسعت عيناه ، وتمنى لو يرى حركة أخرى تكون أكثر دلالة وأفصح تعبيرا ليهنئ نفسه على فراسته التي لا تخيب أبدا .

وقام شوقي وأعاد الكرسي الذي يجلس عليه إلى الكابينة ، وراحت عفاف تعاونه على إدخال النضد والأشياء الأخرى ، ووقف حارس الشاطئ يرقب ما يجري في انتباه خشية أن تفوته حركة من يد ، أو غمزة من عين ، أو حكة من كتف ، أو لمسة من قدم .

وأغلق شوقي الكابينة وسار ، وانطلقت عفاف إلى جواره وكتفها تلمس

كتفه ، وما ينعكس على وجهيهما من انفعالات يدل على أن الحديث الدائر بينهما ناعم لذيذ .

ولم يستطع حارس الشاطئ أن يقاوم الرغبة الشرهة التي تملأ نفسه وتغريه بتقصى ما بينهما ، فسار خلفهما كالمأخوذ وهو يرصد حركاتهما من بعيد ، اجتازا طريق الكورنيش وانسابا فى طريق جانبى ، فأسرع يقتفى آثارهما ، ومد بصره ينظر فألفاهما يعرجان معا إلى بيت شوقى ، فهو يعرفه جيدا ، ويا طالما حمل إليه أصناف السمك ، وما أكثر ما أعطته المرحومة من نقود !

ورفت على شفتيه بسمة ، والتمعت عيناه غبطة ، وفرك يديه سرورا ، فقد وجد مادة يتحدث بها مع أصدقائه ، ويدلل بها على فراسته ، وأن نظرة واحدة من عينه الخبيرة كفيلة بأن تكشف المرأة الداعرة وإن تسترت فى ثياب الإحرام ، لم يستطع عقله المريض أن يتصور قيام علاقة بين شوقى وبينها إلا أن تكون علاقة عابرة فى غفلة من الأولاد !

١٦

ألقت نادية ذراع القاطرة وكانت تبرد بعض أطرافها فى ضيق ، فما كانت تستشعر الحماسة التى كانت تحسها كلما أقبلت على عملها ، كانت مشتتة الفكر بين قطيعة عماد وغيبة أبيها فى الإسكندرية دون أن يحاول أن يتصل بهم أو يكلف خاطره بأن يحدثهم بالتليفون .

مضى أكثر من أسبوع على سفر أبيها وقد قال إنه سيغيب بضعة أيام ، فما باله قد استمرأ الإسكندرية وطالت إقامته فيها ، ترى هل آنس مجدى وحدته وشجعه وجوده على أن يطيل مكثه هناك ؟ حقا إن مجدى لطيف لا يسأم المرء

عشرته .

وانقضى على ما كان بينها وبين عماد عشرة أيام جافة قاسية ، لم يأت عماد فيها إلى بيتهم ، ولم يتحدث إليهم فى التليفون ، وكان وقع ذلك قاسيا على نفسها ، كانت على ثقة من أن عماد لا يحتمل الحياة إذا غابت عنه ، وأنه طوع بنانها ، وأنه وديع كحمل لا يعرف كيف يثور ولا يغضب ، وإذا به عنيد ، يلج فى الخصام ، قادر على قهر عواطفه .

إنها تسرعت يوم اتخذت ذلك القرار الطائش الذى يقضى عليها بأن تعيش كل حياتها عانسا ، إنها لم تحتمل بعد عماد عنها عشرة أيام ، فكيف خطر على بالها أن تعيش العمر كله محرومة من العطف والحنان ؟ كان الدكتور على حق لما قال إنه قرار صبيانى لم يخطر على باله يوما أن يتمسك به .

إنها جرحت شعور عماد ، وكان مجدى على صواب لما التمس منها أن تتصل به ، وأن تدعوه لزيارتها ، وأن تنقى الجو من ذلك العبث الذى شاب العلاقة الطيبة التى كانت بينهما .

وتمنت لو أن عماد يمر عليها الساعة بسيارته ، آه لو فعل لما ترددت فى أن تهرع إليه وتركب إلى جواره وتنطلق معه إلى حيث يشاء ، فقد عرفت أنها بدونه ضائعة لا تساوى حياتها شيئا .

وذهبت إلى التليفون ورفعت سماعته وأدارت القرص ثلاث مرات ، وفجأة وضعت السماعة فى انفعال ، ثارت كرامتها وضايقها أن تكون هى التى تجثو خاضعة تحت قدميه ، لماذا لا يأتى أو يتكلم ليحفظ ماء وجهها ؟!

وراحت تغدو وتروح فى الردهة كنمرة ثائرة ، ودلفت إلى حيث كانت صورة أمها وصدرها زاخر بالانفعالات ، ورأسها يموج بالأفكار ، يتجاذبها حنينها وقسوتها ، وإذا بها ترفع بصرها إلى الصورة وتأخذ فى مخاطبتها لتنفس عن

المشاعر الثائرة بين جنباتها ، فقالت :

ـــ ماما ! إنى أحب عماد ، أهفو إليه ، تشتهيه نفسى ، تحن إليه روحى ، تهتف باسمه دقات قلبى ، تناديه أنفاسى ، تشتاق إليه عيناى ، ترهف أذناى لتبتهج بسماع صوته .

أسأت إليه يا ماما وأساء إلىّ ، وصفحت عن إساءته ، فلماذا لا يصفح عن إساءتى ؟ لماذا لا يكلمنى ؟ لو كان يحبنى لما احتمل قسوة الفراق كل هذه الأيام !

أكلمه أنا ؟ وعزة نفسى ؟ وكرامتى ؟ وكبريائى ؟ أنا فتاة يا أماه ولو تذللت الفتاة هانت ، ولو طلبته واعتذرت له فقد يكون فى ذلك القضاء على حبه ، فما أحسب الرجال يحبون المتذللات الخاضعات .

ومررت يدها على نحرها ، أحست أن كلاما يتراقص هناك ، قالت لها سيدة يوما إنها كلما تحدثت إلى صورة سيدتها وسألتها شيئا شعرت برودها تجرى عند نحرها ، إنها فى هذه اللحظة تحس نفس الإحساس ، فصوت أمها يوحى إليها أن تطلب من أحمد أن يتصل بعماد ، وأن يقول له إنهم مسافرون غدا إلى الإسكندرية ، وسيأتى عماد لتوديعهم فتتاح له فرصة المجىء دون أن تذل كبرياؤه ، وتتاح لها فرصة أن تلقاه دون أن تهون أو تتذلل .

ورضيت عن الفكرة وارتاح فؤادها ، بيد أنها راحت تفكر فى ذلك الصوت الذى أضاء لها طريقها أهو صوت أمها حقا أم صوت رغباتها ، إنها أطلقت لخيالها العنان قبل أن تقف أمام صورة أمها وتناجيها ، وفكرت ودبرت ولكنها لم تهتد إلى الحل السعيد إلا بعد أن هرعت إلى روح أمها تسألها عونها .

ولم يضايقها أنها باتت تؤمن بأوهام ، بل استشعرت شيئا من العزاء ، فإن كانت أمها قد ذهبت فقد بقيت لها روحها تستطيع أن تستلهمها وأن تشركها

فى أمرها .

وجرت نحو السلم الداخلى وراحت تصعد فيه قفزا ، ودخلت غرفة أحمد فألفت ملابسه مبعثرة ، وقد فتح حقيبة كبيرة وأخذ يدس فيها ملابسه دسا ، فتقدمت منه وهى تقول :

ــ دع هذه الحقيبة ، سأقوم بترتيبها ، والله لا أدرى ماذا ستفعل لو تخرجت وعينت فى بلد بعيد واضطررت إلى أن تعيش وحدك ؟ إنك لا تعرف كيف تسلق بيضة .

فقال وقد أطرق :

ــ سأضطر إلى أن أحنث بقسمى الذى أقسمته أمامك وأتزوج .

ثم تنهد وقال :

ــ الضرورات تبيح المحظورات !

وابتسمت نادية ، ومدت يدها تلتقط قميصا أبيض لتضعه فى الحقيبة وهى تلتفت إلى أخيها ، وإذا بأحمد يصيح وقد ارتسمت فى وجهه آيات الفزع والأسى :

ــ نادية ! نادية ! يا خسارة .

والتفتت نادية إلى القميص ، فألفت بصمات أصابعها طبعت على صدره فضحكت ، فقال لها أحمد فى عتاب :

ــ أهذا شىء يضحك ؟ والله لو اضطررت إلى أن أتزوج فلن أتزوج امرأة تعمل بيديها فى مصنع حتى لا تكون معدتى مستودعا للشحم وزيوت الآلات !

فقالت نادية وهى تمسح يديها فى صدرها :

ــ قليل من الزيت يصلح المعدة .

ودنت من أحمد وقالت له :

— إنى فى دهشة من أمر الدكتور ، لم أجده متحمسا للسفر مثل هذه السنة .

— يريد أن يودع عزوبيته ، أن يغرقها فى البحر .

فقالت وقد شردت ببصرها :

— ما أكثر الأشياء التى نزهق روحها بأيدينا ثم نترحم على أيامها !.

واستمرت تنظر من خلال النافذة إلى لا شىء ثم قالت :

— هل سيجد عماد وقتا يمضيه معنا فى الإسكندرية ؟

— عماد مشغول فى مكافحة الدودة ، لم نره منذ أكثر من عشرة أيام وما كان يغيب عنا يوما .

ما كان يدرى ما كان بينه وبين نادية ، رد احتجابه عنهم إلى انهماكه فى عمله ، وما دار بخلده أن سبب اختفائه تلك الجفوة التى وقعت بينه وبين أخته ، بسبب ذلك القسم الذى أقسمته فى لحظة من لحظات ضعفها التى تفقد فيها سيطرتها على نفسها وتترك ذاتها لقمة سائغة لغضبها ونزواتها !

وقالت له فى ضعف :

— ألا تقول له فى التليفون إنا مسافرون غدا ؟

— عندك حق . كيف فاتنى أن أسأل عنه طوال هذه المدة ؟

وترك أحمد ما كان يفعله وانطلق إلى التليفون ، ونادية فى أثره خافقة القلب تتلهف على ما ستتمخض عنه هذه المكالمة فهى بكل خلجة من خلجات نفسها تشتهى أن تراه . وأن تمحو من صدره إساءتها التى سددتها إليه دون ما ذنب جناه !

وقال أحمد فى اهتمام :

ــ آلو ! عماد !.

وخفق قلب نادية كجناح حمامة ، واضطرب نفسها ، واتسعت عيناها ، وأرهفت حواسها ! وأصاخت السمع لعلها تسمع صوت عماد الحبيب الآتى من الطرف الآخر ، ورن فى أذنيها صوت أحمد وهو يقول :

ــ أين أنت يا رجل ؟

آه أين أنت يا حبيبى ؟ أين أنت كل هذه الأيام وتلك الليالى ؟ كيف استطعت أن تكبح جماح قلبك وتصمد أمام أشواقه وحنينه ؟!.

ــ سنسافر غدا إلى الإسكندرية لنمضى الإجازة السنوية .

وأنا فى شوق إلى أن ألقاك ، أن أصغى إلى عذب حديثك ، أن أتزود منك زادا يؤنسنى فى أيام بعدك إلى أن نلتقى يا حبيبى .

ــ سأسافر أنا والدكتور ونادية .

آه . نادية حبيبتك ، نادية التى تهفو إليك ، التى ترتجف فرقا خشية أن تركب رأسك وتلج فى الخصام . آه لو كانت رجلا لطارت إليك تعتذر عما كان ، وتسخر من غرورها الذى صور لها فى لحظة غباء أنها قادرة على أن تعيش بلا حب ، بلا قلب ، بلا حياة !.

ــ ستأتى الليلة ؟ أنا فى انتظارك .

سيأتى حبيبى ، ستكتحل برؤيته عيناى ، ستغتبط به نفسى ، ستفرح به روحى ، ستعربد النشوة فى جنباتى ، سيبتهج قلبى ، وتغرد بلابل محبتى ، وتهيم سعادتى المجنحة فى دنيا عذبة صيغت من رقة وحنان .

وجرت نادية إلى السلم الداخلى ، ووضع أحمد سماعة التليفون وقال لها :

ــ إلى أين ؟

ــ إلى الحمام .

ـــ انتظرى ، سأدخل أنا أولا .

وراحا يستبقان إلى الحمام ، هى تستشعر من فرط سعادتها أنها تطير فى الهواء ، وهو يعدو خلفها يقفز الدرجات قفزا ، بيد أنه عجز عن أن يلحق بها ، وتدخل الحمام وتغلق الباب خلفها فى اللحظة التى يصل فيها أحمد ، ويهم بدفع الباب فتصيح به :

ـــ أحمد . اعقل . لقد خلعت ثيابى .

ويسمع صوت مزلاج الباب فينصرف مطرقا مستسلما ويذهب إلى غرفته يعاود دس ثيابه فى حقيبته ، وهو ينظر بين الفينة والفينة إلى قميصه الذى تركت عليه نادية بصمات أصابعها فلا يسعه إلا أن يهز رأسه فى أسى ، كانت بصماتها واضحة فى القميص الأبيض ، بينما كانت أوضح فى نفسه وإن خفيت عن أنظار فطنته !

وقبيل الغروب سمعت نادية طرقا خفيفا على باب غرفة أخويها ، فخفت خافقة القلب ونظرت فألفت الخادم واقفا ينتظر فتح الباب ،وبعد هنيهة ظهر رأس أحمد وكان بين النائم واليقظان ، فقال الخادم :

ـــ عماد بك فى الصالون .

فقال أحمد وهو ينسحب :

ـــ نازل حالا .

وما أغلق باب غرفته خلفه حتى كانت نادية تهبط فى الدرج وهى مفعمة بالانفعالات ، يمور بين جنباتها شوق عظيم ، لو طاوعته لارتمت بين أحضان من خفق بحبه الفؤاد ، وضمته إلى صدرها لتطفئ لهيب الوجد ، وتبخر ضباب الجفوة ، وتعيد إلى روحيهما صفاء المحبة والسلام .

ووقفت عند الباب ترنو إليه فى هيام ، كان ظهره ناحيتها فلم يحس

قدومها ، وظلت تنظر إليه دون أن يزوغ البصر وإن اضطرب كل ما يضطرب فيها بالحنان ، وهتفت به كل جارحة من جوارحها فى هيام : يا حبيبى ، وهفت إليه كل خلجة من خلجات النفس المذخورة بالعشق والغرام ، وفى لحظة مسحورة مشحونة بكل ما فى الوجود من رقة وخدر لذيذ نادت بصوت يسيل عذوبة :

ـــ عماد :

وقام منفعلا كأنما سرت فيه روح مشتعلة بالشوق ، والتفت إليها وقال فى نبرات ترفرف بالحب :

ـــ نادية !

ومشى إليها ومشت إليه ، وسكتت الألسن وتخاطبت العيون واشتبكت الأيدى ، وفاض الحنان وهفت الجوارح إلى الجوارح ، فالتصق الصدر بالصدر وراحت الشفاه تبحث عن الشفاه لتذوب روح فى روح .

وأسبلت جفنيها وقد شغلت عن كل ما حولها بالسعادة التى كانت تنسكب فى وجدانها ، والمشاعر الرقيقة المتدفقة إلى مهجتها لتزيد فى كنوز فؤادها .

وأحست أنها روح رفرافة هامت فى آفاق رحيبة شفافة فى رقة الأحلام ، وكان لا بد أن تفيق من غمرة النشوة الموارة بين جنباتها ، وأن تهبط إلى واقعها بعد أن تبخرت مشاعر اللذة ، ففتحت عينيها ورأت من فوق كتفه صورة أمها ، فسرى فيها شيء من العجب ، كانت الصورة خلف ظهرها لما ضمها إلى صدره ، فكيف أصبحت أمامها ؟ أدار بها دورة أو أكثر من دورة دون أن تحس ؟

آه . ما أروعها قبلة ! محقت فى لمحة كل إساءة ، وخلفت النفوس نقية

زكية ، بعد أن ربا رصيد محبتها وزاد إرهاف حسها !.

وسارا جنبا إلى جنب إلى مقعد طويل فى قبالة مدخل الغرفة وجلسا عليه ، والعين فى العين واليد فى اليد ، وفى القلبين رفرفات ، وفى الوجدان راحت ترقص النشوة على أغاريد المحبة وزغاريد الفرح .

وأقبل الخادم يحمل صينية عليها ثلاث كئوس ، وقدم كأسا إلى عماد وأخرى إلى نادية ، ووضع الكأس الثالثة على نضد أمامهما وهو يقول :

ـــ أحمد بك قادم حالا .

وبعد لحظات دخل أحمد واتجه إلى عماد وهو يقول :

ـــ لك وحشة يا رجل ، أين كنت ؟

وتعانق الصديقان ، وقال عماد :

ـــ الدودة .. لعنة الله عليها .

ورنت إليه نادية رنوة فيها خبث وابتسمت ، فرفت على شفتى عماد بسمة ، وجلس أحمد دون أن يلحظ شيئا ، ورفع الكأس ورشف منها رشفة ثم قال :

ـــ والله لا أدرى كيف غاب عن ذهنى أن أتصل بك بالتليفون طوال هذه المدة لأسأل عنك ! لولا نادية لسافرت دون أن أخبرك .

وابتسمت نادية ابتسامة عريضة ، والتقت عيناها بعينى عماد ، فما زاغ بصرها أو اختلج لها طرف ، فاضطر عماد أن يغض من بصره حتى لا يفطن أحمد إلى الرسائل التى كانت تبعث بها اللحاظ وتستقبلها العيون .

وقال أحمد وهو يضرب على ساق عماد :

ـــ متى ستأتى إلى الإسكندرية يا بطل ؟

ـــ يوم الخميس القادم ، وأعود منها صباح السبت .

وأحست نادية رغبة فى أن تنفرد بعماد ، فنهضت، وقالت لأخيها :

ـــ سأذهب مع عماد لأشترى شبكة للشعر قبل أن تغلق المحال .

ونهض عماد وتأهب للانصراف معها ، وإذا بأحمد ينهض ويقول :

ـــ فرصة . سأذهب معكما لأشترى مايوه ، فقد اكتشفت فى المايوه القديم ثقوبا صغيرة .

ولاح فى وجه نادية الضيق ، ولمح عماد ما ارتسم على وجهها فلوى شفته السفلى فى امتعاض ، وأرادت نادية أن تفر من أخيها فقالت له :

ـــ لماذا لا تشترى المايوه من الإسكندرية .

ـــ لنفس السبب الذى جعلك تشترين شبكة الشعر من القاهرة .

ـــ وما هو السبب ؟

ـــ الأوكازيونات ! إنها بدأت فى القاهرة و لم تبدأ بعد فى الإسكندرية .

فقالت نادية فى استخفاف :

ـــ آه ! ناصح .

وسار أحمد منتفخ الأوداج مزهوا بنفسه بين عماد ونادية ، وسرعان ما ذهبت نادية إلى جوار عماد ، تهز ذراعها وتتعمد أن تمس يدها يده كلما صعدت ذراعها أو هبطت !

وانطلقوا إلى السيارة ، فهرعت نادية وجلست خلف عجلة القيادة ، وأسرع عماد وجلس إلى جوارها ، والتصق بها ليفسح مكانا لأحمد ، وبعد لحظات كانت السيارة فى طريقها إلى القاهرة ، وذراع عماد خلف ظهر نادية ، وأطراف أنامله تعبث فى رقة بكتفها .

١٧

وجاء المساء ، وجلست نادية وأحمد يتسليان بمشاهدة برامج التليفزيون ، وراحا يتبادلان حديثا خاطفا حول السفر ، وأقبل الدكتور متهلل الأسارير وقد حمل جاكتته بأصبعه وتركها تتدلى فوق ظهره ، والتفت إليه أحمد وتفرس فى وجهه مليا ، ثم نهض واتجه إليه وقال :

ــ منديلك من فضلك .

فقال الدكتور فى دهش :

ــ لماذا ؟

والتفتت نادية ، ولاحظت ما لاحظه أحمد فقالت :

ــ ليمسح بصمة شفاه تركتها زبونة على شفتيك ، الظاهر أنك دنوت منها أكثر من اللازم وأنت تعالج أسنانها .

وأخرج الدكتور منديله من جيب بنطلونه وراح يمسح أحمر الشفاه من وجهه ، وأحمد يقول :

ــ هذه معجزة ! كيف استطاعت السيدة أن تزم شفتيها وهى تعالج أسنانها ؟

وابتسم الدكتور وقالت نادية :

ــ لا تغلق المرأة فمها إلا فى حالتين :إذا تأهبت للقبل. وإذا أغلقته لكيلا تفتحه بعدها أبدا .

وكاد الدكتور أن يفضى إلى أخويه بسره ، ولكن ذكر الموت تلميحا

حرك وساوسه ، فآثر أن يصمت حتى يهدأ تشاؤمه ، فجلس وراح ينظر إلى التليفزيون ولا يرى شيئا ، كان مشغولا بنفسه وما هو مقدم عليه .

وساد الصمت بينهم برهة ثم قال أحمد :

— ستكون مفاجأة لأبي غدا عندما يرانا كلنا هناك في البيت أمامه .

فقالت نادية لأحمد في هدوء :

— لن تكون هناك مفاجأة له ، فهو على يقين من أننا سنسافر عقب انتهاء امتحانك مباشرة .

وابتسم الدكتور وقال :

— إن كان ولا بد من المفاجأة فدعوها لي . سأسافر إيمان معنا لأقدمها لأبي ، ولنستأذنه في إعلان خطبتنا .

— ولماذا لم تعرفنا بها حتى الآن ؟

— طلبت مني أن نتريث حتى نتحقق من حقيقة عواطفنا .

وأخرج من جيبه منديله الذي به آثار أحمر الشفاه ، وقال وهو يعرضه على أنظارهما :

— انتهت فترة التريث الليلة ، وكانت عبارات الشفاه المضمونة أفصح من أروع ما يخرج من بين الشفاه المتحركة .

فقال أحمد مزهوا بنفسه ، فقد فطن إلى ما يرمي إليه الدكتور :

— بلاغة قبله .

وأعجبته العبارة فالتفت إلى نادية وقال :

— فكرة ! سأعرض على مجدي أن ينظم قصيدة حول : بلاغة القبلة .

وزفر الدكتور في راحة وقال :

— ما أروع الحب !

وسرح خياله وراء إيمان ، وشردت نادية تفكر فى عماد ، وراح أحمد يتابع الأحداث الجارية فى التليفزيون ويعلق على ما يرى دون أن يسمعه أخواه أو يلتفتا إلى ما يقول ، كانا مشغولين عنه بالمشاعر الحلوة السارية بين الضلوع .

ورن جرس التليفون رنينا متصلا ، فهب أحمد واقفا وهو يصيح :

— ترنك .

وأفاق الدكتور من أحلامه ، والتفت إلى أخيه الذى راح يعدو صوب التليفون وإلى نادية التى كانت تسبقه إليه ، وانفجرت ابتسامته لما ألفى نادية ترفع السماعة وتضعها على أذنها ، وأحمد يرفع يديه فى الهواء ليهبط بهما فى ضيق وهو يزفر .

قالت نادية :

— آلو ..

وجاء صوت نسوى من الطرف الآخر يقول :

— إسكندرية ..

فالتفتت نادية إلى أحمد وقالت فى انفعال :

— بابا ..

ثم رفعت صوتها وقالت :

— آلو .. بابا ؟. إننا بخير ، كيف حالك أنت ؟ إننا قادمون غدا صباحا .. كلنا ..

وضحكت نادية وقالت :

— وأحب أن أقول لك يا أبى أن أسرتنا زادت واحدة .

وكان على الطرف الآخر من الخط شوق فى كابينة التليفون ، وإلى جواره زوجه عفاف تصغى إلى الحديث الدائر بينه وبين أولاده ، فالتفت إليها وقال :



ــ ومن هى التى شرفت أسرتنا بانضمامها إليها ؟

ــ إيمان يا بابا ، خطيبة الدكتور ، وسيأتى بها ليقدمها إليك ويستأذنك فى إعلان خطبتهما .

ــ أنا آسف يا نادية ، مضطر للسفر فى فجر الغد إلى القاهرة .

والتفت إلى عفاف وقال :

ــ مجلس إدارة الشركة سيجتمع غدا فى القاهرة فى الساعة الحادية عشرة صباحا .

ــ ومتى سنراك ؟ إننا فى شوق إليك .

ــ سأعود إلى الإسكندرية بعد الانتهاء من مجلس الإدارة .

ويبتسم وتبتسم عفاف .

ويخطف أحمد التليفون من نادية بعد أن نفد صبره ، ويقول فى نبرات متهدجة من التأثر والانفعال :

ــ آلو .. بابا ! كيف .. أنت .. الامتحان ؟ أنا واثق أنى سأنجح هذا العام .

وسارت نادية إلى حيث الدكتور وقالت له :

ــ لن نقابل بابا غدا فى الإسكندرية .

ــ لماذا ؟

ــ عنده اجتماع مجلس إدارة غدا هنا فى القاهرة ، وسيلحق بنا بعد الانتهاء من مجلس الإدارة .

فقال الدكتور بعد أن أطرق قليلا :

ــ لن أسافر غدا ، سأبقى هنا لأقدم إيمان لأبى .

ــ وبعدها ستلحق بنا أنت وأبى ؟

ـــ لا أظن ، سأبقى لأعد العدة للزواج .

وابتسمت نادية وقالت :

ـــ مبارك .

وقال أحمد فى صوت مرتفع :

ـــ مع السلامة يا بابا .

ووضع سماعة التليفون ، ووضع شوقى السماعة والتفت إلى زوجه وقال :

ـــ عفاف ، هيا بنا نجهز حقائبنا ، سنسافر فى الفجر قبــل أن يصل الأولاد .

وانطلقا إلى البيت وهما صامتان ، وكان الهواء يهب رخاء والناس على الكورنيش فى غدو ورواح ، الأكتاف تحتك بالأكتاف ، وأكداس من البشر تموج فى أكداس من البشر ، كأنما كان يوم الحشر ، والسيارات تنساب عن يمين الطريق وعن يساره فى قطار طويل كأنها خرزات متباينة الألوان نظمت فى خيط لا ترى بدايته ولا نهايته .

ووقف شوقى وعفاف ينتظران فرجة فى السيارات التى تكاد يلتصق بعضها فى بعض ليجتازا الشارع إلى الجانب الآخر ، وطال الانتظار حتى إن عفاف اندفعت فى يأس لتعبر بين العجلات المتدفقة فى جنون .

وأحس شوقى الخطر المحدق بزوجه فهتف فى صوت مفزوع :

ـــ عفاف !

بيد أنه لم يتريث بل اندفع فى أثرها فإذا بجموع الناس تندفع خلفهما كالسيل وينقطع الحبل الموصول من السيارات.وبلغا الجانب الآخر فقال لها :

ـــ ماذا فعلت ؟

فقالت فى هدوء :

ـــ كان لا بد أن يمر أحد ليقتفى الناس أثره .

ـــ ولماذا لم تنتظرى حتى يمر أحد غيرك ؟

ـــ انتظرت طويلا لعل أحدا يتقدم دون جدوى ، فتقدمت .

وسارا فى الشارع الموصل إلى البيت ، وراحت تتلفت ، وقرأ فى عينيها المشاعر التى تحركت بين جنباتها فمد يده وضغط عليها وقال :

ـــ ما أكثر الأشياء التى تتفتح لها قلوبنا .

فقالت فى صوت حنون :

ـــ أحببت هذا الشارع ، تفتح لكل ما فيه فؤادى ، إنه الآن قطعة منى ، وغدا يصبح ذكرى سعيدة من ذكريات حياتى .

فقال وقد تألقت عيناه غبطة :

ـــ هذه الذكريات هى ذخيرة حياتنا ، المصابيح المنيرة فى ظلمات ماضينا ، مشاعل الدفء فى برودة مستقبلنا .

فرنت إليه رنوة زاخرة بالمحبة وقالت :

ـــ لن تعرف البرودة طريقها إلينا ، ستبددها دواما حرارة الدماء المتدفقة فى عروقنا .

ووضع المفتاح فى قفل الباب وأداره ، ودخل وهو يجذبها فى رفق ، وأغلق الباب خلفهما دون أن يضىء النور ، وضمها إليه وراح يقبلها قبلة طويلة حتى خيل إليه أنه عاد لأيام مراهقته !

وهمست فى دلال قائلة وهى تدفعه برفق ليبتعد عنها :

ـــ لو طاوعتك لظللنا فى دنيانا حتى يأتى أولادك .

وأحس كأن شيئا ما عكر عليه صفوه ، كان على يقين من أن أولاده قادمون فى البكرة ، فما باله قد انقبض لما جرى لسانها بذكر أبنائه ؟!

وأضاءت النور ، وذهبت إلى حقيبتها ووضعتها على السرير ، وفتحتها وراحت تضع فيها أشياءها ، فخف إلى حقيبته وكانت أشبه بالخرج . وأخذ يجمع فيها أشياء كثيرة متباينة لا يمكن أن يتصور أن يحملها أحد معه ، فقد كان يحمل كل ما يحتاج إليه المسافر أو يخطر على باله من إبرة الخياطة إلى أدوات القهوة ، ومن الراديو الترانزستور إلى أشرطة مسجل عليها أحدث الأغانى والمقطوعات الموسيقية !

وكادت تنتهى من وضع ملابسها ، وجعلت تتلفت وتنقب عن شيء ، ولاحظ حيرتها فقال لها :

ـــ عم تبحثين ؟

ـــ الإيشارب الذى كنت أذهب به إلى الشاطئ .

وفتحت الأدراج ، ونقبت عنه فى كل مكان وهى تقول :

ـــ وضعته على رأسى هذا الصباح ، أتذكر ؟

فقال وهو يهز رأسه أن نعم :

ـــ أذكر .. لقد طلبت منى أن أثبته « ببنسة » فى شعرك .

ووضعت سبابتها على ذقنها ، وقالت وهى تفكر :

ـــ أتذكر أنى عدت به لما رجعنا إلى البيت ؟

ـــ أنا واثق أنك لم تعودى به ، لأننا دخلنا البيت وأنا أقودك من شعرك .

وذهب إليها وخلل أصابعه فى شعرها وقبض على خصلة منه ودفعها أمامه فى حنان وقال :

ـــ كنا نسير هكذا . أتذكرين ؟

ـــ ضاع الإيشارب . خسارة !

ـــ أنا لا أحزن إذا ما ضاع منى شيء أو فقدت بعض نقودى ، بل ينشرح

صدرى .

ـــ عجيبة ! من يضيع منه شيء ينقبض عادة .

ـــ أعلم أن الزمن لا بد أن يأخذ وهو يعطى ، فإن اكتفى بأخذ بعض أشياء نحتمل فقدها فأنا سعيد .

وراحا يستأنفان تجهيز حقائبهما للسفر ، وساد الصمت بينهما ، ونظر شوق إليها من بين أهدابه المسبلة فألفاها ساهمة وقد طافت بمحياها موجة خفيفة من الأسى ، فقال لها :

ـــ فيم تفكرين ؟

فقالت فى صوت خافت :

ـــ طافت بى أفكار قلقة .

فترك ما فى يده ودنا منها وقال لها فى حنان :

ـــ قصى على ما يشغل بالك .

وبقيت مترددة برهة ، فقال لها :

ـــ أفكارك ملك لك ، أما وأنها تقلقك فتخففى منها .

فنظرت ناحيته ، ولكن عينيها كانتا تتطلعان إلى لا شيء وقالت :

ـــ قبلت الزواج لأنى كنت أطمع فى أن أستقر ، إذا سرنا فى طريق تلفتنا فى خوف خشية أن يرانا أحد ، وإذا اشتهينا أن نعيش فى أمان حملنا أمتعتنا وهربنا من أولادك ، وما أسرع ما تلوح لنا أشباحهم فنعاود الفرار .

ـــ أنت التى فرضت علينا هذا الحال ، إنى لا أخشى أولادى ، بل إنى متلهف على أن أصارحهم بزواجنا ، فهذه حياتى ، وأنا حر فيها .

وذهب فى عزم إلى حقيبته وفتحها وراح يخرج ما بها ، فهبت إليه تمنعه وتقول له فى خوف :

— ماذا تفعل ؟

— لن نسافر غدا : سننتظر ونواجههم بالحقيقة .

وراحت تعيد أشياءه ، إلى الحقيبة وهي تقول :

— بل سنسافر يا شوقى .. سنسافر .

— سنبقى .

— إنى لا أشكو يا شوقى مما أنا فيه ولا أتبرم به ، وكل ما قلته إن هو إلا تعبير عما كان يدور فى رأسى ، إنى سعيدة ، ومما يزيد سعادتى هذا القلق الذى أحسه ، إنه لذيذ ، يعيدنا إلى أيام شبابنا ، أليس كذلك يا حبيبى ؟

ودنت منه تتمسح به لتثنيه عن عزمه ، بيد أنه قال فى إصرار :

— لا بد أن يتقدم أحدنا لنجتاز هذه العقبة التى تعترض سبيلنا .

والتفت إليها وقال :

— لو لم تقدمى الليلة على اجتياز الطريق لكنا ننتظر إلى الآن توقف سيل السيارات الجارف ! الماء المنهمر لا يمكن أن يقف من تلقاء نفسه ، لا بد أن يعترض سبيله سد أو معترض .

فقالت فى خوف :

— خطر السيارات الداهم أهون من الخطر المتربص بنا .

وأحس كأنما جرحت كرامته فقال فى انفعال :

— أى خطر ؟

— أخاف أن ينجحوا فى أن يفرقوا بيننا .

— ما من قوة تستطيع أن تفرق بيننا .

— شوقى ! فكرت كثيرا فى نفسى ، فكرت فيما يكون قرارى لو جاء ابنى وخيرنى بين أن يتبرأ منى وبين أن أفسخ هذا الزواج .

— وماذا كان قرارك ؟

— لم أهتد إلى قرار يطمئن به قلبى .

فشمخ بأنفه وقال :

— لو خيرنى أبنائى بين أن يتبرءوا من أبوتى وبين هذا الزواج ما ترددت لحظة فى اختيار زواجى ، فهذه أنانية منهم ، ماذا يريدون منى بعد أن أصبحوا فى غير حاجة إلى ؟ أيريدون أن يتحكموا فى حياتى الخاصة ؟ وبأى حق ؟ إنى لا أقر هذه الأنانية أبدا .

ونظرت إليه مليا وقالت له :

— لا يغرنك مظهرك ، لست قويا كما تظن ، إنك ترتجف فى أعماقك كما أرتجف .

— عفاف ! أنا مؤمن بكل لفظ نطق به لسانى .

— لا شك فى هذا الإيمان ، ومع ذلك فأنا واثقة من أنك خائف مثلى ، فليس من السهل أن يتحمل الآباء غضب الأبناء .

— وليس من الكرامة أن يسكت الآباء على تحكم الأبناء الظالم .

فقالت وهى تهز رأسها :

— كشفت يا شوقى عن خوفك .

— أنا ؟ ومتى ؟

— لما قلت إن صدرك ينشرح إذا ما ضاع منك شىء تستطيع أن تتحمل ضياعه أو فقدت بعض نقودك ، لأنك تعلم أن الزمن يأخذ ما يعطى ، فإذا اكتفى بأخذ أشياء تافهة منك فإنك سعيد .

أنت تعيش فى خوف دائم ، تخشى أن يأخذ منك الزمن شيئا ثمينا ، وهل فى حياتنا أثمن من السعادة التى نحن فيها ؟

ـــ سأحارب لأنقذ سعادتنا .

ـــ ليس من الحكمة أن تخوض معركة لم يحن أوانها .

ـــ أمن الحكمة أن نفر من المعركة إذا كنا على يقين من أنه لا مفر من أن نخوضها ؟!

ـــ الحكمة تقضى ألا نتعجلها ، فما من معركة إلا وتخلف وراءها خسائر نحن الآن فى غنى عنها .

ووضعت خدها على خده وقالت :

ـــ إننا الآن سعداء ، وعلينا أن نصون هذه السعادة .

ـــ بالفرار ؟

ـــ ما دام الفرار هو السبيل لصيانتها .

ورنت إليه رنوة منكسرة فيها نداء وقالت :

ـــ سنسافر غدا يا حبيبى .

وأشرق وجهه بابتسامة وهز رأسه أن نعم .

١٨

خلفت السيارة الطريق الصحراوى وراءها ، ولاح الهرم الأكبر يسد الأفق ، ورأى شوقى أول إشارة مرور فى طريق الهرم ، فالتفت إلى عفاف وقال لها :

ـــ سنذهب إلى الفيللا لنقضى فيها أسبوعا وحدنا ، لا يعكر صفونا أحد .

ـــ وما أدرانا أنها خالية ؟

ـــ قالت لى نادية إنهم جميعا مسافرون إلى الإسكندرية ، ومع ذلك سأتأكد .

ودار حول الصينية التى تتوسط الطريق ، ووقف بالسيارة إلى جوار الطوار وهبط منها ، وراح يعبر الطريق متجها إلى المطعم ، واجتاز بابه ، وهبط بضع درجات ثم اتجه إلى التليفون ، وراح يدير القرص مرات وأصغى فى اهتمام . استمر الجرس يرن رنينا متصلا مدة ، فوضع السماعة راضيا ، وعاد أدراجه إلى السيارة يلوح عليه الرضا .

وقال وهو يجلس خلف عجلة القيادة :

ـــ لا أحد فى الفيللا ، لم يرد على التليفون أحد .

وانسابت السيارة مسرعة ، وشوقى يتمايل فى مرح . ويمد ذراعه ويلفها خلفها ويضمها إليه ، وهى تفزع وتتلفت وتقول فى عتاب :

ـــ شوقى ! اعقل .. الناس .. الناس ..

فقال لها وهو يبتسم ، وعيناه تأتلقان ببريق المحبة :

ـــ ليس فى الدنيا سوانا أنا وأنت .

ودار فى سرعة فمالت وارتمت عليه ، وقبل أن تعتدل فى جلستها ، وقف أمام الفيللا مرة واحدة فاهتزت فى عنف ، فمد يده إليها وهو يقول :

ـــ إنك فى أمان ما دامت لك هذه اليد .

وانشرح صدره لما أحس مشاعر الشباب تمور فى جنباته ، وزاد فى غبطته أنه فى أواخر أيام زوجته السابقة كان يعتقد أن شبابه قد ولى ، وإذا بتجربته الجديدة تؤكد له أن الشباب يمكن أن يتجدد .

وهبط من السيارة فى نشاط وراح يفتح باب الفيللا الخارجى ، ويسعى إلى باب الجراج ليفتحه ، وعفاف تنظر إلى الفيللا بعيون مفتوحة وقلب يخفق

فى خوف ، وتحرك قلقها و لم يحل اضطرابها بينها وبين أن تتمنى فى أعماقها أمنية كبيرة ، أن تصبح السيدة المسيطرة على هذا البيت .

وعاد شوقى إليها ، وخف إلى السيارة يقودها إلى الجراج وعفاف صامتة ، بيد أن حواسها كانت متفتحة مرهفة ، تحس كل حركة ، وتسمع كل نأمة ، وترى كل شىء .

وهبطا من السيارة ، واتجهت عفاف إلى حيث كانت نادية تصنع قاطرتها ووقفت تنظر ، فقال شوقى فى زهو :

ـــ هذه قاطرة تصنعها نادية ، وستتحرك على قضبان بضغط البخار ، نادية عبقرية .

وابتعدت عنه ، خشيت أن يلمح آثار الغيرة التى تحركت على الرغم منها فى حناياها ، كانت قد قررت أن توطد نفسها على ألا تغضب إذا ذكر أبناءه بخير أو أظهر حبه لهم ، فهى تحب ابنها ومن حقه أن يحب أبناءه ، فما بال مجرد إعجاب بابنته يحرك فيها كل هذه الغيرة ! ليتها تستطيع أن تتحكم فى عواطفها . ورن فى جوفها صوت بغيض كفحيح الأفعى يقول : « ما أنت إلا امرأة أب » فضايقها هذا الهاجس ، وقالت لنفسها فى مرارة : « ما كنت أحب أبدا أن أكون امرأة أب » .

ودنا شوقى منها وتناول يدها وسار بها نحو باب الفيللا الداخلى ، فإذا بها تلوم نفسها على ذلك الكدر الذى ران على قلبها ، ويهمس فى أغوارها هامس : « لماذا تعكرين ساعات الصفو ؟ » .

ووضع المفتاح فى ثقب الباب وأداره ودفع الباب ، ثم نظر إلى عفاف وإذا بخاطر يطوف برأسه ، لماذا لا يحملها بين يديه ويصعد بها إلى غرفته ؟ وإذا بصوت ساخر يرن فى أعماقه يقول : « كان ذلك أيام الشباب » . وأحنقه

ذلك الصوت ، فمال وحملها بين يديه واجتاز بها الباب وقبلها ، ثم وضعها على الأرض وهو يقول :

ــ مرحبا بك فى بيتك .

وتلفتت خافقة القلب ، ومشت إلى غرفة الاستقبال وأدارت عينيها فى المكان ، وإذا بهما يثبتان على صورة الزوجة الراحلة ، وبقيت مدة لا تتحرك ولا يزوغ بصرها ، ووقف شوقى خاشعا ، واستشعر لأول مرة شيئا من الحرج .

والتقت عيناها بعينيه ، وظلا صامتين ، وإن تحركا ليغادرا الغرفة إلى غرفة السفرة .

وأراد شوقى أن يخرج من ذلك الصمت القلق الذى ران عليهما ، فأسرع إلى الثلاجة وفتحها فألفاها خاوية ، فالتفت إلى عفاف وقال :

ــ سأذهب لأشترى ما نأكله وإلا متنا من الجوع .

ــ وتتركنى هنا وحدى ؟

ــ أنت فى بيتك ، ولن أغيب إلا بضع دقائق .

وتحرك فقالت له :

ــ أتذهب الآن ؟

ــ سأحضر الحقائب ، وبعد أن ننتهى من ترتيب ملابسنا سأذهب لشراء طعامنا .

وانطلق إلى الجراج ، وإذا بها تسرع إلى صورة الزوجة الراحلة وتتفرس فيها .

وأحست وقع أقدامه فخفت إليه فألفته يحمل حقيبتها على كتفه ، فأسرعت إليه تعاونه على حملها وهى تقول :

ـــ يا حبيبى !

وصعدا فى الدرج والحقيبة بينهما وقد رفت على الشفاه ابتسامات عذبة ، ودخلا غرفته ووضعا الحقيبة وهى تتلفت وتلقى نظرة فاحصة على كل ما فيها .

وتحرك ليحضر حقيبته ، فجلست على حافة السرير وقالت له :

ـــ ألا تستريح ؟

فذهب إليها وقبلها قبلة خاطفة وقال لها :

ـــ السعيد لا يشعر بالتعب .

وخرج من الغرفة وهى تسير فى أثره ، حتى إذا ما وصل إلى الدرابزين ركبه كما يفعل الأطفال ، وهبط عليه وهو يصيح فى مرح وهى تضحك من كل قلبها ، وغاب عنها فذهبت تجوس خلال غرفة الدكتور وأحمد وغرفة نادية .

وراحا يخرجان ما فى الحقائب وينسقانه فى الغرفة ، حتى إذا ما انتهيا من عملهما ارتمت عفاف فى السرير ، وانطلق شوقى يشترى طعاما لهما .

وتقلبت كثيرا فى الفراش لتطرد ذلك الخاطر الذى استولى على تفكيرها ، بيد أنها عجزت عن صده ، فنهضت وغادرت الغرفة وهبطت فى الدرج ، وانسابت إلى حيث كانت صورة الزوجة الراحلة .

ورنت إلى الصورة رنوة طويلة ، كانت كل ملامحها تؤكد أنها صاحبة هذا البيت وإن رحلت عنه ، وإن دفنت فى التراب ! وانقبضت ، وتحركت غيرتها على الرغم منها حتى إنها تقدمت إلى الصورة ورفعتها من مكانها ووضعتها على الأرض ووجهها نحو الحائط .

ودق قلبها فى عنف ، ودوى صوته فى أذنيها دويا مفزعا مخيفا ، وسرت فى

بدنها قشعريرة ، وانبثق العرق من وجهها غزيرا حتى سال على خديها ، وحاق بها خوف شديد ، وزلزلت زلزالا حتى أحست كأن روحها تود أن تفر من فيها .

وظلت ترتجف وهى تنظر فى هلع إلى الصورة ، التى وضعت على الأرض ، واستشعرت أنها اقترفت ذنبا كبيرا ، واحتقرت فعلتها ، فتقدمت من الصورة وقد سرى فى ساقيها ضعف حتى كادت أن تنهار ، ومدت يدا مضطربة إلى الصورة وأعادتها إلى مكانها ، ثم راحت تهرول إلى الطبقة الثانية كأنما تفر من شبح .

وارتمت فى السرير مبهورة النفس ، وراحت تفكر فى كل ما جرى ، وإذا بها تقرر أنه لو قدر لها أن تعيش فى هذا البيت فلن تستطيع أبدا أن تبقى مع هذه الصورة تحت سقف واحد !

وانداحت مخاوفها كما تنداح الموجة فى البحر الكبير ، وهدأت نفسها وردت إلى طبعها فراحت تفكر فى شوقى ، وتغبط نفسها على السعادة الغارقة فيها !

وعاد شوقى وهو يتصبب عرقا وقال لها :

— ما رأيك فى أن تستريحى حتى أعد لك الغداء ! أنت اليوم ضيفتى .

فقالت له وهى تنهض من الفراش :

— راحتى أن أكون بقربك .

وخرجا من الغرفة ، وأسرع شوقى إلى الدرابزين وركبه ، وراح يصيح صيحات فرح وابتهاج ، وإذا بعفاف تقلده وتركب الدرابزين ، وتهبط عليه وضحكاتها تجلجل فى أرجاء البيت ، حتى إذا ما وصلت إلى نهايته تلقاها شوقى بين أحضانه . وهما يكادان أن يطيرا من النشوة .

ومر الوقت سريعا ، وغابت الشمس ، وغرقت الفيللا فى الظلام وهما فى سبات ، وتقلبت عفاف فى السرير مرات ثم فتحت عينيها فألفت الليل قد جاء ، فقامت فى خفة ، وانطلقت إلى الحمام وهى تضىء الأنوار التى تصادفها فى الطريق .

* * *

وجاء الدكتور محمد وإلى جواره إيمان ، وقادها إلى غرفة الاستقبال ، ورفع بصره وهو يجتاز الردهة فألفى الأضواء تشع من الطبقة الثانية ، فقال لإيمان :

ـــ لقد استيقظ أبى ، هذا ميعاد استيقاظه .

فقالت إيمان فى دهش :

ـــ وينام فى هذه الفيللا وحده ؟!

فرنا إليها الدكتور رنوة عتاب وقال :

ـــ أتخافين ؟

فقالت وهي تسبل جفونها على عينيها :

ـــ الحق ، أخاف أن أبقى فى هذه الفيللا وحدى .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـــ أحاول أن أقنع نفسى أن الخوف سخافة ، ولكن ما أن أسير وحدى فى مكان هادئ حتى يخيل إلى أن شخصا ما سينقض على من الخلف .

وجلسا فى غرفة الاستقبال ، ونظر إليها وابتسم ، فقالت له :

ـــ ماذا يدور فى رأسك ؟

ـــ كنت أتساءل : أتخافين إذا ما تركتك هنا وحدك وذهبت إلى أبى أخبره أننا فى انتظاره ؟

ــ أنا لا أخاف إن كنت فى هذا البيت وحدى ومعى طفل رضيع ، مجرد إحساسى بأن إلى جوارى إنسانا يتنفس يذهب خوفى .

فأشرق وجهه بابتسامة وقال :

ــ لن يطول خوفك .

ــ قلت لك إنى لا أخاف ما دام معى فى البيت إنسان .

ــ أقصد لن يطول خوفك إذا ما تزوجنا ، سأبذل كل جهدى لننجب ولدنا الأول فى أقصر وقت !

فقالت فى دلال :

ــ أوه ! محمد ، قلت لك مائة مرة : أكره أن أبدو مكسوفة !

فقام إليها وخطف قبلة وانطلق مسرورا إلى غرفة السفرة ، وفتح الثلاجة فألفاها عامرة بالفواكه والمرطبات وبقايا طعام تنوعت ألوانه ، فهتف :

ــ إيمان ! تعالى .

وانطلقت إليه ، فإذا به يقول :

ــ انظرى : الظاهر أن أبى أعد لنفسه وليمة .

وقال فى زهو :

ــ أبى لا ينسى بيته أبدا .

والتفت إليها وقال :

ــ خوخ ؟ كمثرى ؟ تين ؟ كوكاكولا ؟ كوكتيل شوقى ؟

وضحك وقال :

ــ أحب أن تتذوقى كوكتيل شوقى .

فقالت له وهى تنظر إليه فى استفسار :

ــ ومم يتكون هذا الكوكتيل ؟

ــ من تمر هندى وعصير الرمان وعصير الكمثرى وعصير العنب أو عصير أية فواكه أخرى موجودة .

وقدم إليها كوبا من ذلك الكوكتيل وهو يقول لها :

ــ تفضلى . كوكتيل أبى . إنه لذيذ .

وشربت ما فى الكوب وقالت :

ــ رائع !

فقال الدكتور وهو يضمها إليه فى حب :

ــ أبى أروع من عصيره ! عن إذنك . دقيقة واحدة لأخبره أننا هنا .

وراح يغذ السير ، حتى إذا ما بلغ الدرج الداخلى هرول إليه وراح يصعد فيه قفزا ، واتجه إلى غرفة أبيه ، بيد أن أصوات ماء منهمر وحركة فى الحمام مست أذنيه ، فأيقن أن أباه هناك ، فاتجه إلى الحمام فى حماس ، ووقف أمام بابه وراح يصيح :

ــ بابا . جئت أنا وإيمان لأقدمها إليك .

وصك صوته أذن أبيه وكان ممددا فى فراشه ، فهب منتصبا ، وراح يتلفت فى الغرفة ويخفى فى عجلة كل آثار تدل على وجود عفاف فى البيت ، وقبل أن يغادر الغرفة سمع أصوات طرق على باب الحمام والدكتور يهتف :

ــ بابا .. أتسمعنى .. معى إيمان .. خطيبتى .. سننتظرك فى غرفة الاستقبال .

وهرعت عفاف إلى ملابسها ترتديها فى سرعة وهى تكاد تموت من الخوف ، وألقت نظرة سريعة على المزلاج ، وعلى الرغم من تأكدها من أنه مغلق أسندت الباب بظهرها كأنما تحميه من أن يفتح ، وراحت تلتقط أنفاسها فى جهد وهى تلهث ، وهى تقلب عينيها فى لا شيء ، كانت زائغة الفؤاد

والبصر .

وغادر شوقى غرفته مهرولا بعد أن ارتدى الروب فوق البيجاما ، وخف إلى حيث كان ابنه ، وقال فى صوت حاول أن يبدو هادئا :

— محمد ! أهلا .. أهلا .

والتفت محمد إليه فى دهش ، وعاد وألقى نظرة متسائلة على الحمام كأنما يقول : إذا كنت أنت هنا فمن ذا الذى فى الداخل ؟، وقال الأب فى ثبات :

— فتحت الماء لأملأ البانيو ، وعدت إلى السرير وتمددت فيه .

ووضع يده خلف ظهر ابنه وقال :

— تعال .. أين إيمان ؟

فقال الدكتور فى انفعال :

— تنتظرك فى غرفة الاستقبال . بابا أرجو أن تعجبك .

فقال شوقى وهو يبتسم ، وقد بدأ يهبط فى الدرج :

— المهم أن تعجبك أنت .

— إنها ملأت رأسى .

ووضع الأب أصبعه على قلب ابنه وقال :

— وهذا ؟

— تربعت على عرشه .

فقال الأب مازحا :

— كل العروش فى هذه الأيام تهتز .

— إلا عروش المحبة .

— أتحبها ؟

— بكل حواسى .

ــ أتفكر فيها أثناء عملك ؟

ــ إنها فى خيالى على الدوام .

ــ وما هو شعورك عندما تفكر فيها وأنت تعمل ؟

ــ يتفتح قلبى لكل ما تقع عليه عيناى ، وأحس حبا لمرضاى ، وتمتلئ نفسى بالرحمة ، حتى إنى أحاول أن أخلع الضرس فى حنان .

فقال الأب وهو يذرع الردهة الخارجية إلى غرفة الاستقبال :

ــ مبارك .

فقال محمد فى استغراب :

ــ بابا .. أتوافق قبل أن تراها ؟

فقال شوقى فى ثقة :

ــ لقد رأيتها فيك !

ودخل الأب ، وهبت إيمان واقفة ، وأسرع محمد يقدم أحدهما إلى الآخر :

ــ إيمان ! خطيبتى .. بابا .

فنظر كل منهما إلى الآخر ، وتقدم شوقى ومد يده لها فصافحته فى حرارة :

وقال شوقى :

ــ أهلا أهلا .. تفضلى .

وجلست إيمان وقد أرهفت كل حواسها ، وقال شوقى لابنه وهو يجلس :

ــ جميلة . عرفت كيف تختار .

ــ اختارها لى القدر ، لم أكن أعرفها ولا أعرف من تكون ، وفى ذات مساء كنت أقود سيارة عماد ، وكانت تعبر الطريق ، فصدمتها بطرف السيارة ، وكانت بداية تعارفنا .

فالتفت شوقى إلى إيمان وقال لها :

ـــ ما الذى أعجبك فى محمد ؟

فقالت فى ثبات :

ـــ رقة قلبه ، تصور يا عمى أنه أغمى عليه بعد أن صدمنى !

فقال شوقى وهو يبتسم :

ـــ اطمئنى ، سيغمى عليه كثيرا .

وضحكوا ، وقال شوقى لابنه :

ـــ أخطبتها من أهلها ؟

ـــ ليس بعد .

ـــ وماذا تنتظر ؟

ـــ موافقتكم .

فقام الأب وقال :

ـــ قم ، ولا تضيع وقتك .

ـــ ألا تأتى معنا ؟

ـــ لا ، لأنى لا أحب أن أكون ثقيلا على قلبيكما ، فالخلوة دائما للمحبين ، وأى ثالث بينهما يكون على قلبيهما أثقل من جبل المقطم . اذهبا .. مبارك .

فالتفت الدكتور إلى إيمان وقال لها :

ـــ ما رأيك فى أبى ؟

فقالت مداعبة :

ـــ لو قابلته قبلك ما ترددت فى أن أتزوجه .

ودنا الدكتور من أبيه وقال له :

ـــ بابا .. أظن أنك لا تريد سيارتك الليلة .

ـــ خذها إكراما لإيمان .

وتحرك محمد صوب الباب ، فقال له الأب فى فزع :

ـــ إلى أين ؟

ـــ أحضر مفاتيح السيارة .

ـــ لا : لا . لن تعرف أين هى . وليس من الذوق أن تترك إيمان ، سأحضرها لك .

ـــ لا تتعب نفسك .

ـــ سألقى بها إليك .

وتوجه إلى إيمان وصافحها وقال :

ـــ مبارك .

والتفت إلى محمد وقال :

ـــ بارك الله لك فيها .

وانطلق يعدو إلى الطبقة الثانية ، وما إن دخل غرفته حتى ألفى عفاف فتحت الحقائب وأخذت فى جمع ثيابهما فيها ، فقال لها :

ـــ ماذا تفعلين ؟

ـــ أستعد لمعاودة الفرار .

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى السد البرانى .

وذهب إلى حيث كانت مفاتيح السيارة ، وتناولها وغادر الغرفة مسرعا خشية أن يأتى الدكتور ، وعاد إلى رأس السلم وهتف :

ـــ محمد ! المفاتيح .

وألقى إليه بالمفاتيح وهو يغمغم :

ـــ السد البرانى ؟ متى تتحطم جميع السدود ؟!

والتقط الدكتور المفاتيح ولوح لأبيه بيده مودعا ، فصاح الأب فى راحة :

ـــ مع السلامة . إيمان ! حاذرى أن يصدم بالسيارة امرأة أخرى ، فأنت أدرى الناس بما قد تتمخض عنه مثل هذه الصدمة !

فقالت إيمان فى مرح :

ـــ فى حياة كل إنسان صدمة عنيفة ، ومن حسن حظنا أنها قد مرت .

١٩

كان البحر هادئا ، ورمال الشاطئ مغطاة بأذرع وسيقان وأرداف وصدور ونهود وبطون وكروش ومايوهات من كل حجم ولون ، أجسام غضة تجذب العيون ، وأبدان مترهلة تقزز النفس ، والشمس ترسل أشعتها إلى الجميع ، لا تفرق بين جمال وقبح !

وتحت شمسية لا تختلف عن مئات الشماسى المتلاصقة المنتشرة على طول الشاطئ ، جلست نادية على مقعد صغير من مقاعد الشاطئ قاعدته من نفس قماش المظلة ، ترتدى قميصا قصير الأكمام مفتوحا عند صدرها ، وبنطلونا قصيرا ، وقد مدت ساقيها وأسندتهما على مقعد آخر وتركتهما للشمس ، وجلس إلى جوارها مجدى يرتدى بنطلونا قصيرا من قماش أصفر ، عارى الصدر ، متهدل الشعر ، يدل منظره على أنه خرج من البحر لتوه ، يلوح على وجهه رضا يرده إلى الراحة التى ينعم بها فى إنجازته ، بيد أن الحقيقة أنه سعيد لقربه من نادية التى يحبها من سويداء قلبه ، وإن كان قد وطد نفسه على أن يكتم

ذلك الحب فى أعماق نفسه .

ومدت نادية بصرها إلى البحر تتفرس فى جموع الناس الذين كانوا يلعبون ويتصايحون ويسبحون وترتطم أجسام بعضهم ببعض ، عن عمد أو عن غير عمد ، وقالت :

ــ لا أرى أحمد .

فقال مجدى وهو يشير بأصبعه :

ــ إنه هناك ، يلعب مع الذين يتقاذفون الكرة .

ونظرت إلى حيث يشير ، ولمحت أخاها ، ثم نظرت إلى مجدى وقالت :

ــ أتدرى ماذا فعلت سيدة ؟ نزلت إلى البحر بكل ثيابها .

فقال مجدى وهو يبتسم :

ــ سحر البحر لا يقاوم ، وأين هى ؟

ــ عادت إلى البيت تبدل ثيابها .

ولاح فى وجهها كأنما تذكرت شيئا ، فنظرت إليه فى اهتمام وقالت له :

ــ قل لى : ماذا فعلت مع أبى طوال المدة التى قضيتها معه ؟

فقال مجدى دون أن ينظر إليها :

ــ لم أقابله .

فقالت نادية فى إنكار :

ــ سبعة أيام وأنت وهو على شاطئ واحد و لم تتقابلا !

ــ شغلتنى الأسطورة الأخيرة عن كل شىء .

فقالت وقد شردت ببصرها :

ــ ترى كيف أمضيت يا بابا كل هذه الأيام وحدك ؟

فقال مجدى وقد تغيرت نبرات صوته ، فهو إذا كذب يشعر أن صوته

سيفضحه :

ــ ذهبت إليه فى البيت أول ما وصلت إلى هنا ، ولكنى لم أجده ، فانطلقت أبحث لى عن مأوى ، وما أن وجدت سكنا حتى ألحت على الأسطورة التى كنت أفكر فيها طوال الطريق ، وكانت تملأ رأسى تريد أن تخرج ، فعكفت عليها وشغلت بها عن كل ما فى الدنيا .

ورن فى جوفه صوت يقول : « إلا أنت ، فقد كنت الوحى الذى أمدنى بكل ما فيها من مشاعر وإحساسات » .

فسحبت ساقيها ودارت بمقعدها حتى أصبح وجهها إلى وجهه ، وصدرها العارى نهبا لنظراته ، وقالت له فى اهتمام :

ــ وما هى هذه الأسطورة التى شغلتك عن الناس ؟

فنظر إلى لا شىء ، وراح يقص عليها ملخصا للأسطورة ، وهو يستشعر نشوة ، فأمتع ما فى الوجود أن يرن صوت المرء فى أذنيه ، وعيون حبيبته ترنو إليه ، وآذان صديقة مصغية تتفتح لحديثه ، قال :

ــ صياد شاب يسرى فى الليل وحده على ضوء القمر ، حتى إذا ما بلغ البحر ألقى إليه شباكه ، وراح يغنى بصوت حنون للحبيبة التى سلبته قلبه وجعلته أسير هواها ، وكان الكون كله يشدو بأنشودة الغموض الساحرة ، وامتزج الصوت الحنون بزفير الريح وهدير البحر ، وبدت الموجات التى كان يركض بعضها فى إثر بعض فى ضوء القمر كجياد شهب ، تلهو وتمرح على وهاد زرقاء ، واستولى الصوت الآسر على لب حورية من حوريات البحر ، فانفرج عنها الموج وخرجت إلى الشاطئ وجلست محلولة الشعر ، ناهدة الصدر ، قاب خطوات منه ، وراحت ترنو إليه وقد انسكب ذوب نفسه المذخورة بالحب فى قلبها الخالى ، فإذا بروحها تشتعل بالوجد .

ومرت لحظات خفق قلبها خفقات رقيقة ناعمة ، فإذا بها بكل كيانها تهفو إليه ، وخطر لها أن تزحف إليه ، بيد أنها خشيت أن يجفل منها فيتبدد سحر اللحظات الحالمة التى ملأتها بمشاعر جديدة كلها نشوة وفرح وابتهاج .

وتلفت حوله فوقعت عيناه عليها ، كانت خاشعة ترنو إليه بلحاظ المحبة ، فلم تذهب نفسه شعاعا و لم يمش إليه الخوف ، و لم تسر فى بدنه قشعريرة ، بل غشيته طمأنينة عجيبة ، وسار إليها وهو مأخوذ بجمالها وجلس إلى جوارها يقلب وجهه فيها ، ثم نظر فى عينيها مليا فاستشعر نورا أضاء جنباته ، ومشاعر رقراقة هفهافة فاضت فى صدره ، وأنامل رقيقة عبثت بأوتار قلبه ، فتعطل لسانه وقصر عن أن يعبر عن روعة إحساساته ، فرفع يده ومررها على شعرها ، فإذا بكل ما فيه يتفتح ويشتهى أن يحتويها ، فضمها إليه وأطبق بشفتيه على شفتيها فتركز الوجود كله فيهما .

وصمت مجدى . ألفى نادية تصغى إليه بكل مشاعرها ، وخيل إليه أن عينيه تأتلقان ببريق يفضح خبيئة نفس ، فأسبل جفنيه ليخفى أسرارهما ، وراح يئد ذلك الانفعال الذى ملأ روحه ، وتلك الرغبة الملحة التى كانت تخونه وتغريه بأن يلعق بعينيه مفاتنها ، وسولت له نفسه الفرار ، ولكن نادية قالت فى حماس :

— رائع ، وبعد ؟

فازدرد ريقه ، وشرد ببصره بعيدا عنها وقال :

— وأحست الحورية لأول مرة بالخجل ، وإن كانت زغاريد الفرح ترن فى أعماقها ، وفى غفلة منه انسلت إلى البحر فى خفر ، وما أن غاصت فى الماء واختفت عن عينيه حتى راحت ترقص وتلف وتدور وقد أفعمت بالنشوة ، وغمرتها سعادة عارمة .

ووقف الصياد الشاب خافق القلب ، ينظر إلى البحر فى استعطاف ، يحس كأنما يحلم حلما جميلا ، وراح الوقت يمر وهو ثابت فى مكانه ، ثم حمل ما اصطاده وانصرف ، وكان أغلى ما عاد به كنز المشاعر الذى صبته فى مهجته الحورية الحسناء .

وعادت الحورية إلى الأرض وراحت تتلفت فى فرح ، وفاض سرورها حتى إن الدموع طفرت من مآقيها كاللآلئ وسقطت على الشاطئ ، وسرعان ما خرجت من الأرض لأول مرة الزنابق البيضاء .

فقالت نادية ، وهى تدنو بكرسيها منه :

— جميل ، وبعد ؟

وسرى فى مجدى قلق وأسى ، فهو يقص على حبيبته التى لا تحس حبه مأساة حياته ، ترى أتفطن نادية إلى أنه هو الحورية فى هذه الأسطورة ، الحورية ؟! ليته كانها ، لقد ضمها حبيبها إلى صدره ، ولثم شفتيها ، بينا هو قد حرم من أن يبوح بما فى نفسه من جراح .

وتأهب ليستأنف سرد مأساته ، قال :

— وفى سكون الليل كان الصياد يتجه إلى البحر ، ويتقابل هو والحورية التى شغفت به حبا فى غفلة من الرقباء ، وعرضت الحورية عليه ذات ليلة أن ينطلق معها إلى عالمها الساحر العجيب ، وراحت تمنيه الأمانى وهو يصغى إليها مبهورا ، وحسبت أن حلمها الجميل أوشك أن يصبح حقيقة ، فلما قال لها إنه لو غاص معها فى أعماق البحر فسيموت صفعها الواقع الأليم ، فرضيت كارهة أن يكون الشاطئ الفاصل بين عالمها وعالمه وكل دنياهما ، ومسرح ما بينهما من وجد وهيام .

وأفاق الصياد الشاب من خدر اللحظات المسحورة، ففطن إلى أن ما بينهما

إن هو إلا سراب ، وهم كبير ، لا يطفئ غلة ولا يروى ظمأ ، فأحب فتاة من عشيرته ، وتعلق قلبه بها ، وخُتم ذلك الحب بالزواج .

وراحت الحورية تنتظر الحبيب فى لهفة ، ومرت ليالى دون أن يأتى للقاء ، فاعتصر الحزن قلبها ، وراحت تذرف الدموع السخان ، بيد أن شعاعا من الأمل كان يجاهد ليبدد ما فى جوفها من سواد .

وفى ذات ليلة كان الظلام حالكا ، والبحر يهدر ويزمجر ، وهى على الشاطئ جالسة ترقب قدومه فى لهفة ، وإذا بريح عاتية آتية تحمل النبأ الفاجع ، قالت لها : إنه تزوج من فتاة من جنسه ، أنسته كل ما كان بينكما من غرام .

وتمزق قلبها وانهمرت دموعها ، وظلت بين نشيج ونحيب حتى بكت دما ، وسقطت قطرات من الدم الزكى على الأرض ، فأنبتت زنابق حمراء ، وفاضت روح الحورية ، وفى لحظة تحلل جسدها ، وأخرجت الأرض طيبا وبخورا ، ومنذ ذلك الوقت أصبح حرق البخور قربانا لروحها .

وساد الصمت بينهما برهة ، وإن كانت صيحات المستحمين تتجاوب فى كل مكان ورفعت نادية رأسها ثم قالت :

ــ لماذا ضحيت بالحورية ؟

ــ هذا هو واقع الحياة ، سعادة قوم تبنى دائما على شقاء آخرين .

ــ ألا يمكن أن يسعد الجميع ؟

ــ يا ليت ، لو أحب رجلان امرأة ، فسيفوز أحدهما بها ويشقى الآخر . ولو أحبت امرأتان رجلا ، فستفوز به واحدة وتشقى الأخرى .

ــ ولماذا لا يفرح من أخفق فى حبه لأن من أحبها قد سعدت فى حبها ، ونحن نقول دائما إن غاية أمانى المحب سعادة حبيبه ؟

ــ من يسمو فى حبه إلى هذه الدرجة يصبح بخور البشرية ، وأحسب أن

ذلك نادر ، لأننا لا نشم للبشرية عبيرا ،

— جميل أن نسمو بعواطفنا .

— إنا نشتهى السمو بوجداننا ، ولكن ركبت فينا غرائز تستبد بنا ، قد تجرى على ألسنتنا أحيانا أحاديث الملائكة ، فإذا انفعلنا ثارت بين ضلوعنا انفعالات الأبالسة !

وخرج أحمد من البحر وراح يهرول نحوهما والماء يقطر منه ، فقدمت إليه نادية المنشفة ، فتناولها منها وراح يجفف وجهه وشعره وهو يقول :

— أشعر بجوع شديد .

فقالت نادية وهى تحمل المقعد الذى كانت جالسة عليه :

— الطعام جاهز ، هيا بنا وسيتغدى مجدى معنا .

وراح حارس الشاطئ يرقب حركاتهم ، فكر أكثر من مرة فى أن يذهب إليهم ليفضى إليهم بالسر الذى يضيق به صدره ، بيد أنه أرغم نفسه على أن يتريث إلى أن يعودوا إلى الكابينة .

وحمل أحمد المظلة ، وحمل مجدى الكراسى الأخرى ، وسارت نادية وهما فى أثرها ، وقد حقد مجدى على نفسه لما اكتشف أنه يتعمد أن يتأخر ليسعد بالتطلع إلى مفاتنها .

وبلغوا الكابينة ووضعوا فيها ما معهم وهموا بإغلاقها ، وإذا بحارس الشاطئ يقترب منهم ويخف لمعاونتهم ، ثم يلتفت إلى نادية ويقدم لها الإيشارب وهو يقول :

— سقط هذا المنديل من السيدة التى كانت مع البك .

ودق قلبها دقا عنيفا ، وتدفقت الدماء الحارة إلى وجهها وانفجرت كل مستودعات الثورة فى أعماقها ، ولكنها جاهدت نفسها جهادا عنيفا لكيلا

يبدو عليها أثر المباغتة المحزنة ، وقالت وهى تتناول منه الإيشارب :

— شكرا .

وابتعدت عنه خشية أن تخونها عبراتها ، وجعلت تصرف أنيابها فى غيظ ، وتمهلت حتى لحق بها مجدى ، فسددت إليه نظرة هائلة أحس أنه يكاد يذوب من حرارتها ، وقالت له فى غضب :

— لماذا كذبت على ؟ لماذا لم تقل لى إن أبى تزوج ؟

فقال أحمد فى بلاهة :

— تزوج ؟

وأطرق مجدى، و لم ينبس بكلمة ، وقالت نادية فى انفعال :

— كيف لم أفطن لما سألتك عن أبى إلى أنك تحاول أن تخفى عنى شيئا ؟ كنت أشفق عليه من أن يمضى أسبوعا وحده !

وقال أحمد فى أسى :

— خدعنا .

وقالت نادية لمجدى :

— قل لى : متى عرفت أنه تزوج ؟

فقال مجدى فى اقتضاب :

— عندما جئت إلى الإسكندرية ذهبت إليه فى البيت وطرقت الباب ، وإذا بسيدة تفتح لى ، فرحت أتلفت زائغ البصر ، حسبت أنى أخطأت البيت ، ولما سألتنى عن بغيتى سألتها عن شوقى بك ، فقالت لى : إنه موجود ، ودارت على أعقابها لتخطره بوجودى ، فانتهزت هذه الفرصة وهبطت فى الدرج هاربا .

— لماذا ؟

— لم أشأ أن أدخل فى حياته الخاصة .

فقالت نادية فى انفعال :

— لم تعد له حياة خاصة بعد أن ماتت أمى .

وقال أحمد :

— إنه بهذا الزواج يطعن كرامتنا !

وقالت نادية لمجدى :

— وهل رأيتها معه بعد ذلك ؟

— رأيته جالسا وهى إلى جواره أمام الكابينة ، وقد رأتنى وأشارت له إلىّ ، فقام وأقبل علىّ ، ولكنى هربت منه فى الزحام ، وأخذت أعدو مبتعدا عنه ، أنت تعلمين أنى لا أحب أن أتدخل فى شئون غيرى .

وبلغوا البيت فدخلوا مطرقين ، وارتموا فى أقرب مقاعد صادفتهم وهم صامتون ، وهبت نادية واقفة فجأة وقالت :

— هذا الزواج لا بد أن يُفسخ .

فقال مجدى فى دهش :

— أترغمينه على تطليقها ؟!

فقالت نادية فى إصرار :

— إن أراد ألا يعكر العلاقات بيننا وبينه ، لن أسمح أبدا أن تأخذ امرأة أخرى مكان أمى .

فقال أحمد فى يأس :

— قُضى الأمر وأخذت امرأة أخرى مكانها .

فقالت نادية فى عناد :

— هذه نزوة ولا بد أن يكفر عنها .

ثم راحت تغدو وتروح ثائرة ، وانفجرت قائلة :

ـــ ماذا يريد من الدنيا بعد أن بلغ هذا العمر ؟!

وجاء عثمان وقال :

ـــ تفضلوا .

وساروا إلى السفرة يجرون أرجلهم ، وساد الصمت ، وفترت حركة الأيدى حتى أحمد الذى استبد الجوع به عافت نفسه الطعام ، و لم تقدر نادية على أن تنسى مسألة أبيها لحظات فقالت فى عزم :

ـــ سأسافر الليلة إلى القاهرة وأقابله وأضع لهذه المهزلة حدا .

ونظر إليها أحمد فى قلق ، لم يدر بخلده أن المسألة قد تصل إلى أن يعودوا إلى القاهرة فى نفس اليوم الذى جاءوا فيه منها ، وقال مجدى فى هدوء :

ـــ من رأيى أن تتريثى .

ـــ لا أستطيع أن أصبر على ما حدث .

ـــ ليس الأمر هينا ، الموضوع يحتاج إلى تفكير .

ـــ عليه أن يختار بيننا ، نحن أم هى . أما أن يجمع بيننا وبينها فهـذا مستحيل .

ـــ نصيحتى ألا تتحديه ، سيثور لكرامته وستخسرين المعركة .

وقال أحمد فى صوت متخاذل :

ـــ كلميه فى التليفون .

وقال مجدى فى حماس :

ـــ هذا رأى وجيه ، وعلى ضوء ما تسفر عنه المكالمة يمكنك أن تقررى .

ـــ وأين أكلمه ؟

وقال أحمد مزهوا كأنما حل مشكلة عويصة :

— فى بيتنا .

فقالت نادية فى انفعال :

— وما أدرانى أنه سيبيت الليلة فى البيت ؟ كان يخدعنا ونحن هناك ويبيت عندها .

وقال أحمد وهو يهز رأسه :

— كنت أصدق أنه يصلى الفجر فى السيدة زينب !

وقال مجدى :

— جربى ، واطلبيه مكالمة خاصة .

وقال أحمد وقد أرضته الفكرة :

— أظن ست دقائق كافية لتقولى له كل ما فى نفسك .

فقالت نادية :

— سأحاول أن أكلمه الليلة ، فإذا لم أجده فسأسافر غدا لمقابلته .

وأحس مجدى راحة لأنها عدلت عن السفر ، كان فى قرارته يتمنى أن تظل إلى جواره يسعد بقربها ، وإن حاول أن يقنع نفسه أنه يزجى إليها النصح خالصا دون أن يكون لهواه أثر فى محاولة تسفيه فكرة عزمها على السفر إلى القاهرة .

وفى الليل كانت نادية تغدو وتروح فى قلق فى مكتب التليفونات ، تنتظر المكالمة ، وكانت أفكار كثيرة تدور فى رأسها حتى اختلط عليها الأمر لا تدرى بماذا تبدأ .

وناداها موظف التليفونات ، وقال لها :

— كابينة ٣ .

وهرع أحمد إلى الكابينة يسبقها ، ولكنها جذبت منه سماعة التليفون فى

انفعال وقالت :

ـــ آلو .. بابا ؟

وكان على الطرف الآخر شوقى وعفاف وقد جهزا حقائبهما وهبطا من الطبقة الثانية للفرار إلى السد البرانى ، قال شوقى :

ـــ نادية ؟ مساء الخير .

فقالت فى صوت ثائر وإن تهدجت نبراته :

ـــ وجدنا إيشارب زوجتك .

وقال وهو ينظر إلى عفاف وقد أحس بدء هبوب العاصفة :

ـــ احتفظى به إلى أن تعودى .

ـــ سآتى غدا .

ـــ غدا سنسافر إلى لبنان .

ـــ بابا ، لماذا خدعتنا ؟ لماذا طعنت كبرياءنا ؟

ـــ قلت لك يا نادية إنى سأتزوج . حاولت أن أتفاهم معك ؛ ولكنك ركبت رأسك .

ـــ قلت لك يا بابا لن أوافق على أن تتزوج أبدا .

ـــ افهمي يا نادية ، هذه حياتى وأنا حر فيها ، ولن أسمح لأحد أن يتحكم فىّ .

ـــ إننا أبناؤك، ومن حقنا أن نصون كرامتنا وكرامتك، إنك تمتهن نفسك.

فقال فى ثورة :

ـــ نادية ، إنى لم آخذ رأيك يوم جئت إلى هذه الدنيا ، ولن آخذ رأيك فى شأن من أخص شئونى .

ـــ حياتك ليست ملكا لك وحدك ، إنها أيضا حياتنا .

ـــ لن أسمح لطفلة أن تسيرنى على هواها .

ـــ سأمزق الإيشارب ، سأحرقه .

ووضعت سماعة التليفون فى غضب ، وراح شوق يهتف :

ـــ نادية !.. نادية !.. نادية !..

وغادرت نادية الكابينة والدموع تترقرق فى عينيها ، وأحمد يسير فى أثرها مطرقا ، وفاض أساها فالتفتت إلى أخيها وقالت فى عزم :

ـــ لن أستريح حتى أحطم هذا الزواج .

٢٠

انقضى أسبوع ونادية تصغى إلى مجدى وفى قلبها مرارة ، كان يخنقها أنها أصبحت عاجزة عن أن تفعل شيئا بعد أن سافر أبوها وتركها وحيدة تمضغ غيظها .

ونامت على مر الأيام ثورتها ، وإن استقرت البغضاء لذلك الزواج فى أعماقها ، وإن ازدادت عزما على أن تفصم عراه ، وأن تنتقم للإهانة التى سُددت إليها .

واستيقظت فى صبيحة يومها هذا منشرحة الصدر متفتحة النفس ، يبدو كل ما تقع عليه عيناها جميلا ، كان اليوم يوم الخميس ، اليوم الذى سيقبل فيه عماد ، ويسعد فيه القلب بقرب الحبيب .

وذهبت متطلقة الوجه إلى سيدة تناقشها فى أمر طعام اليوم ، وما كانت تحفل بذلك أو تهتم به ، كانت تترك لسيدة حرية اختيار الأصناف التى تقدمها ، وكانت تسخر من أحمد لما يطلب منها طهو صنف تشتهيه نفسه ، أما

اليوم فهو شيء آخر ، شيء عجيب أن يحتفى به ، فعماد آت بعد سبعة أيام كلها ملل وسأم وجفاف ، تعلمت فى هذه الأيام أنها لا تحتمل بعده . فهو هواؤها وهو ماؤها وهو خبز حياتها ، وهو طعام روحها وغذاء مشاعرها ووجدانها .

فى محنتها تفتقده ، وفى وحدتها تشتهيه ، وفى نومها تحلم به ، صار الدم الذى يجرى فى العروق والشرايين ، والنور الذى تشع به العيون ، ورفرفات القلب بين الضلوع .

ووقفت أمام المرآة تتزين ، وقد نسيت كل شيء إلا أنها أنثى تتأهب لاستقبال الرجل الذى تتمنى أن تبدو رائعة فى عينيه ، فارتدت قميصا أبيض مفتوح الصدر يظهر منبت الأخدود الغائر بين نهديها ، وبنطلونا طويلا ملتصقا بجسمها فى لون الورد ، وربطت شعرها بمنديل من حرير من لون البنطلون ، أخفى مؤخر رأسها ، وأبرز فتنة الهالة السوداء التى عاونت الوجه على أن يأتلق بالحسن ، وزينت أذنيها بحلقتين واسعتين من الذهب الأصفر ، ودارت أمام المرآة دورة وهى تلقى على نفسها نظرة أخيرة ، فأحست رضا ، ورفت على شفتيها بسمة حلوة .

وسارت إلى الشاطئ رخاء كأنها نسيم الصباح ، وفتحت الكابينة وأخرجت منها مقعدا طويلا تمددت فيه ، وراحت تتلفت وهى تتعجل الزمن ، تتمنى لو أن الوقت الفاصل بينها وبين لقاء عماد ينعدم ، أو أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد نفسها إلى جواره فى السيارة ، ولتنطلق بهما بعد ذلك إلى حيث تشاء ، فقد تركزت كل أمانيها فى أن تكون بقربه .

ونبت فى جنباتها قلق لذيذ مشحون بآمال مشرقة ، وأمانى عذبة ، ومشاعر خلابة ، ونبضات تومض بالحب واللهفة واللوعة ولذة الترقب ،

ولم تقو على احتمال المشاعر المتدفقة فى جوفها وهى ساكنة ، فقامت من على كرسيها ، وراحت تذرع الشاطئ صاعدة هابطة ، تمد بصرها إلى الأفق مرة ، وتلتفت إلى الكابينة مرة ، وتقلب عينيها فى الناس مرات ، دون أن تميز شيئا واضحا ، كانت مشغولة عن كل ما حولها بالعالم الكبير القائم فى كيانها .

وضاقت بالشاطئ وبالأفق وبالبحر وبالناس ، فعادت إلى مقعدها الطويل وتمددت فيه ، وهى متبرمة من الزمن الذى يسير سير السلحفاة ، وجاء أحمد ودخل إلى الكابينة وخلع ثيابه وخرج وهو يتحدث ، وهى لا تعى مما يقول شيئا ، وإن هزت رأسها مرات لتوهمه أنها معه ، بينا كانت مع أفكارها بكل حواسها .

وهرول أحمد إلى البحر ، ولم تتبعه بنظرها كأنما كان شيئا تخايل لها ليقطع عليها الأفكار الشهية التى تدور برأسها ، وقد أراح نفسها أن ابتعد عنها .

وجاء مجدى ، ووقعت عيناه عليها وهى فى زينتها ، فوقف ينظر مبهورا ، يسعد بالمشاعر الرقيقة الناعمة التى تدفقت من كنوز فؤاده ، وهفت نفسه إليها حتى تمنى لو يظل واقفا يلعقها بنظراته الولهانة دون أن تفطن لوجوده ، بيد أن الحقيقة طغت على سطح ذهنه ، فعكرت صفو اللحظة المسحورة ، وجعلت قلبه ينقبض ويسكب بين ضلوعه مرارة الغيرة .

وراح يقاوم الإحساسات الغليظة التى عصفت به فجأة ، ويرد نفسه إلى هدوئها ، حتى إذا آنس أنه يستطيع أن يتحدث دون أن تفضح عما اعتمل فى صدره نبرات صوته قال :

ـــ صباح الخير .

فأفاقت من شرودها وقالت فى ترحيب :

ـــ مجدى ! تعال .



واتجه إلى الكابينة وعاد وفى يده كرسى من كراسى الشاطئ ، وجلس إلى جوراها وهو يرنو إليها وفى عينيه ومضات إعجاب ، بيد أن غيرته عاودت زحفها وفحيحها ، فلم يستطع أن يكتم أنفاسها وقال :

— عماد قادم اليوم .

وتهللت أساريرها وقالت :

— نعم . ترى ماذا يحمل إلينا ؟

فقال مجدى وهو يجاهد نفسه ليبدو هادئا :

— خفقات قلبه ، وعذب حديثه ، وإشراقة الآمال !

وقالت نادية فى انفعال :

— انزاحت عن قلبى غشاوات كثيرة لما بعد عنى ، أحسست أن لا وجود لى بدونه ، إنه حياتى وكل دنياى .

وأراد مجدى أن يجاريها فى حديثها ، بيد أن ذلك كان فوق طاقته فقال فى اقتضاب :

— جميل .

— يا طالما رددت طوال هذا الأسبوع ما قلته لى يوم صور لى غرورى أنى قادرة على أن أعيش راهبة ، وأن أكتفى بصداقته .

وراحت تقول فى حماسة ما علق فى ذهنها من حديث مجدى :

— كل نجاح فى الحياة يتضاءل إلى جوار النجاح فى الحب ، الجامعة كلها لا تساوى خفقة قلب ، ما أكثر السعداء الذين يعيشون دون مؤهل دراسى ، وما أشقى الذين يعيشون بلا حب .

والتفتت إلى مجدى وقالت :

— كيف غاب عنى ساعتها ما فى قولك من صدق وحكمة ؟

وابتسم مجدى وإن كان قلبه يدمى ، وزاد فى أساه أن رن فى جوفه صوته يقول : « تُرى أتبكى دما ليلة زفافها كما بكت الحورية ليلة علمت بزواج حبيبها الصياد ؟ أتموت كما ماتت لتنبت جثتها الطيب والبخور ؟ » .

وقالت نادية وهى تنظر من فوق كتف مجدى :

— لم يكن طريقى واضحا فى أية لحظة من لحظات حياتى كما هو واضح الآن .

وقامت فجأة وصاحت فى فرح :

— عماد ! عماد !

والتفت مجدى خلفه فرأى عماد قادما مشرق الوجه ، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ، ونادية تهرول إليه تستقبله ، فنهض وتقدم نحوهما فى هدوء وإن خانته انفعالاته .

ومدت نادية يديها إلى عماد فتلقاها بين يديه ، وقالت فى غبطة :

— حمدالله على السلامة .

— كيف أنت يا نادية ؟ اشتقت كثيرا إليك .

وهمست نادية فى وجد :

— تعال ، أين كنت يا حبيبى ؟

وصاح مجدى وهو يبسط ذراعيه :

— مرحبا بك يا عماد .

وهتف عماد فى انشراح :

— أهلا مجدى .

وتعانق الصديقان ، وضغط عماد على مجدى وهو يضمه إلى صدره ، كان يعبر عن رغد المشاعر التى كانت تنفجر فى جوفه ، والتفت عيناه بعينى نادية

فإذا بالعيون تومض ومضات تفصح عما فى القلوب من وجد وحنين ورفرفات وأناشيد غرام .

وابتعد مجدى عن عماد ، ولزم الصمت ليفسح للمحبين ويتيح لهما مجالا للمناجاة ، وخف عماد إلى نادية وقال :

ـــ مبارك ، ظهرت النتيجة .

وأسرع مجدى يقول :

ـــ الأولى من غير شك .

فقال عماد فى فرح :

ـــ الفرق بينها وبين الثانى عشرون درجة .

ولم يدر رأس نادية الخبر السار ، كانت أقصى أمانيها قبل الامتحان أن تتفوق على أترابها جميعا ، أما الآن فقد استولت عليها أمنية واحدة ، أن تكون لعماد بكل كيانها ، بكل مشاعرها وأفكارها وأمانيها ، فابتسمت ابتسامة هادئة دون أن تقفز من الفرح كما كان عماد يتصور .

وحسب عماد أن المفاجأة أذهلتها ، فقال فى حماس ليزيدها سرورا :

ـــ وسنحتفل الليلة بهذا النجاح الباهر .

وظلت الابتسامة تتوج شفتيها وهى شاردة ، تصغى إلى صوتها الذى كان يرن فى أعماقها يقول : « ليتنا نحتفل الليلة بزواجنا » .

وقال عماد وهو يتلفت :

ـــ أين أحمد ؟

فقال مجدى وهو يشير بأصبعه إلى البحر :

ـــ هناك ، يغسل أيام التلمذة ليستقبل أيام الكفاح .

فقال عماد فى صدق :

ـــ أرجو أن ينجح هذا العام .

فقالت نادية وهى تسير إلى جوار عماد وجسمها يلتصق بجسمه :

ـــ إنه واثق من النجاح .

وكانوا قد وصلوا إلى الكابينة ، فقالت نادية لعماد :

ـــ ناولنى الجاكتة .

فتأهب ليخلعها وأسرعت نادية تعاونه ، ثم حملتها فى عناية كأنما تحمل شيئا ثمينا ودخلت الكابينة ، وهناك ضمت الجاكتة إليها فى حنان كأنما كانت تضم عماد ، ومررت خدها عليها فى وجد وهى تنعم بالمشاعر اللذيذة التى كانت تدغدغ كل خلجة من خلجات نفسها .

وعلقت الجاكتة فى حرص ، وراحت تنقب بعينيها عن شىء فى الأرض ، حتى إذا ما وقعتا على الشبشب التقطته فى خفة ، وخرجت إلى حيث كان عماد ، وقالت له وهى تضع الشبشب عند قدميه :

ـــ اخلع الحذاء وأرح رجليك .

وجلس عماد على كرسى الشاطئ الصغير ، وراح يخلع حذاءه ، ومجدى لا يدرى ماذا يفعل ، وظل يتلفت فى حيرة وذهنه يعمل ، فاستقر رأيه على أن ينسحب ، فقال لهما :

ـــ عن إذنكما .

فرفع عماد إليه عينيه وهو يخلع حذاءه وقال له :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى البيت .

ولم يسأله أحدهما عن سبب ذهابه إلى البيت فى هذه الساعة ، وقالت له نادية :

ــ ستتغدى اليوم معنا .

فقال مجدى فى ارتباك :

ــ طبعا .

وسار لا يلوى على شيء بينا راحت نادية تصلح وضع المقعد الطويل وتقول لعماد :

ــ تعال هنا ، إنك تستحق أن تستريح بعد تعب السفر .

فقام عماد وتمدد فى المقعد الطويل ، وشرد ببصره مغتبطا وقال :

ــ كان سفرا ممتعا لذيذا ، لأن طيفك كان معى أناجيه ويناجينى بما أشتهى !

فقالت وهى تدنى الكرسى الصغير من كرسيه وتجلس عليه :

ــ وماذا قلت له ، وماذا قال لك ؟

فقال عماد وهو يرنو إليها فى حب :

ــ قلت له بصوت نابع من قلبى : نادية كنت أبتغى أن تعلن خطبتنا ، كانت هذه الخطبة كل ما يشغل بالى ، ولكن بعد أن غبت عنى هذه الأيام التى خلتها دهورا تيقنت أنى لا أحتمل بعادك ، لا أستطيع أن أعيش إلا إذا استنشقت عبيرك .

نادية ! لست أول فتاة تتزوج وهى طالبة فى الجامعة ، فما أكثر الطالبات المتزوجات بها ، نادية ! أرجوك من كل خفقات قلبى ، وخلجات نفسى ، وومضات عقلى أن ترطبى جفاف حياتى ، وأن تقبلى أن نتزوج .

ورقت مشاعرها ، واشتد وجيب فؤادها ، وكادت تولد فى عينيها دموع فرح ، وتراقصت على طرف لسانها عبارات ناعمة مستسلمة ، بيد أنها جاهدت الحنين الذى كاد يخدر كل حواسها ، وقالت فى صوت حنون زاخر

بالمحبة :

— وماذا قال لك طيفى ؟

فقال عماد وهو مسحور بإحساساته :

— كان غاية فى الرقة واللطف ، نطق بكل ما أشتهيته وهفت إليه نفسى ، قال :

يا حبيبى ، أنت حياتى ، أنت الروح التى تسرى فى جنباتى ، أنا لك طوع بنانك ، فقلت له فى لهفة : لنتزوج.فقال كأنما كان رجع صوتى : نتزوج .

ونظر فى عينيها وقال :

— نادية ما رأيك فيما وعدنى به طيفك ؟

انبهرت أنفاسها من الانفعال ، وتدفقت مشاعرها الحالمة الرقيقة حتى غمرتها وكست كل ملامحها ، وفاضت فى عينيها وعلى شفتيها وجرت على لسانها ، قالت :

— لم يكن طيفى معك ، بل كنت أنا بروحى ووجدانى وكل حواسى ، كنت أناجيك وأهتف من أعماقى : أحبك ، عماد أنت حياتى ، أنت أملى ومناى ، ليتنا نتزوج الآن !

وهب واقفا وكل ما فيه يهتز طربا ، وما لبث أن ركع إلى جوارها ، وأخذ يديها فى كفه ، وقد خيل إليه أن الكون كله يزغرد وينشد نشيد المحبة على موسيقى الطبيعة الخالدة التى تعزف للعاشقين ألحان النشوة ، منذ أن عرف الحب طريقه إلى قلب آدم وحواء ، وتركزت كل مشاعره فى كلمة واحدة هتف بها وهو يضطرب اضطرابا ، قال :

— نادية .

فهتفت قائلة فى حنان

— عماد .

٢١

قامت نادية فى السحر تحس نشاطا يسرى فيها ، وعواطف بهيجة فتحت نفسها وروحها وقلبها حتى خيل إليها أنها قادرة على أن تسع الدنيا كلها ، ومشت كالطيف إلى غرفة أخيها فألفته يغط فى نومه فتركته وانسلت إلى الحمام وارتدت لأول مرة المايوه فهى لم تنزل إلى البحر منذ جاءت إلى الإسكندرية .

ووقفت أمام المرآة تنظر إلى صدرها وسيقانها الملفوفة ، ثم دارت دورة وفحصت بعينين راضيتين ظهرها العارى واستدارة أردافها ، وعادت تلقى على نفسها نظرة أخيرة قبل أن ترتدى بنطلونها الذى كان فى لون الذهب الأصفر ، والجاكتة الواسعة التى كانت من نفس اللون .

ووضعت على رأسها قبعة من القش الأصفر اللامع المجدول يزينها شريط ذهبى ، وحملت فى يدها حقيبة صنعت من قش القبعة ، تدلت إلى جوار ساقها حتى كادت تصل إلى منبت قدمها ، ودست رجلها فى شبشب رقيق سيوره رفيعة تبدو كأنها أشرطة من ذهب .

وانطلقت إلى حيث كان أحمد راقدا وراحت تناديه فى رقة :

ــ أحمد .. أحمد .

وراح أحمد يدور فى سريره وهو نائم ، يزوم استياء ، فمدت نادية يدها إليه ، وأخذت تهزه فى رفق وتقول :

ــ أحمد قم ، ألم نتفق مع عماد على أن نرقب الشروق معا ؟

فقال أحمد دون أن يفتح عينيه :

— دعيني أنام .

فاشتد هزها له وقالت :

— اتفقنا معه على أن يمر علينا قبل الشروق ، ولقد حان الميعاد . قم ارتد ملابسك .

فقال وهو يخفي أذنه بذراعه التي لفها حول رأسه حتى لا يسمع صوتها الذي كاد يطير النوم اللذيذ من عينيه ، وقال :

— اذهبي أنت معه ، وسألحق بكما لما أشبع من النوم .

ووقفت نادية تنظر إليه فإذا به قد عاد إلى الهجوع ، فهزت كتفيها استسلاما وراحت تجوس خلال الغرف تتعجل مرور الزمن ، وقد ملأت الأشواق جوانحها . ودخلت الشرفة ، وتطلعت إلى الأفق فألفت طلائع النور بدأت تزحف ، وسرى صوت يؤذن بالفجر فخشعت ، وخيل إليها أن الكون كله ينفث سحرا .

وعادت إلى فراشها وتمددت فيه والأفكار المشرقة تملأ رأسها وتهز مشاعرها ، فعما قليل تصبح زوجة لمن شغفت به حبا ، وطاف بذهنها ما فعله أبوها والحماقة التي ارتكبها ، فانقبضت وغامت سماء سعادتها وراحت تفكر فيما ستقوله له بعد أن يعود من سفره وتبدأ المعركة بينهما .

وكانت بهجتها طاغية ، فما أسرع ما بددت سحب الكدر ، وغسلت رواسي الأسى ، وخنقت أنفاس الأفكار المريضة التي كادت تمدها بحمى الحنق والثورة والغضب ، وراحت تسكب فيها عواطف رقيقة ، وتغذيها بآمال عذبة ورؤى حبيبة تدور حول فارس أحلامها .

ومس أذنيها صوت الكلاكس فكان أشهى من موسيقى راقصة ، وهبت

فى فرح وهى تهتف من سويداء قلبها :

ـــ عماد ! عماد جاء .

وراحت تجرى وكل ما فيها يرقص طربا ، وفتحت الباب وما أسرع ما صفقته خلفها وهبطت فى الدرج فى خفة الغزال ، واندفعت إلى السيارة وهى مأخوذة بروعة العواطف التى تتفجر بين أضلعها .

وخف عماد إليها يستقبلها ، فقالت له :

ـــ صباح الخير .

فقال وهو يفتح لها باب السيارة :

ـــ صباح الجمال . أين أحمد ؟

ـــ سيلحق بنا لما يشبع من النوم .

وملأت رئتيها بالهواء وقالت :

ـــ ما أجمل نسيم هذا الصباح !

فقال عماد وهو يجلس خلف عجلة القيادة :

ـــ ما أروع أن نكون معا ! إنى أرى فيك يا نادية كل ما فى الطبيعة من جمال ، فسواد شعرك ظلام ليل زاخر بالغموض والأسرار ، وعيناك بحار تخفى كنوزا لا يصل إليها إلا من يغوص فيها إلى الأعماق ، وشفتاك أطيب ما فى الكون من ثمار، وصوتك شدو البلابل وأغاريد الصباح ، وأنفاسك الحارة إن هى إلا روح الحياة ، وعبيرك عبير الحقول والورود والأزهار ، وشبابك ربيع الحسن والفتنة والخيال .

واسترخت نادية فى جلستها وأشرق وجهها بالرضا ، وتوردت وجناتها سعادة ، وومضت عيناها ببريق خاطف يفضح النشوة المعربدة فى كل وجودها ، ورفت على شفتيها بسمة حالمة وقالت :

— مسكين مجدى ، ليس أمامه إلا أن يحطم قلمه ويهجر الشعر ويخر ساجدا تحت قدميك !

فقال عماد وهو يرنو إليها فى حب ، ويحس كأنما يحلق فى السماء :

— كل المحبين شعراء .

وراح النور يرفع الخمار الأسود عن وجه السماء ، فتبدو زرقاء صافية لا يشوبها شائبة سحاب ، وأخذ البحر يعابث الشاطئ يدغدغه بالموج ويرتفع الزبد كما ترتفع الضحكات ، ثم ينحسر الماء ليعاود دعاباته وغمزاته وقهقهاته ، ووقفت السيارة بالقرب من الشاطئ بعد أن ذرعت طريق الكورنيش مرات ، وهبط منها عماد وحبيبة الفؤاد وانسابا كلحن جميل إلى الكابينة .

ودخلت نادية وخلعت ثيابها ، ثم خرجت وهى فى المايوه كأنها عروس البحر ، ورماها عماد بنظرة كشفت عن الإعجاب الذى ملأ نفسه ، ثم انسل يخلع ملابسه .

وراحت نادية تملأ رئتيها بالهواء ، وتصغى إلى زقزقة العصافير ، وزفيف الشجر الذى قام سامقا كأنه حراس على الشاطئ ، ورفيف الهواء وخفق أجنحة الطيور ، ففاضت نشوتها حتى إنها راحت تعدو كظبى رشيق مفتون بما فى الوجود من سحر وطمأنينة وسلام .

وخرج عماد من الكابينة وتلفت ، فألفاها تجرى على أطراف أصابعها وتسرى فى الفضاء خفيفة كسريان الأمانى فى الأخيلة ، فراح يجرى نحوها ، وأحست به فاندفعت إلى الماء وارتمت بين أحضانه ، وراحت تشقه كالسهم المنطلق ، وقفز إلى الماء خلفها واندفع فى أثرها ، وراحت تتلفت وهى تحاول أن تبتعد عنه ، بيد أنه لحق بها وغاص فى الماء ثم ارتفع من تحتها ، وأمسكها من

ذراعها فإذا بها تصرخ فى مرح ، ثم تجلجل فى الفضاء ضحكاتها .

ونظر أمامه وقال لها :

ـــ إلى الجزيرة .

فقالت وهى تضرب الماء برجليها :

ـــ أخشى أن أتعب قبل أن نصل إليها .

ـــ أمسكى بقدمى .

ودفع جسمه فى الماء وطفا على سطحه ، ولوى عنقه وقال لها :

ـــ هيا .

وركبت الماء وأمسكت بقدميه ، فراح يشق طريقه بذراعيه وهى تضرب بقدميها ، فكانا كجسم واحد طويل يمخر عباب البحر ، ينطلق سعيدا إلى أمل طابت ثماره ، وأصبحت قطوفه دانية .

وأصبحت الجزيرة على مرمى حجر منهما ، فتركت نادية قدميه ، وتقدمت إلى جواره ، وراحا يستبقان ، ومرق عماد وانساب فى الماء حتى صار على بعد ذراع من الأرض ، فعاد أدراجه يستقبل نادية ، ويدور حولها ويقول لها :

ـــ لست أدرى بماذا يقضى الذوق السليم ، أأسبقك وأكون فى شرف استقبالك أم أسير فى ركابك أعاونك على أن تصعدى إلى الأرض .

فقالت وهى تزيح الشعر عن وجهها :

ـــ الذوق السليم يقضى أن تسير إلى جوارى ، كتفك إلى كتفى ، تصغى إلى وأنا أتحدث عن نفسى ، فإذا ما تركت لك فرصة للكلام فلك مطلق الحرية فى أن تتحدث عنى بما تشاء وتشتهى !

فابتسم وقال لها :

— أنت روحى ، أنت حبى ، أنت عينى ، أنت حياتى .

ودنا منها وطبع على خدها قبلة ، وكانا قد وصلا إلى شاطئ الجزيرة فراح يعاونها على الصعود ، ثم صعد خلفها .

ووقفا يلتقطان أنفاسهما ويتلفتان فلم يجدا أحدا ، كانا وحدهما ، فقال عماد :

— ليتنا نبقى هنا أنا وأنت وحدنا إلى الأبد .

فقالت نادية وهى تلقى عليه نظرة حب :

— كنا نموت من الجوع والعطش .

فقال عماد وهو يعصر فكره :

— نمد أنبوبة ماء عذب إلى الجزيرة ، ونبنى جوسقا ، ونصطاد السمك ونعيش سعيدين بعيدا عن العالم وشروره !

فقالت نادية فى بساطة :

— لو فعلنا ذلك لأصبحت الجزيرة فندقا سياحيا ، ولما وجدنا الوقت الذى نستطيع أن نخلو فيه لأنفسنا !

وقال عماد وهو يزفر فى راحة :

— أسعد أيام حياتى هى تلك التى أعود فيها إلى أمنا الطبيعة .

ونظر إلى حيث كانت الشمس تشرق ، وقال لنادية فى انبهار :

— انظرى ! يا للروعة !

وراحا ينظران إلى القرص الأحمر الذى بدا كأنه ينبثق من البحر ، وقد تضرجت صفحة الماء وصفحة السماء بحمرة رائعة انتثرت فى حسن يهز القلوب ، وقال عماد فى فرح :

— ما أحلى الشروق ! إنه ميلاد وإشراق وصعود .

فقالت نادية وهى ترصد المنظر الجميل :

— إنى أحب الغروب ، ففيه سحر الغموض .

فقال عماد معارضا :

— الغروب انحدار وأفول .

ولف ذراعه حولها وقال فى انفعال :

— متى يا نادية يشرق يوم حياتنا معا ، يوم يربطنا الرباط المقدس إلى الأبد !

فقالت نادية تشاكسه :

— حياتنا ستبدأ بعد الغروب ، فما من عقد زواج يُعقد إلا فى الليل، وما من زفاف يتم إلا بعد أن تغفو العيون .

فقال لها فى زهو :

— العلاقات الشريفة كلها تعلن فى النور .

وراحت الشمس ترتفع وتأتلق بعد أن ذابت عنها حمرة الخجل ، وتنفخ فى الكون روح الحياة ، واستلقى عماد على ظهره وشخص ببصره إلى السماء كأنما يتلقى وحيا ، ونامت نادية على بطنها واستمرت تعبث بيدها فى الأرض ، وساد بينهما سكون أشبه بسكون البراكين ، على السطح هدوء ، وفى الجوف غليان ، وشغل كل منهما عن الآخر بما فى نفسه من انفعالات ، حتى إذا ما تململت نادية ووقعت عيناها على عماد وألفته شاردا ، أفاقت مما كانت فيه ، وقالت له :

— بم تحلم ؟

فدار عماد نصف دورة حتى صار على جنبه ، ودارت نادية حتى أصبحت على جنبها ووجهها أمام وجهه ، ونظر إليها فى ود وقال :

ـــ كنت أحلم بعشنا الجميل ، تصورى يا نادية أن شيئا أضاء فى رأسى فرأيت رأى العين بيتنا ، وأنا وأنت نتحدث وأولادنا عند أقدامنا يلعبون .

فقالت فى وجد :

ـــ أولادنا ؟

ـــ إنهم ثلاثة ، ولدان وبنت ، قطعة منك . نفس الشعر الأسود ، ونفس العيون ، ونفس الشفاه الممتلئة . أقول لك الحق ولا تغضبى ؟

فقالت فى انشراح :

ـــ قل .

فقال وهو يبتسم :

ـــ أحسست بعض الغيرة لما رأيت أنهم لم يأخذوا شيئا منى ، إنهم أنت إلا أن أحجامهم صغيرة .

وتحركت أمومتها فقالت :

ـــ كل ما أتمناه من دنياى أن يكون لى أولاد وأن أفرح بنجاحهم .

فهب عماد واقفا وقال :

ـــ نفد صبرى ، لن أستطيع أن أنتظر أكثر مما انتظرت ، سأذهب إلى أبيك يوم عودته وأطلب يدك منه فى المطار .

وأشاحت نادية بوجهها عنه فقد انقبض صدرها وهبطت من السموات التى كانت تحلق فيها لما ذكرها بأبيها ، لم تشأ أن يرى انفعالات الغضب التى ارتسمت على محياها ، أو أن تعكر لحظات الصفو التى يمرح فيها طليقا يرشف كئوس السعادة ويهيم فى دنيا الأمانى .

وراحت تجاهد عواطفها وتخنق مشاعر الحنق التى تحركت فى صدرها ، فهى تعرف ما وطدت العزم عليه ولن تجنى من الغضب إلا أن تأكل نفسها

وتؤلم عماد وتحرك أساه فى أمتع أيام حياته .

وهبت واقفة واتجهت إليه وقالت تداعبه :

— لو وجد رجل وامرأة أنهما وحدهما فى جزيرة وأرادا أن يتزوجا ، فمن ذا الذى يعقد قرانهما ؟

— الله .

ولف ذراعه حولها وشخص إلى السماء وقال :

— يتوجهان إلى الله ويقول الرجل : يا رب إنى اتخذت نادية زوجة لى ، وإنى أشهدك على ذلك .

وفاضت انفعالاتها حتى أن الدموع ترقرقت فى عينيها . وقال فى حماس :

— ليتنا نجد أنفسنا وحدنا فى جزيرة دون رقيب !

والتفتت نادية ، فرأت فتاة تصعد من البحر إلى الجزيرة فابتسمت وقالت لعماد :

— انظر ! لقد جاء الرقيب .

وضحك عماد وقال :

— لو كنا وحدنا فى جزيرة وجاءت هذه إلينا لخلقت لنا مشكلة .

وصمتت نادية قليلا ثم أغرقت فى الضحك ، فقال لها :

— ما الذى يضحكك ؟!

فقالت وهى لا تزال تضحك :

— تذكرت القصة التى تروى أن سفينة تحطمت ، وأن رجلا وست فتيات نجوا منها والتجئوا إلى جزيرة مهجورة ، وكيف أن النساء تعاركن كل منهن تريد أن تفوز بالرجل ، ثم اتفقن أخيرا على أن يكون لكل منهن ليلة ، وأن يستريح فى اليوم السابع ، وحدث أن سفينة أخرى تحطمت بالقرب من هذه

الجزيرة ، وإذا بشبح يسبح نحو الشاطئ . فوقف الرجل والنسوة ينتظرون القادم فى لهفة وترقب ، وكانوا جميعا يتمنون صادقين أن يكون رجلا ، وصعد إلى الشاطئ فإذا به امرأة ، فخر الرجل مغشيا عليه ، ضاع يوم الراحة !

وابتسم عماد وهو ينظر إلى البحر ، وإذا بست فتيات يصعدن إلى الجزيرة ، فصاح عماد :

ـــ النجاة .. النجاة .

وألقى بنفسه فى البحر ، وقفزت نادية خلفة وهى تضحك ، وراحا يركبان الموج فى مرح ، ويستبقان إلى الكابينة ، ومجدى على الشاطئ يرقبهما وهو صامت ، وضايقه ذلك الوجوم الذى استبد به ، فرفع يده وراح يلوح بها ويهتف :

ـــ عماد ! عماد !

وخطر له أن يعدو ويقفز كأنما كان يغيظ نفسه .

وخرج عماد من الماء ، وخف إلى مجدى وضمه إلى صدره دون أن يحفل بالماء الذى بلل ثيابه ، وقال له فى انشراح :

ـــ استعد يا مجدى لتقوم بأخطر عمل فى حياتك .

فرمقه مجدى فى تساؤل دون أن ينبس بكلمة ، وقال عماد :

ـــ ستكون شاهدا يوم عقد قرانى .

فقال مجدى فى هدوء :

ـــ ومتى ذلك ؟

ـــ لما يعود شوقى بك من لبنان .

وخرجت نادية من الماء ، فأسرع إليها عماد ، وقال لها :

— ما رأيك يا نادية فى أن نبعث برقية إلى شوقى بك نستأذنه فى أمر زواجنا ؟

وأرادت نادية أن تجاريه فقالت له :

— وماذا نقول له فيها ؟

فالتفت إلى مجدى وقال له :

— فكر معنا . ماذا نقول له فيها ؟

فقال مجدى وهو شارد يفكر :

— شوقى بك . فندق فونيشيا . لبنان . أحب ابنتك وهى تحبنا زوجونا .

وأرادت نادية أن تفر من الذكريات التى تحرك مواجعها ، وأن تسدل ستارا على أبيها وعلى تلك المرأة التى خطفته منهم حتى يعودا ويحين وقت النزال ، فقالت :

— فلننتظر .

وقال مجدى لعماد :

— اصبر . كل آت قريب .

وسارت نادية ومشى عماد ومجدى إلى جوارها ، حتى إذا ما بلغوا الكابينة تمددت نادية على كرسيها ودخل عماد يبدل ثيابه ، ونظرت نادية إلى مجدى وقالت له :

— كيف عرفت أن أبى فى فندق فونيشيا ؟

فارتبك مجدى وقال :

— من عماد .

— ومن أين عرف عماد ؟

ـــ أرسل شوقى بك رسالة إلى الدكتور محمد من هناك ، ولما قابل عماد الدكتور حدثه عنها .

ـــ ولماذا لم يذكر لى عماد شيئا عنها ؟

ـــ الظاهر أنه لم يشأ أن يثير غضبك .

ـــ وهل فيها ما يغضبنى ؟

ـــ أبدا .

ـــ ما شاء الله ! كلكم تعرفون ما فى الرسالة إلا أنا . قل لى ، ماذا جاء فيها ؟

فقال مجدى وهو زائغ البصر :

ـــ قال شوقى بك إنه حزين لأنك لم تستطيعى أن تفهمى موقفه ، ومما يزيد أساه غضبك الذى لا يجد ما يبرره ، إن كبده تكاد تفطر كلما تذكر أنه سافر وأنت تبكين .

فقالت نادية فى حدة :

ـــ لو كان يكره أن يحزننى أو لو كان لى وزن عنده ما أقدم أبدا على ما فعل . وماذا فى الرسالة أيضا ؟

ـــ طلب من الدكتور أن يحاول إقناعك بأن ما فعله شىء طبيعى ، وأنه ليس أول من تزوج بعد موت زوجته ، وأنه قد كتب عليه أن يتجرع الكأس الثانية .

ـــ كتب عليه أن يتجرع الكأس الثانية ؟ ومن ذا الذى كتبها عليه ؟ الرجال ينحرفون عادة بعد سن الخمسين ، أذكر أنى قرأت شيئا كهذا .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـــ وهل اقتنع الدكتور بما جاء فى الرسالة ؟

ولزم مجدى الصمت ، فقالت له فى انفعال :

ـــ لماذا سكت ؟

ـــ لأنى لم أقابل الدكتور ، كنت معك هنا .

وراح صدرها يعلو وينخفض وأخذت تصرف أنيابها غيظا ، ومجدى يرنو إليها من بين أهدابه وهو صامت ، وإن أحس كدرا لذلك الحزن الذى ران عليها واستبد بها ، وسولت له نفسه أن يجلس إلى جوارها وأن يحاول إقناعها بأن ذلك الغضب إن هو إلا أنانية منها ، بيد أنه خشى أن يفسد بكلامه الصفاء الذى بينها وبين عماد ، فآثر أن يلوذ بالصمت وأن يحبس لسانه فى سجنه .

وخرج عماد من الكابينة بعد أن ارتدى ثيابه ، فهبت نادية وانسلت إليها كأنها تفر من شىء ، واتجه عماد إلى مقعدها ، وتمدد فيه ، ومد بصره إلى مجدى فألفاه مطرقا ساهما فقال له :

ـــ يخيل إلى أن شيئا ما وقع بينك وبين نادية .

ـــ لا أدرى كيف جرتنى إلى حديث الرسالة التى جاءت من أبيها .

ـــ وقلت لها كل شىء ؟

ـــ كل شىء إلا أنه لن يخضع لإرادة غير إرادته فى أخص ما يخصه .

فقال له عماد وهو يربت على ظهره :

ـــ أنت بطل . لم أجد فى نفسى الشجاعة لأفاتحها فى هذا الموضوع .

فقال له مجدى :

ـــ ستكون لها زوجا مثاليا .

وضايقه أن دوت فى جوفه ضحكة هازئة ، وتمنى لو يستطيع أن يسدد ضربة قاضية لذلك الخبيث الذى فى نفسه والذى لا هم له إلا محاولة النيل من عماد والسخرية منه ، وتقطيب الجبين وانقباض القلب إذا ما تهللت أسارير

صديقه أو غمرته السعادة .

واعتدل فى كرسيه وقال له :

ــ عماد ! متى تسافر ؟

ــ الليلة . لا بد أن أكون على مكتبى غدا صباحا .

وخرجت نادية وقد ارتدت ثيابها التى كانت فى لون الذهب ، ووضعت قبعتها على رأسها وتدلت حقيبتها التى كانت من الخوص المجدول من يدها حتى كادت تلمس الأرض ، ورماها مجدى بنظرة إعجاب ، وزاد إشراق وجهه أنه قرأ الهدوء على محياها . وانطلقوا على الكورنيش يتمشون دون أن يأتى لأبيها أو الرسالة التى بعث بها ذكر على لسان أحدهم .

وفى الليل كان عماد فى سيارته يتأهب للسفر ، وكانت نادية تودعه وقد فاضت مشاعرهما حتى إنهما راحا يتعانقان ، ثم قالت نادية :

ــ مع السلامة يا حبيبى :

فقال عماد وهو يبتسم :

ــ إلى اللقاء قريبا فى مطار القاهرة .

وانطلق بسيارته ثم التفت خلفه ، فألفى نادية واقفة تلوح له بيدها ، فلوح لها بيده ثم انساب فى طريقه حتى ابتلعه الظلام .

٢٢

استيقظت نادية من نومها نشيطة منشرحة الصدر ، تشعر بالجوع يعض جوفها ، فذهبت إلى حيث كانت سيدة ، وطلبت منها أن تعد طعام الإفطار ، ثم عادت إلى حيث كان أحمد ممددا يطالع صحف الصباح ، وكانت تغنى

أغنية خفيفة تنم عن الفرحة المنتشرة بين جوانحها .

وخطفت من يد أحمد الصحيفة فهب ثائرا ، فقالت له مهددة :

— أحمد ، إذا تحركت مزقتها .

ونفخ أحمد فى ضيق وأطرق مستسلما ، ثم عاد وتمدد على الأريكة ، وجلست نادية على كرسى قريب من رأسه ، وراحت تقرأ فى الصحيفة وقد وضعت ساقا على ساق .

واستمرت تقلب الصفحات ، واستوقف نظرها خبر جعلها تركز كل حواسها فيه ، وما لبثت أن هبت فجأة وهى تصرخ صرخات مفزوعة ، فقام أحمد يرتجف وقلبه يدوى فى صدره دويا ، وقبل أن يصل إليها ألفاها قد انهارت على الأرض مغشيا عليها وقد سقطت الصحيفة إلى جوارها .

وجاء عثمان وسيدة يهرولان ، وسيدة تصيح فى لهفة :

— ماذا جرى ؟ ماذا جرى ؟

ووقعت أعينهما على نادية وهى ممددة على الأرض ، وأحمد إلى جوارها يحاول أن يحملها بين يديه ، فوقفا مشدوهين لحظة ، ثم هرولت سيدة إليها وراحت تعاون أحمد فى رفع نادية .

ووضعاها على الأريكة ، وأخذ أحمد يضربها على وجهها بيده وهو ينادى فى فزع :

— نادية ! نادية .

وجرت سيدة تحضر ماء ، والتفت أحمد إلى عثمان وقال له :

— عثمان ! دكتور .. دكتور حالا .

ودار عثمان على عقبيه لا يدرى أين يذهب ، وعادت سيدة وفى يدها كوب ماء وراحت ترش الماء على وجه نادية ، حتى إذا ما حركت رأسها

أسرعت سيدة تدلك لها قدميها ، وراح صدر نادية يعلو وينخفض فى سرعة ، وأحمد ينظر إليها فى خوف وإشفاق وينادى :

— نادية ! نادية !

وتحرك جفناها وانتظم نفسها ، فذهب أحمد إلى الصحيفة والتقطها ، وراح يقلب صفحاتها وهو يكاد يموت رعبا ، وقد سرت فيه قشعريرة شديدة وأحس غثيانا ، ووقعت عيناه على الخبر الذى أطار صواب أخته فراح يقرؤه وقد انبهرت أنفاسه ، ثم انهار على المقعد الذى كانت تجلس عليه نادية وهو يبكى وينتحب ، ويهتف من قلب واله حزين :

— عماد ! عماد !

فقالت له سيدة فى لهفة :

— ماذا جرى ؟

فقال وعبراته تخنقه :

— قتل عماد فى حادثة ، قتلته سيارة لورى .

فقالت سيدة وهى تولول :

— يا خرابى ! يا خرابى يا ستى !

ونظرت إلى نادية نظرة إشفاق ، وما لبثت أن أشاحت بوجهها وغادرت الغرفة لتفر بعواطفها .

وظل أحمد مطرقا يبكى حتى أحس حركة إلى جواره ، فرفع رأسه وراح ينظر من خلال دموعه ، فرأى نادية تهم بالجلوس ، فخف إليها يحوطها بذراعيه ، ويجاهد ذلك الحزن الثقيل الذى نزل بصدره .

وشخصت إليه بعينين جامدتين ، ووجهها شاحب كوجوه الموتى ، و لم يحتمل أن ينظر إليها طويلا ، فارتمى على صدرها وراح ينتحب كالأطفال .

ودفعته فى رفق وقامت ، وراحت تسير كالشبح وهى تقول :

ـــ قتلته ؟ أنا التى قتلته ؟ لو لم أسافر إلى الإسكندرية ما جاء إليها وما لقى مصرعه .

وجرى أحمد إليها والرعب يملؤه ، وأمسك بذراعيها وراح يهزها وينظر فى عينيها ويصيح :

ـــ نادية ! نادية !

فقالت وهى شاردة :

ـــ أحمد ! قتلت عماد . قتلت عماد .. أنا قتلته .

ولاحظ أنه لم تطفر من عينيها عبرة ، تحجرت فى مآقيها الدموع ، فتمزقت نياط فؤاده ، وراح يبكى ويقول :

ـــ نادية ! عماد مات . انتهى أجله .

وغلبته دموعه فراح ينشج وقد تحشرج صوته وخنقته عبراته ، كان يطمع فى أن تبكى لتنفس عن نفسها ضغط أحزانها التى ستذهب بعقلها ، بيد أن دموعها عصت أن تجرى لتطفئ النار المتلظية فى حشاياها .

وسارت إلى غرفتها وهى ذاهلة عن كل ما حولها بالرزء الفادح الذى انقض عليها انقضاض الصواعق ، فأشعل فيها حزنا طاغيا ناءت بحمله ، وفاق طاقات مشاعرها .

وراح أحمد يغدو ويروح وهو حزين ، يتلهف على أن يعود عثمان والطبيب ، فلم يعد يحتمل رؤية أخته وهى شاردة تهذى بتصوراتها وتؤكد أنها هى التى قتلته .

وسمع حركة عند الباب فهرع يحتمى بالقادم ويلوذ به ، فإذا به يرى مجدى مقطب الجبين ، وفى وجهه حزن عميق ، فقال له فى صوت مخنوق :

ــ أقرأت النبأ ؟

فقال مجدى وهو زائغ البصر يتحامى أن تلتقى عيناه بعينى أحمد :

ــ مصيبة .. مصيبة جسيمة .. أين نادية ؟

ــ هناك فى غرفتها .

ــ تتركها تبكى وحدها ؟!

ــ تبكى ! يا ليت ! إنها فى ذهول وقد تحجرت فى عينيها الدموع ، تعتقد أنها هى التى قتلت عماد .

ــ مسكينة ! إنها صدمة مروعة .

ورفع بصره إلى السماء وقال :

ــ لطفك يا رب .

وانطلقا إلى غرفتها فإذا بها قد استلقت على بطنها وأخفت وجهها فى الوسادة ، فدنا مجدى منها وقال لها وهو يتجلد ويجاهد أحزانه :

ــ نادية ! البقية فى حياتك .

وظلت فى صمتها ، ومال عليها وقال لها :

ــ إنها مصيبة .. خسارة كبيرة ، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل وقد نفذ سهم القدر ؟ لو كان الحزن يجدى لبكينا بدل الدموع دما .

فقالت وهى تضرب الفراش بقبضة يدها :

ــ قتلته .

فقال مجدى فى أسى :

ــ قتله أجله ، الأعمار بيد الله .

فقالت فى إصرار :

ــ قتلته .. قتلته .

فقال لها مجدى وهو فى شدة الانفعال :

ـــ إن ما أنت فيه يغضب عماد .

وقالت وهى تضرب الفراش بقبضتيها :

ـــ قتلته .. قتلته .

وأحس دموعا تبلل روحه وتكاد تطفر من عينيه ، فراح يكبح جماح نفسه وقال :

ـــ لا تكدرى صفوه ، فما يخفف علينا وقع المصاب أنه مات وهو فى قمة سعادته ، وقد اطمأن إلى أنه قد حقق أعز أمانيه .

وخانته شجاعته فأجهش بالبكاء ، وإذا بنادية تنفجر باكية وتنادى فى لوعة :

ـــ عماد ! عماد حبيبى .

وراحت تضرب الفراش بيديها ورجليها ، وأحمد ومجدى ينظران فى أسى ، وفاضت أشجان مجدى ولم يستطع أن يصبر على ما يرى ، فمال نحوها ورفعها بين يديه وضمها دون وعى إلى صدره ، وهو يذرف دمعه وهى تكاد كبدها تنفطر من البكاء ، وسالت عبرات أحمد وإن أحس شيئا من الراحة لبكاء أخته .

وأقبل عثمان وقال :

ـــ جاء الدكتور .

فقال أحمد وهو يتحرك لاستقباله :

ـــ قل له تفضل .

فقامت نادية وقالت :

ـــ لا .. لا أريد أحداً . لا أريد أحدا .

فقال لها أحمد فى توسل :

ـــ نادية ! أرجوك .

ـــ أحمد ! يكفينى ما أنا فيه .

فالتفت مجدى إلى أحمد وقال له :

ـــ اصرفه .

فمشى أحمد مستسلما وخرج من الغرفة ، وسارت نادية تجر رجليها إلى حيث كانت حقيبتها ، فحملتها ووضعتها على النضد القريب من سريرها وفتحتها وراحت تجمع فيها حوائجها ، وقال لها مجدى :

ـــ نادية ! علام عزمت ؟

ـــ سأسافر الآن ، لم يعد لى هنا بقاء .

ـــ ألا تتريثين حتى تستريحى ؟

ـــ ولت أيام الراحة ، بل انتهت كل أيامى .

وصمت مجدى ، وإن كان يتبعها بعينيه وهى تغدو وتروح محنية الظهر كأنما دبت الشيخوخة فيها فجأة ، فأحس قلبه يعتصر أسى ، وغص حلقه ، وترقرقت دموعه فى عينيه ، وفاض تأثره حتى آثر أن يهرب من وطء انفعالاته فقال لها :

ـــ سأسافر معك .

وغادر الغرفة ومشى نحو الباب ، فإذا بأحمد عائد فقال له :

ـــ لا تترك نادية وحدها حتى أعود .

ـــ إلى أين ؟

ـــ أجهز حقائبى .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأننا سنعود إلى القاهرة .

وحملوا حقائبهم وأحزانهم وركبوا القطار عائدين ، وجلسوا صامتين وإن كان كل منهم يفكر فى عماد ويجرى وراء الذكريات ، كانت نادية تستعيد ما كان بينها وبينه فى الأمس القريب ، وقلبها ينز حزنا وأسى وهما وأشجانا ، وراح صوته يرن فى أعماقها يقول : « تصورى يا نادية أن شيئا أضاء فى رأسى فرأيت رأى العين بيتنا ، وأنا وأنت نتحدث وأولادنا عند أقدامنا يلعبون ، إنهم ثلاثة ، ولدان وبنت ، قطعة منك ، نفس الشعر الأسود ، ونفس العيون ، ونفس الشفاه الممتلئة ، أقول لك الحق ولا تغضبى : أحسست بعض الغيرة لما رأيت أنهم لم يأخذوا شيئا منى ، إنهم أنت إلا أن أحجامهم صغيرة » .

وأسبلت جفنيها على عينيها حتى لا يرى أحد فيهما ما يدور فى أعماق نفسها ، وراح ذلك الصوت الذى يهمس فى أغوارها يقول : « عماد ! أكانت تلك الأيام التى مرت هى كل حياتك ؟ أكانت تلك اللحظات هى كل وجودك ؟ إن كان ذلك حقا فما أتفه الوجود ! » .

ونظرت من زجاج نافذة القطار إلى الطريق ، وإذا بخاطر يطوف برأسها يؤكد لها أن سيارته لا تزال هناك ، مهشمة كآمالها ، محطمة كحياتها ، فراحت ترصد السيارات بعينين مفتوحتين وقد أرهفت كل حواسها ، ونظر مجدى إليها وظل يرقبها مدة ، حتى تأكد ما يدور بخلدها ، فنهض وأغلق خصاص النافذة ثم عاد إلى مقعده وما لبث أن ساد بينهم ذلك السكون القلق البغيض .

وانثالت الذكريات على رأس نادية ، راحت تتذكر كل ما كان بينها وبين عماد ، وكان يحز فى نفسها ويزيد أساها أنها كانت فى وقت من الأوقات تفضل أن تتم دراستها على أن تتزوجه ، فياليتها قد تزوجته ولو لليلة وحققت

له كل ما تمنى !

وراحت أسئلة كثيرة تدور فى رأسها : « لماذا ولد ؟ ولماذا جاء إلى الدنيا ؟ ولماذا مات ؟ وما حكمة كل هذا ؟ وما الميلاد ؟ وما الوجود ؟ وما الموت ؟ ومن هو ؟ ومن أنا ؟ ظلام .. ظلام .. ظلام .. » وأحست كـأنها فى دوامة ، وخيل إليها أن عجلات القطار تنادى : عماد .. عماد .. عماد ، وأن صفارة القطار تعوى وتولول ، وأن الكون كله صوات ، وأن كل من حولها أشباح أموات، وطافت برأسها أمنية ، فإذا بذلك الصوت الـذى يهجس فى نفسها يقول : « آه لو أن هذا القطار يستمر فى سيره إلى حيث يكون عماد » .

وراح الزمن يمر وئيدا وئيدا ، وكل شيء يضيق حتى يكاد يكتم الأنفاس ، واستبد بهم السأم والملل والغثيان ، فتركزت كل أمانيهم فى أن يغادروا هذا القطار .

وأخيرا بلغوا محطة مصر ، فنزلوا من القطار واجمين ، وساروا مطأطئى الرءوس والأبصار ، واشترى مجدى صحيفة المساء ولكنه لم يجرؤ على أن يفتحها ، خشى أن تفطن نادية إلى ما يريد أن يبحث عنه .

واستقلوا تاكسيا ، وقال أحمد للسائق :

ـــ طريق الهرم من فضلك .

وأراد الرجل أن يدخل السرور على قلوبهم فأدار الراديو ، وإذا بصوت شادية ينبعث بأغنية : « يا دبلة الخطوبة » ، فقالت نادية للسائق فى انفعال فيه حدة :

ـــ أغلق الراديو من فضلك .

ومد الرجل يده وأغلق الراديو ، وأطبق على الجميع صمت حزين .

ووقف التاكسى أمام الفيللا فهبطوا منه ، ودخلت نادية وهى واجمة ، وسارت إلى غرفتها وارتمت فى سريرها .

ووقف أحمد ومجدى يرقبانها وهى تصعد فى الدرج ، حتى إذا ما غابت عنهما ارتميا فى مقعدين ، وفتح مجدى الصحيفة وراح يقرأ ثم قال :

ـــ الجنازة الساعة الخامسة ..

فقال أحمد وهو يتلفت :

ـــ أرى أن نذهب الآن .

ونهض وقال فى صوت خافت :

ـــ قبل أن تعرف نادية .

وغادرا البيت ، وراح عثمان وسيدة يتأهبان لاستئناف حياتهما الرتيبة ، وكانا من وقت لآخر يتحدثان عن عماد .

وأخذت نادية تتقلب فى فراشها وكأنها تتقلب على جمر . وضاقت بما هى فيه فقامت وغادرت غرفتها وهبطت فى الدرج فى خطا وئيدة ، ثم اتجهت إلى غرفة الاستقبال ، وشخصت ببصرها إلى صورة أمها وقالت والدموع تترقرق فى عينيها :

ـــ ماما ! قتل عماد بعد أن اتفقنا على الزواج ، وباعنا أبى من أجل امرأة ، فأصبحت وحيدة . أنا حزينة يا ماما يكاد قلبى يتمزق ، أحس كأنى فى دوامة لا أكاد أعرف شيئا ، بيد أن الشىء الوحيد الواضح أمام عينى وضوح النهار أنى يا أماه لن أكون كأبى ، لن أخون عهد عماد كما خان عهدك . سأعيش ما بقى من حياتى له ، له وحده ، بعد أن مات قلبى ، ودفنت كل آمالى وأحلامى .

ماما ! لقد جاء إليك عماد فاسهرى عليه واغمريه بعطفك ، وقولى له إن

نادية لن تنساك ، وستعيش على ذكراك إلى أن تلقاك .

وخنقتها عبراتها فراحت تنشج وتنادى وكل جسمها يرتجف :

— ماما ! ماما ! ماما !

وارتمت فى مقعد قريب ، وأخفت وجهها بكفيها وأخذت تبكى حتى أحست كأن كيانها يتصدع وأنها تتمزق لتتطاير وتتناثر .

٢٣

أعدت سيدة طعام الإفطار ووضعه عثمان على المائدة ، وقامت إليه نادية ، وما لبث أن جاء أحمد وقال :

— ستعلن النتيجة اليوم ، وأنا خائف .

فقالت له نادية فى دهش :

— ألم تقل إنك واثق من النجاح ؟

— لن تهدأ نفسى إلا بعد أن أقرأ اسمى بعينى هاتين .

وجاء الدكتور يتمطى ويتثاءب وقال :

— تأخرت الطائرة عن موعد وصولها أكثر من ساعة ، وصلت فى الثانية صباحا ، وغادرنا المطار فى الثالثة ، إنى أكره السهر .

وجلس والتفت إلى نادية وقال :

— تضايق أبى لما لم يجدك فى المطار .

— لن أقابله أبدا ما دامت هذه المرأة معه .

— كان أول سؤال سأله لما التقينا به : أين نادية ؟

وأطرق أحمد ، وقالت نادية للدكتور :

ـــ علمت أنك أنت الذى حملتهما إلى المطار فى سيارة أبى .

ـــ نعم ، وماذا فى ذلك ؟

ـــ لقد باركت الإهانة التى ألقاها فى وجوهنا .

ـــ نادية ! إنه أبى . هذه حقيقة . لم تكن كياسة منك ألا تذهبى لاستقباله ، وكنت قاسية لما زينت لأحمد ألا يذهب .

ـــ يذهب لماذا ؟ ليرتمى فى أحضان امرأة أبيه !

وراح أحمد ينظر إليهما نظرات قلقة ، كان فى أعماقه يتمنى أن يُرضى الجميع ، وألا يسيء إلى أبيه أو إلى نادية ، بيد أن زمام أمره فى يدها توجهه حيث تريد ، ويا طالما نجحت فى أن توجهه إلى حيث لا يرضى ولا يتمنى .

وفى لمح البصر رأت نفسها وعماد إلى جوارها فى الجزيرة ، ورن فى جوفها صوته يقول :

ـــ نفد صبرى ، لن أستطيع أن أنتظر أكثر مما انتظرت ، سأذهب إلى أبيك يوم عودته وأطلب يدك منه فى المطار .

وراحت تسأل نفسها : أأصرت على عدم استقبال أبيها لأنه حز فى نفسها أن تذهب دون عماد ؟ وأنكرت هذا السؤال أشد إنكار ، فلو أن عماد لم يمت ما سمحت له أن يكون فى استقبال تلك المرأة التى خطفت أباها منهم .

وقال الدكتور وهو ينظر إلى نادية وأحمد :

ـــ سيأتى اليوم ليقابلكما .

ووقف الطعام فى حلق أحمد ، وزاغ بصره ، ونزل به خوف شديد ، فماذا يقول لأبيه إذا ما سأله عن سبب تخلفه عن استقباله ؟ وقالت نادية فى تحد :

ـــ إنى فى شوق إلى هذا اللقاء ، ولن أرضى بأقل من أن يغسل الإهانة التى

ألحقها بنا .

فقال محمد وهو يفحص نادية بعينيه :

ـــ وكيف يغسلها ؟

فقالت نادية فى ثقة :

ـــ ينفصل عنها .

وقال أحمد وقد استمد شجاعته من أخته .

ـــ يطلقها ، هذا هو الحل .

وقالت نادية فى تأكيد :

ـــ ولا حل غيره .

وعاد أحمد يستشعر ضعفا وبالخوف يسرى فى جوفه ، وراح يعاتب نفسه على ما نطق به ، فقد قالتها نادية ، وما كان الموقف فى حاجة إلى حماسته ، كل ما فى الأمر أن ما جرى به لسانه سيحسب عليه يوما .

وتناولوا إفطارهم ، وذهب أحمد يطلع على النتيجة ، وخرج الدكتور إلى عيادته ، وبقيت نادية وحدها تغدو وتروح فى البيت بلا هدف ، تتناول كتابا وتقرأ بعض صفحاته ثم تلقى به بعيدا ، وتتمدد فى فراشها وما أسرع أن تضيق به فتنهض وتغادره ، وتتجه إلى التليفون وتنظر إليه مليا ثم توليه ظهرها ، فلم يعد هناك من تحادثه أو تجد متعة فى أن تصغى إلى عذب حديثه .. خواء .. خواء .. خواء .. ملل .. ملل .. ملل .. سأم .. سأم .. سأم ، ثم لا شىء غير الذكريات والأحزان .

وذهبت إلى حيث كانت سيدة فوجدتها تقوم بتجهيز الغداء ، فتناولت سكينا وجلست معها تقطع الوقت بتقشير الخضر والخوض معها فى أحاديث تعاونها على الفرار من نفسها .

ونظرت فى ساعتها وأحست شيئا من الراحة ، لأنها قطعت من حياتها الجافة ساعة وبعض ساعة !

وعادت إلى الردهة وجلست فى مقعد مواجه للباب ، وفكرت فى أن تقتل وقتها ببعض أشغال الإبرة ، وكادت تستريح للفكرة ، وإذا بصوت ساخط يسألها : ولمن هذه الأعمال ؟ ألعماد أم لبيت عماد ؟ فأخفت وجههـا بيديها .

ورن جرس التليفون فأحست رنينه فى أعماقها وفى تلافيف مخهـا ، فهاجت عواطفها ، وذهبت إليه فى خطوات بطيئة وتناولت السماعة وهى قلقة ، وقالت :

ـــ آلو .

ـــ نادية ؟ صباح الخير . أنا مجدى . أين أحمد ؟

ـــ خرج . ذهب ليطلع على النتيجة .

ـــ أرجو أن يطمئننى على نفسه لما يعود . السلام عليكم .

ـــ وعليكم السلام .

ووضعت سماعة التليفون وعادت إلى مقعدها ، وراحت تفكر فى حديث مجدى ، كان قصيرا أقرب إلى برقية ، لم يتبسط معها فى الحديث كما كانت عادته ، ولم يسألها عن حالها وقد انقضى أسبوع على ذلك اليوم الأغبر الذى عادوا فيه من الإسكندرية معا ولم يأت لزيارتهم ، وغمغمت :

ـــ إن الناس يهربون من الحزانى .

ومس أذنيها وقع أقدام وهرولة ، وإذا بصوت أحمد يدوى هاتفا وفيه رنة فرح :

ـــ نادية ! نادية !

ودخل وهو يقفز فى مرح كالأطفال ، وقال وهو يندفع صوبها :

ـــ نادية ! نجحت . نجحت .

وراحت تحدج فيه وهى تنكر عليه فى قرارتها كل هذا الفرح و لم يمض على موت صديقه وزميله سبعة أيام . حقا الرجال لا يعرفون الحزن ، ليس لهم كما يقال مرارة ، وشخصت ببصرها إلى السقف وراحت تحدث روح عماد ، قالت : عماد يا حبيبى ، لا تحزن ، إن نسيك كل الناس فسأبقى لك ، لن أنساك ما حييت .

وقال أحمد فى حماس وانشراح :

ـــ عرفت من بعض أصدقائى ممن يعملون فى الكلية أنى حصلت على البكالوريوس بدرجة جيد ، تصورى يا نادية بدرجة جيد !

ووجدت أن جمودها قد يجرح شعوره فقالت له :

ـــ وماذا ستفعل ؟

فقال وهو لا يستقر من الفرح :

ـــ سأقدم طلبات لألتحق بوظيفة فى وزارة الزراعة ، وفى الإصلاح الزراعى ، وفى الشركات الزراعية ، وسأذهب الآن لأقدم كل هذه الطلبات .

وقال لنفسه وهو يدور منتشيا بخمر انتصاره :

ـــ والله نجحت يا أبا حميد ! عملتها يا ولد !

ورفع يده وحياها ثم انصرف وهو يلوخ لها فى ابتهاج .

وسرح خيالها ، وراحت تتذكر ما كان فى السنة الماضية ، نجح عماد ورسب أخوها ، وجاء عماد يواسيه ويقول له : لكم تمنيت لو أنك الذى نجحت ، فما كان رسوبى يزيد أحزانى بعد أن ماتت أمى ليلة الامتحان ! وظل إلى جواره طوال الليل يخفف عنه ألم الرسوب ، فما بال أحمد لم يذكر زميله

وصديقه أو يترحم عليه يوم أن نجح ؟ أحقا النسيان طبع الإنسان ؟ لا . لا . ما أكثر الأوفياء ! إنها ستظل وفية لذكرى عماد إلى الأبد ، وسيكون اسمه آخر ما يتردد على شفتيها قبل أن يطبع عليهما الموت قبلته .

وسرى إليها الملل والسأم والقلق ، وتذكرت فجأة حديث مجدى وكيف أنها نسيت أن تخبر أحمد أنه التمس أن يطمئنه على نتيجته ، فقامت إلى التليفون وأدارت قرصه ثم قالت :

ـــ آلو ! الأستاذ مجدى من فضلك .

ووقفت تنتظر حتى جاء صوت مجدى من الطرف الآخر ، يقول :

ـــ آلو ! أنا مجدى . من ؟

فقالت نادية فى صوت هادئ :

ـــ أحمد نجح .

ـــ مبارك ! أين هو ؟

ـــ خرج يبحث عن وظيفة .

فقال مجدى وهو يضحك :

ـــ أما كان يتريث ؟ ولكن هذا هو حالنا ، ما نكاد نحصل على الشهادة حتى نجرى نبحث عن عمل .

وسكت لعله يسمع منها شيئا ، بيد أنها لزمت الصمت فقال :

ـــ قولى له لما يعود ينتظرنى الليلة ، سآتى لآخذ الحلاوة .

وقالت فى صوت خافت مضطرب :

ـــ طيب !.

ووضعت السماعة فى ضيق وقد تحركت أشجانها ، ورن فى جوفها صوت استنكار :

« الحلاوة ! أيقدم أحمد لمهنئيه « الشربات » وما جف دم عماد ؟ لو حدث شيء من هذا لبصقت على البشرية جمعاء » .

وجسم مجدى فعلة أبيها ، فما فعله إن هو إلا خيانة بشعة لعشرة دامت سنين طويلة وقد أثمرت أطيب ثمار .

وجاء عثمان يهرول يعلن نادية بالنبأ ، قال فى انشراح :

ــ سيدى الكبير جاء .

وخفق قلب نادية ، واضطربت واختلطت مشاعرها ، كانت مزيجا من الخوف والحنين والحزن والغضب ، ونهضت تستقبله وهى تجمع نفسها التى ذهبت شعاعا ، ودخل أبوها ، وما إن وقعت عيناه عليها حتى بسط لها ذراعيه وناداها فى حب صادق :

ــ نادية ! أهلا .. أهلا .. أهلا .

وذهب إليها وضمها إلى صدره وهو يقول :

ــ لكم أوحشتنى .

وطفرت دموعها فراحت تكفكفها خشية أن تنال من عزمها ، وسار بها صوب الدرج الداخلى وهو يقول :

ــ كيف حالك ؟ وكيف حال أحمد ؟

ــ أحمد نجح . ظهرت النتيجة .

ــ مبارك . أين هو ؟

ــ خرج يبحث عن وظيفة .

ــ عال .. عال .

وراحت تتساءل فى نفسها : أيسير الحديث بينهما هكذا هينا لينا دون أن يخوض فيما جاء من أجله ؟! ألا يذكره نجاح أحمد بعماد ؟ ترى أيعزيها فيه أم

يتجاهل هذا الموضوع ولا يزيح عنه الستار ؟ إنها ستحقد عليه لو لم يواسها فى موت حبيبها . حبيبها ؟! وما أدراه أنه حبيبها ؟ إنها لم تحدثه عن حبها و لم يتقدم عماد إليه يوما يطلب منه يدها ، لقد مات كل ما كان بينهما قبل أن يعلن على الملأ ، إن كان يفكر فى أن يعزى أحدا فى فقد عماد ، فسيعزى أحمد الذى سيدير كئوس الشراب على مهنئيه بالنجاح ولما ينقض على مصرع عماد أسبوع واحد . فيا لسخرية القدر !

ودخلا غرفة أبيها ، وجلس على حافة سريره وأشار إلى المقعد القريب منه وقال :

— استريحى يا نادية .

وجلست وهى تنظر إليه نظرة حائرة ، تحس أنه بعيد عنها ، غريب على مشاعرها ، أيسبب دخول المرأة بينهما كل هذه الجفوة ؟ وقال أبوها فى حنان :

— نادية ! أنا أعرف أنك عاقلة ، وقد جئت لنتناقش فى هدوء ، وكل ما أرجوه أن تفهمينى .

أنت يا نادية ومحمد وأحمد كل دنياى ، أحببتكم منذ أول يوم وقعت فيه عيناى عليكم ، وراح هذا الحب ينمو مع الأيام ، عشنا معا سنين جميلة ، وعشت من قبل أن ألقاكم مع أمك فى أسعد حال ، وكنت أرجو أن تطول أيامنا حتى تستقروا جميعا فى بيوتكم ، ولكن مشيئة الله قضت أن تموت أمكم قبل أن يتحقق رجائى ، تعلقت بكم بعد موتها ، وكنت أحسب أنى سأجد فيكم العزاء .

فقالت نادية فى انفعال :

— هل قصرنا نحوك فى شىء ؟



— أبدا يا نادية ، وجدت نفسى وحيدا على الرغم من وجودى بينكم ، كنت إذا أرقت أدور فى الغرفة وحدى ، وإذا اشتهيت أن أتحدث إلى أحد لم أجد معى فى الغرفة إلا الهواء ، أصبحت الوحدة حليفى ، والملل أليفى ، والسأم شريكى فى الحياة ، وفكرت فيما ينتظرنى فى مستقبل حياتى ، ستزداد وحدتى ضراوة بعد أن يتزوج محمد ويحملك ابن الحلال إلى بيته ، لم أجد أمامى سبيلا إلا أن أتزوج .

واضطربت نادية ، وغام وجهها بالأسى ، وراح قلبها ينز حزنا ، فقد مات ابن الحلال الذى كان يرقب أوبته ليستأذنه فى أن يسمح له بأن يخطفها منه ، أصبحت هى الأخرى مثله ، أرملة وإن لم تتزوج ، فلماذا لا يعيش معها ويكتفى بسهرها عليه ، فقالت :

— قررت يا أبى أن أعيش معك وأن أترك الكلية ، سأكرس كل حياتى لك .

فنظر إليها نظرة فاحصة ، وخفق قلبه فقد فطن لأول مرة أنها شاحبة وأنها حزينة حزنا ثقيلا ، فقال لها فى إنكار :

— أتضحين بنفسك من أجلى أنا ؟! أتقضين على حياتك لتعيشى معى سنوات مهما طالت فهى قصيرة إذا ما قيست بعمرك المديد ! وماذا يكون حالك يا نادية بعد أن أموت ؟ لا يا نادية ، إنى لا أقبل أبدا مثل هذا التفكير .

فقالت نادية فى عناد :

— إنها حياتى ، وقد قررت أن أبقى معك .

فقام الأب ثائرا وقال :

— نادية ! حتى لو كرست حياتك لى فلن تستطيعى أن تقضى على وحدتى وسأمى ، افهمينى .

فهبت نادية واقفة وقالت فى غضب :

— بل قل يا أبى إنك تفضلها علينا ؟ بعتنا لتشتريها .

فذهب إليها وقال فى توسل :

— نادية حبيبتى ، لا تقسى علىّ أرجوك .

فقالت وهى تبتعد عنه :

— والله لا أدرى من منا الذى يقسو على الآخر ، تهجرنا من أجل امرأة قد تكون التقيت بها مصادفة ، وتندفع فى مغامرة لا تليق بك ، وتمرغ كرامتنا فى الوحل وتتنكر لكل ماضيك ، ثم ترمينا بالقسوة .

إنى لا أجد مبررا واحدا لما فعلت ، إننا كلنا أنا وسيدة وعثمان فى خدمتك ، رهن إشارتك .

فقال فى ضيق :

— نادية ! لم تعودى طفلة ، افهمينى . ما من رجل أو امرأة يستطيع أن يعيش فى هذه الدنيا دون أليف ، دون سكن يسكن إليه .

فقالت فى مرارة :

— كنت أعتقد يا أبى أنك طراز من الرجال أسمى من هؤلاء السائمة الذين لا هم لهم إلا إشباع غرائزهم .

فأخذ الرجل وكاد ينفجر فيها ، بيد أنه كظم غيظه وقال :

— سامحك الله يا نادية لأنك لا تعلمين .

وحسبت أنه خر منهارا بعد طعنتها التى أصابت ضعفه وأيقظت فيه الكرامة ، فقالت له :

— إنها استغلت لحظة ضعفك واستولت عليك وشدتك إليها ، كن يا أبى قويا كعهدك واقطع كل ما يربطها بك .

— لماذا ؟

— لتتحرر من أغلالها ، لترفع رأسك وتنهض بعد أن زلت قدمك .

ولم يستطع أن يصبر عليها أكثر مما صبر ، فقال فى حدة :

— نادية ، لست أول رجل تزوج بعد أن ماتت زوجه ، وليس فيما فعلته عيب أو ما يخدش الكرامة ، إنما هى أنانيتك التى تتكلم . ما الذى يضيرك من زواجى ؟ لماذا تحاولين تنغيص عيشى ؟ لماذا تكرهين أن أحيا فى راحة ؟ إن كنت تخشين أن تشاركك فيما أملك فاطمئنى ، كتبت لك ولأخويك كل مالى ، هو لكم ، خذوه واستريحوا ، ودعونى أستريح .

فقالت نادية وهى تصرخ فيه :

— لسنا فى حاجة إلى مالك ، وأنا واثقة أن ما من أحد منا فكر فيه ، أنفقه حيث تشاء ، أو ألق به فى البحر ، إنا لا نريده ولا نطمع فيه ، ولكنا نريدك ولا نريد أن نفقدك . أبى اهجرها من أجلنا .

— نادية ، لا تكونى قاسية .

— طلقها ، وإلا فستفقدنا إلى الأبد .

— هذا ظلم ولن يكون أبدا .

فقالت نادية فى إصرار :

— والله إن لم تطلقها فلن ندخل لك بيتا أبدا .

فنظر إليها نظرة طويلة والانفعالات تدور فى جنباته ، وتيقن ألا جدوى من الاسترسال فى محاورتها ، فقال لها فى هدوء :

— لا أملك يا نادية إلا أن أدعو الله أن يهديك .

ودار على عقبيه وانصرف ونادية تتبعه بنظرة ثائرة ، وزاد فى حنقها هزيمتها ، وأن الهوة التى كانت بينها وبين أبيها قد زادت اتساعا ، وانصرفت إلى

غرفتها مهيضة الجناح كسيرة الفؤاد ؟

وأقبل الليل ونادية فى غرفتها غارقة فى أفكارها السوداء ، وهى تغذى أحزانها ذكرياتها ، ودبت فى البيت حياة وارتفعت الصيحات والضحكات ، ففطنت إلى أن أصدقاء أحمد جاءوا يحتفلون بنجاحه ، فقطبت جبينها ، وزفرت فى استياء .

وصعد أحمد فى الدرج يكاد يطير من الفرح ، ودخل عليها غرفتها فألفاها قابعة فى صمت فقال لها :

— نادية ! أرسل لى أبى هدية رائعة ، تعالى شاهديها .

وذهب إليها وحاول أن يجذبها من يدها ، فأبعدت يدها عنه وقالت :

— إنى متعبة يا أحمد . اتركنى أرجوك .

— مجدى فى انتظارك ، لقد سأل عنك .

— لا أستطيع أن أقابل أحدا اليوم ، عندى صداع .

— نادية ! تعالى إكراما لى .

— اذهب لأصدقائك ولا تضيع وقتك .

فوقف صامتا برهة ثم قال فى انشراح :

— سأرسل لك نصيبك مع عثمان .

— لا ترسل شيئا ، إنى مجهدة سأنام .

وتلفت حائرا لا يدرى ماذا يفعل ، ولم يكن فى حالة نفسية تسمح بأن يكدر صفوه شىء ، فقال لها :

— سأضع نصيبك فى الثلاجة .

وانصرف وهو جذلان تكاد تهتز أعطافه من الفرح ، وظلت نادية ساهمة منقبضة النفس ، يحرك أشجانها ويملؤها حقدا أن أصدقاء عماد قد أسدلوا على كل ما كان بينه وبينهم ستار النسيان .

٢٤

ذهب الدكتور وأحمد إلى غرفة نادية وكان كل منهما يبتغى أن يحدثها فى أمر شغل باله ، كانت مستلقية فى سريرها وقد شخصت ببصرها إلى السقف ، وغابت عن كل شيء إلا تلك الأحداث التى تدور فى عقلها ، والأوهام التى اعتنقتها حتى كادت تصبح فى ضميرها عقيدة راسخة ! كانت تحاول أن تقنع نفسها أنها قادرة على أن تعيش ما بقى من عمرها وفية لذكرى حبيبها .

وتقدما من سريرها وهى ذاهلة عنهما ، حتى إذا ما هتف الدكتور وناداها أفاقت من شرودها ، وقامت بنصفها الأعلى ودارت فى السرير ودلت ساقيها ، ووقف الدكتور يتفرس فيها لحظة ثم قال :

ــ نادية ! أرى أنك لست على ما يرام ، ما الذى يضايقك ؟

لو قال ما الذى يحزنك ويعتصر قلبك لأصاب بعض الحقيقة ، إنه لا يحس النار التى ترعى فى حشاياها ، ولا النحيب الذى يتردد فى جنباتها ، ولا المأساة التى تعيش فيها ، فقالت :

ــ لا شيء .

ونظر فى عينيها وقال :

ــ لم تنامى البارحة !

ووجدت ألا مفر من أن تتحدث ، وأن تسوق سببا لهجر النوم لها ، فقالت :

— لو سمعت ما قاله أبى لطار صوابك .

وأحس أحمد قلقا يسرى فيه ، فالمعركة لا تزال محتدمة بين نادية وأبيها وعليه أن يختار جانبا ينحاز إليه ، وتمنى من أعماقه لو أن أخته تجنح للسلم وتريحه من ذلك القلق الذى وجد نفسه فيه أمام أبيه وجها لوجه .

وقال محمد فى هدوء :

— وماذا قال ؟

فقالت وهى تطرق فى حزن :

— قال إنا نقاوم زواجه لأننا نخشى أن تشاركنا زوجته فى ميراثه .

فقال أحمد فى حدة وغضب :

— لا . هذا كثير ! هذا لا يحتمل !

وقالت نادية فى يأس :

— أبى تغير ، لم يعد ذلك الرجل العاقل الذى كنا نحبه ، كبر سنه و . .

و لم يتركها الدكتور تتم حديثها فقال لها ينهرها :

— نادية !

فقالت فى سرعة وهى تزفر وتشهق فى جهد :

— لم يعد يفهمنا ويتهمنا بأننا لا نفهمه ! نحن نطمع فى ماله ؟! نحن نحارب زواجه لأنا نخاف أن تشاركنا زوجته فى الميراث ! ما كنت أتصور أبدا أن يدور شىء من هذا فى خلده ، ما كنت أتصور أن تصل إهانته لنا إلى هذا الحد .

فقال أحمد فى ازدراء :

— هذه إهانة بشعة .

وقال الدكتور محمد :

— أنا واثق من أنه ما فكر أبدا فى أن يهيننا ، أتذكرين يا نادية الألفاظ التى قالها ؟

— إنها ترن فى تجويف رأسى طوال الليل والنهار كأنها نواقيس تدق فى كنيسة تنعى البشرية جمعاء .

— ماذا قال :

— قال : إن كنت تخشين أن تشاركم فيما أملك فاطمئنى ، كتبت لك ولأخويك كل مالى ، هو لكم ، خذوه واستريحوا ودعونى أستريح .

— إنه معذور يا نادية ، فالرجل يدخر ما يستطيع أن يدخره ، وقد يحرم نفسه أشياء كثيرة ، ليوفر لأبنائه من بعده حياة رغدة . هذا هو الأمل الذى يعيش به ، فإذا ما أفصح عن هذه الرغبة فى لحظة من لحظات غضبه فلا ينبغى أن نجزع .

فقال أحمد :

— ما أبشع أن يفكر فى أننا ننتظر موته !

فقال الدكتور فى بساطة :

— إنه واثق من أنه سيموت وسيترك لنا كل ما جمعه ، وهو يجاهد ليربيه ليكون ما يخلفه وراءه عونا لنا فى حياتنا .

فقال أحمد وقلبه يخفق فى رقة :

— لست فى حاجة إلى ماله ، ولو سئلت لقررت أنى لا أريد نصيبى فى الميراث .

فقال الدكتور وهو يبتسم :

— شهامة مراهق ، لقد ورثت يا أحمد عن أبويك كثيرا من صفاتك ، فلماذا لا ترث ثمرة جهده ، وعرقه وسهر لياليه ؟ لو علم أنك لن ترثه لما بذل

جهده بسخاء .

فقالت نادية وهي تتنهد :

— ليت الناس لا يتزوجون فيريحون ويستريحون .

فقال الدكتور فى حماس :

— وتفنى البشرية ؟ لا يا نادية لست من حزبك ، سأتزوج وقد جئت لأقول إنى دعوت إيمان وأمها للغداء اليوم معنا .

فقال أحمد :

— حسنا فعلت ، فإيمان ستصبح فردا من الأسرة .

وقالت نادية :

— وهل دعوت بابا ؟

— دعوته واعتذر أنه مدعو للغداء مع وفد تجارى .

فقالت فى سخرية :

— كالوفود التى كان يتركنا ليتغدى أو ليتعشى وأحيانا ليبيت معها .

وقال الدكتور دون أن يعلق على ملاحظتها :

— وسأذهب إليه الآن فى مكتبه لنتفق على ترتيبات الزفاف .

وقالت نادية :

— إن حضرت امرأة أبيك زواجك فلن أحضر .

وصمت محمد ولم يحر جوابا ، وقال أحمد فى اضطراب :

— فكرت فيك يا نادية طوال الليل فطار النوم من عينى .

— لماذا ؟

— ماذا يكون حالك لو عينت بعيدا عن القاهرة وتزوج محمد ؟ ستعيشين فى كل هذا البيت وحدك وهذا لا يمكن أن يتصور ، لذلك قررت أن أذهب

إلى أبى ..

ولم تدعه نادية يتم حديثه وقالت فى انفعال :

ـــ لماذا ؟

ـــ ليتدخل بنفوذه ويعمل على تعيينى بالقاهرة .

فقالت فى حزم :

ـــ لا تفعل .

فقال الدكتور فى دهش :

ـــ لماذا ؟

فقالت كأنما تعلم كل شىء :

ـــ لأن أبى لن يتكلم .

فقال أحمد وهو لا يكاد يصدق ما يسمع :

ـــ لماذا ؟

فقالت فى ثقة :

ـــ لأنه يعتقد أن بقائى وحدى فى هذا البيت سيرغمنى على أن أرضخ لمشيئته ، ولكن هيهات !

فقال الدكتور :

ـــ لكأنك فكرت فى كل الاحتمالات .

فقالت فى ثقة :

ـــ فى كل شىء . وإنى أعرف طريقى .

وتأهب الدكتور للانصراف وقال :

ـــ لقد اتفقت بالأمس مع سيدة على كل ما تفعله .

وخرج وخرج أحمد معه ، وما ابتعدا عن غرفتهما حتى قال أحمد لأخيه :

ــ ألا تقدم إيمان لأبيك ؟

فقال الدكتور وهو يبتسم :

ــ قدمتها له ليلة سافرتم إلى الإسكندرية .

ــ أين ؟

ــ هنا . وكانت زوجته معه . كانت فى الحمام فى الساعة التى جئت فيها .

ــ وقابلتها ؟

ــ أبدا ، لم أكن أعرف أنه تزوج ، وقال لى لما وجدنى أطرق باب الحمام إنه ترك الماء ينهمر ليملأ البانيو .

وأشرق وجه أحمد ، فقد تذكر شيئا ، وقال :

ــ لعب علينا كلنا ، صدقته يوم جاء من عندها فى الفجر وقال لى : إنه كان يصلى الفجر فى السيدة زينب ، ومن بلاهتى التمست منه أن يدعو لى بالنجاح وهو يصلى .

فضحك محمد وقال :

ــ احمد الله ، فقد استجاب لدعواته ونجحت .

فقال أحمد وهو يبتسم :

ــ ببركة السيدة .

وقطب فجأة ونظر إلى غرفة نادية ، أحس كأنما لا يليق به أن ينشرح وأخته حزينة لأن أباها أهانها واتهمها بأنها تطمع فى أن ترثه بعد موته .

وانطلق الدكتور إلى مكتب أبيه ، فلما دخل على السكرتيرة حيته وفتحت له الباب المكسو بالجوخ الأخضر ، وقالت :

ــ تفضل .

ومشى الدكتور إلى المكتب الفخم الذى كاد يبتلع نصف الغرفة ، ولمحه أبوه فقام له ومد له يده مصافحا ثم جلس وهو يشير لابنه إلى مقعد قريب منه ، ثم دق الجرس فما لبث أن جاء الفراش ووقف أمام الدكتور ينتظر أوامره .

قال شوقى بك :

— عندنا ليمون ممتاز ، ما رأيك ؟

— لا بأس .

فالتفت شوقى بك إلى الفراش وقال :

— اثنان .

ودار فى كرسيه حتى أصبح فى مواجهة ابنه وقال :

— كيف حال نادية .

— إنها غاضبة .

فقال الأب فى أسى :

— والله لا أجد لغضبها سببا معقولا إلا أنها عنيدة .

— يحز فى نفسها يا أبى أنك قلت لها إنك كتبت أموالك لنا .

— وما الذى يغضبها فى هذا ؟ كل ما أملك فهو لكم . هذا هو الواقع ، ولكن الظاهر أن الواقع لم يعد يفهمه أحد ، إن نادية عاجزة عن أن تفهم أنى لا أستطيع أن أعيش بلا امرأة ، بلا أليف يشاركنى حياتى ، وكل ما فى ذهنها عن العلاقة التى بين رجل وامرأة هى علاقة لا تبنى إلا على الجنس ، وعلى إشباع الغرائز .

تصور أنها عرضت على أن تكرس حياتها لى ، بلغ بها العناد أن تضحى بحياتها لتقضى على ما تتصور أنه إساءة لكم . مسكينة ! لا تزال صغيرة . وهى عاجزة عن أن تحس ما نحسه . إنها تحسب أننا انتهينا ، وأننا ونحن فى مثل

هذه السن لسنا فى حاجة إلا إلى لمن يطهو طعامنا ويغسل ملابسنا ويمرضنا إذا نزل المرض بنا .

الحق يا محمد أن كل جيل من البشر يجهل الجيل الذى سبقه ، ولا يعرف حقيقة مشاعره ولا رغباته ولا ما يشقيه ولا ما يسعده ، فيحكم عليه أحكاما خاطئة وما أكثر ما تكون أحكاما ظالمة .

أتحس يا محمد ، وأنت طبيب ، بألم المريض الذى تعالجه ؟ قد يتلوى من الألم بين يديك وأنت شارد سعيد تفكر فى إيمان ! الإنسان لا يحس إلا بجرحه ، بألم نفسه ، بما يسعده وبما يشقيه ، ألا ليت الناس يعلمون !.

ودخلت السكرتيرة ودنت من شوقى بك وقالت فى صوت خافت :

ـــ السيد سلطان يريد أن يحييك بمناسبة إحالته على المعاش .

فقال شوقى بك فى إخلاص :

ـــ قولى له : تفضل .

وسارت السكرتيرة على أطراف أصابعها وفتحت الباب وقالت :

ـــ تفضل .

ودخل رجل ممتلئ الجسم ، طويل القامة ، أبيض الشعر ، لا تزال الحيوية تترقرق فى وجهه ، ولولا مسحة الذل التى رانت عليه ما فطن أحد إلى أنه قد بلغ الستين .

وتقدم الرجل من السيد رئيس مجلس الإدارة فى نشاط عجيب ، وخف شوقى لاستقباله وصافحه فى منتصف الغرفة ، وحسب الرجل أنه سعى إليه حتى لا يجلس وتنتهى المقابلة الرسمية سريعا ، فقال فى صوت متهدج :

ـــ جئت لأحييك قبل أن أنصرف .

فأخذه شوقى من ذراعه وسار به إلى المقعد المواجه لابنه وقال له :

ـــ تفضل .

وقال وهو يدور حول المكتب ليأخذ مكانه :

ـــ ابنى الدكتور محمد . السيد سلطان من خيرة الموظفين الذين خدموا الشركة .

ـــ تشرفنا .

وجلسوا جميعا ، وقال شوقى للرجل :

ـــ أرجو أن تستريح وأن تأخذ حظك من الحياة بعد أن كافحت وجاهدت وتجرعت كئوس التعب .

وأقبل الفراش وهو يحمل الليمون ، فأشار له شوقى برأسه أن يقدم كوبا للسيد سلطان ، وأن يقدم الكوب الآخر لابنه ففعل . وتناول الرجل الكوب ورفعه ، ولكنه لم يضعه على شفتيه وقال وهو شارد :

ـــ كنت وأنا شاب أحسب أن الإحالة إلى المعاش بداية الراحة والاستقرار ، كانت تتخايل لى فى لحظات التعب أمنية ، حلما جميلا .

فقال له شوقى فى اهتمام :

ـــ والآن ؟

فقال الرجل فى مرارة :

ـــ إنها النهاية ، إنها الحكم بالإعدام .

واغرورقت عينا الرجل بالدموع وقال :

ـــ كانت حياتى بيتى ومكتبى ، أحببت عملى كما أحببت زوجتى ، وكنت فى بعض الأحيان عندما أضيق بحماقات زوجتى ، وما أكثر حماقات النساء ، كنت أجد عزاء فى عملى .. إنى لا أتصور أين سأقضى وقتى ! أجلس على القهوة بلا عمل ؟! أنا واثق أنى سأموت إن أصبحت كل حياتى كرسيا على

الرصيف .

وراح الدكتور ينظر إلى الرجل وهو مأخوذ وقد تدفقت مشاعر الرحمة والشفقة والأسى إلى صدره ، فما كان يدور فى خلده أن الإنسان بعد الستين يلتمس شيئا غير الراحة والهدوء والإخلاد للسكينة .

وقال شوقى للرجل :

ـــ أعرف أنها قاسية ، ولكن ما أكثر الأشياء القاسية التى تسوقنا إليها الظروف ، ليتنا لا نصل أبدا إلى الستين !

ونظر إليه الرجل فى تردد ثم قال :

ـــ لى رجاء .

فقال شوقى متفتح النفس .

ـــ تفضل .

فاعتدل الرجل فى كرسيه ، وأطرق الدكتور حتى لا يحرجه ، وهم بأن يقوم وينصرف بيد أن شيئا ما ثبته فى مكانه ، وقال الرجل :

ـــ أرجو أن تسمح لى بأن آتى إلى مكتبى وأن أمارس عملى دون أن أتخذ عليه أجرا .

وأخذ شوقى ، لم يخطر على قلبه أن يطلب مثل هذا الطلب ، فشرد يفكر برهة وقال الرجل :

ـــ أعرف أن هذا الطلب عسير التنفيذ ، ولكنى أرجوك .

فقال شوقى وهو يفكر ليجد لهذا الرجل حلا :

ـــ من ذا الذى يرضى أن يقوم إنسان بعمل دون أن يأخذ أجره ؟

فقال الرجل فى حماسة :

ـــ هذه خدمة لى ، إنك لو فعلت فستسدى إلّى معروفا لن أنساه ،

ستنقذنى من البوار .. من الموت .

وازدرد شوقى ريقه ، ورفع سماعة تليفون قريب منه وأدار قرصه ثلاث دورات ثم قال :

ـــ مدير المستخدمين من فضلك .

وصمت ونظر إلى الرجل فألفى عينيه قد تعلقتا به وفيهما لهفة ورجاء وأمل ، ولم يستطع أن يديم النظر إليه فأسبل جفنيه وقال :

ـــ آلو ! أنا شوقى . أرجو أن تعد مذكرة لمجلس الإدارة القادم بمد خدمة السيد سلطان ثلاث سنوات . القانون لا يسمح إلا بسنتين ؟ لا بأس .. متشكر .

ووضع سماعة التليفون ، فإذا بالرجل يهب واقفا وكل خلجة فيه ترقص فرحا ، وقال والدموع فى عينيه :

ـــ شكرا .. شكرا .. شكرا ..

وألجمت المفاجأة لسانه ، فمد يده وصافح شوقى فى حرارة ودموعه تجرى على خديه ، ودار على عقبيه وهو يدعو الله أن يكافئ شوقى ويحفظ عليه نعمة الستر .

وخرج الرجل وشوقى يودعه حتى الباب ، ثم عاد وجلس فى كرسيه وهو يزفر ويقول :

ـــ مسكين .

وقال الدكتور محمد :

ـــ إنها مأساة ، ولكن هذا ليس علاجا ، داويت حالة واحدة ، فمن للآلاف أو المئات الذين يحالون إلى المعاش ؟!

فقال شوقى وهو يحاول أن يزيح الكابوس الجاثم فوق صدره :

— لهم الله .

ودنا من ابنه وقال :

— تعال حدثنى عن إيمان وعن ترتيبات الزفاف .

٢٥

كان أحمد ومجدى يتسامران فى الصالون ، وكان الوقت عصرا ، وكانت نادية فى غرفتها وقد ضاقت بوحدتها ففكرت فى أن تذهب إلى غرفة أخويها وتوقظهما إن كانا نائمين لتحدثهما وتفر من السأم الذى كان يضيق أنفاسها .

وسارت إليهما وفتحت الباب ، فإذا بالدكتور نائم وشخيره يرن فى جنبات الغرفة ، وإذا بسرير أحمد خال ، فأغلقت الباب خلفها وهبطت فى الدرج ، ومس أذنيها أصوات سارية من غرفة الاستقبال فأحست راحة ، وأسرعت لتستأنس بالناس .

ولمحها أحمد ومجدى وهى قادمة عليهما فقاما لاستقبالها ، وكان وجه مجدى يشرق بابتسامة عذبة ، وتألق عيناه ببريق المحبة ، ومدت يدها وصافحته فخفق قلبه خفقات ناعمة ، وغمره إحساس رقيق هفهاف راح يحرضه على أن يضغط على يدها ، بيد أنه اكتفى بأن يلتقى وجوده بوجودها عند أطراف أناملهما .

وجلسوا وقال لها أحمد فى عتاب :

— رفضت أن أكلم أبى ليتوسط لى فى أمر تعيينى ، وها هى ذى النتيجة : عينت فى الوادى الجديد .

فقالت نادية فى كبرياء :

ــ وماذا حصل ؟ ألست رجلا كالرجال الذين يعملون هناك ؟

فقال أحمد فى فزع :

ــ نادية ! أنت لا تفهميننى .

فقالت نادية فى ضيق :

ــ الكل يتهمنى بأنى لا أفهمه . تُرى من ذا الذى فهمنى ؟

وتفرس مجدى فيها فرأى الكآبة قد رانت على محياها وأحس الحزن الذى يشع منها ، إنها ضائعة ، وهو يكاد يذوب شفقة عليها ، ليته يستطيع أن يمسح عنها ركام أشجانها وآلام عواطفها .

وقال أحمد وهو ينظر إليها فى عتاب :

ــ إنى لم أفكر فى نفسى ، كنت أفكر فيك ، بعد أسبوع سيتزوج الدكتور ، وسأسافر أنا إلى مقر عملى بعد الفرح بثلاثة أيام ، وستصبحين فى كل هذا البيت وحدك .

وخفق قلبها خوفا ، سيفترسها غول الوحدة ، ويمزقها بسياطه مارد الملل ، بيد أنها كابرت وقالت فى عناد :

ــ وما الذى تخشاه علىّ ؟

فقال وهو يشير بيديه ليعبر عن الاتساع :

ــ كيف تملئين كل هذا الفراغ وحدك ؟

آه ، ليته يعلم أن فراغ قلبها أوسع من كل هذا الفراغ الذى يعنيه ، بل هو أخطر من كل ما فى الدنيا من فراغ ، فقالت :

ــ عما قليل ستبدأ الدراسة فى الجامعة ، وستأكل المذاكرة كل وقتى .

« كذابة . أنت لا تستطيعين أن تقرئى الآن صفحة واحدة من كتاب دون

أن يشرد ذهنك عشرات المرات » .

ولأول مرة أشاحت بوجهها عن مجدى كأنما كانت تخشى أن يصل إليه همس نفسها ، وزاد فى خشيتها من أن يكشف أمرها صمته وتلك النظرات التى يسددها إليها ليخوض فى أعماقها .

وأراد أحمد أن يشرك مجدى فيما سيقترحه ، فهو واثق من أنه أضعف من أن يقف أمام أخته وحده ، فقال وهو يوجه الحديث إلى صديقه ليتحامى الثورة التى قد تندلع فجأة وتحرقه بنارها .

ـــ ما رأيك يا مجدى فى أن تعيش نادية بعد زواج الدكتور وبعد سفرى مع بابا ؟

وقبل أن يفتح مجدى فمه قالت نادية وهى تنظر إلى صورة أمها :

ـــ لا . هذا لن يكون ، إن أراد أن يعود إلى هنا فليعد وحده ، أما أن يأتى هو وتلك التى خطفته منا فلن يكون ذلك إلا وأنا جثة هامدة .

فقال لها مجدى فى هدوء :

ـــ ليس هناك إلا هذا الحل الآن .

الآن ؟ ماذا يقصد ؟ وهل هناك حل آخر ؟ فى وقت آخر ؟ تُرى ماذا يدور فى رأسه ؟، وقالت فى حدة :

ـــ لو دخلت تلك المرأة هذا البيت رغم إرادتى ، فسأقتل نفسى .

وصمت أحمد وهو قلق زائغ البصر ، وقال لها مجدى :

ـــ من ذا الذى يرضى أن يتركك فى كل هذا البيت وحدك ؟

وفطن أحمد إلى أن مجدى التقط طرف النقاش فنهض وانسل من الغرفة ، وتشاغل بأنه يعد شيئا لمجدى .

وقالت نادية فى عناد :

— ومِمَّ تخافون عليّ :

فقال لها مجدى :

— من الوحدة ، من السأم ، من اليأس ، لماذا يا نادية تعذبين نفسك كل هذا العذاب ؟ سليني عن مرارة الوحدة وقسوة السأم وعذاب اليأس ، الحياة لا طعم لها يا نادية إذا انطفأ نور الأمل ، إذا لم يكن لها غاية .

ومن قال لك إن للحياة طعما في فمي ؟ إني أعيش لهدف واحد ، أن أظل أذكر عماد ، وأن أحيي ذكرى أمي ، كان هذا البيت جنتها ، ولن أسمح أبدا أن تدنس امرأة أخرى هذه الجنة بأن تطأها بقدمها .

— نادية ، صدقيني إنك لن تستطيعي أن توقفي تيار الحياة .

فقالت له في عناد :

— أنا واثقة من أني سأعيش لأذكر عماد ، ولأحرس هذا البيت من أن يعبث فيه الأغراب ، وأن يهينوا جلاله .

فقال لها مجدى وهو يحاول أن يسيطر على صوته الذى تهدج :

— وهل يكفي أن تكرسي كل حياتك لتتذكري عماد ؟ أتظنين أن ذلك يرضيه ؟

— وماذا أفعل غير ذلك ليرضى ؟

— أن تفعلي كل ما كان يسره ويدخل البهجة على قلبه .

فقالت وهي ترنو إليه مفتوحة العينين :

— مثل ماذا ؟

— أتذكرين تحمس عماد لما بدأت صنع القطار ؟

فقالت وهي شاردة :

— أذكر .

ـــ ماذا فعلت فى هذا القطار منذ عدنا من الإسكندرية ؟

فقالت وهى تطرق :

ـــ لا شىء .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنى لا أجرؤ أن أدخل الجراج .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن كل ما فيه يذكرنى بعماد .

ـــ تقولين إنك تعيشين لتتذكرى عماد ، فلماذا تفرين مما يذكرك به ؟

فقالت فى حدة :

ـــ أنا لا أفر .

ـــ فلماذا لا تذهبين إلى الجراج الآن ؟

ـــ لأنى أخشى أن يتمزق قلبى ، أن تنفطر كبدى .

فقال لها فى صوت آمر يغلفه حنان :

ـــ نادية ! قومى معى لنذهب معا إلى الجراج .

فقالت وهى تشيح بوجهها عنه وقد اكتسى وجهها بخوف وفزع :

ـــ لا .. لا أستطيع .

ـــ نادية ! ستدخلين الجراج يوما ، فلماذا لا يكون هذا اليوم الآن ؟

ـــ أخشى أن أنهار .

ومد يده إليها وأمسك بمعصميها ، وجذبها فى رفق وقال :

ـــ قومى معى .

فقالت نادية فى توسل :

ـــ مجدى ، دعنى أرجوك .

وعاود الجذب وهو يقول :

— قومى يا نادية إكراما لعماد .

ونهضت وهى تحس كأن قلبها سيفر من فمها ، وأن أصواتا صاخبة تدوى فى أذنيها دويا ، وأن الأشياء تتراقص أمام عينيها ، ووقفت برهة وقد زاغ البصر وذهبت النفس شعاعا ، وراحت تسترد أنفاسها المبهورة ، ثم سارت معه كالمأخوذة وقد أرهفت كل حواسها .

وخرج أحمد من غرفة السفرة ووقف من ورائهما ينظر وفى عينيه بريق إعجاب بمجدى ، ورن فى جوفه صوت يعاتبه : « كيف فاتك وأنت أخوها أن تذهب بها إلى الجراج ؟ » .

وسارا يتقدمان كأنما كانا مقبلين على مجهول محفوف بالأخطار ، وأحمد يسير خلفهما دون أن يجد فى نفسه الشجاعة أن ينضم إليهما ، وخرج مجدى ونادية من باب الفيللا الداخلى ، وداعب وجهيهما نسيم رقيق ، بيد أن الانفعالات الموارة بين الجوانح كانت فائرة حتى إن روحيهما لم تحفلا بالهواء ولطفه ورقته .

ووقفا عند باب الجراج ، وقد بان فى عينى نادية الهلع كأنما كان الباب سينفرج عن جثة عماد، كانت فى قرارتها تحس أن وراء ذلك الباب قبر أمانيها وأحلامها .

وتقدم مجدى يفتح الباب ، وارتجفت نادية فقد رأت فى وضوح سيارة عماد وهى تخرج من تحتها وعماد جالس مشرق الوجه خلف عجلة قيادتها ، ولفت ذراعها حول عينيها لتخفى الصورة التى انطبعت فى خيالها .

وعاد مجدى إليها وجذبها من يدها وسار بها وأصوات مزمجرة تدوى فى روحها حتى تكاد تعصف بها ، وسارت معه وقد أسبلت جفونها على

مقلتيها .

وأحست رطوبة المكان ، وراحت تفتح عينيها فى بطء وهى تضطرب من رأسها إلى أصابع قدميها ، ودارت بعينيها فى المكان ، حتى إذا ما وقعتا على القطار الذى كانت تصنعه أشاحت بوجهها فى سرعة وركزت بصرها فى صدر مجدى .

وجاء أحمد ودخل فى هدوء وهو يحس راحة ، وتقدم خطوة ليقف معهما ، ولكنه عاد وتردد وفضل كما هى عادته أن ينظر من بعيد .

وأخذها مجدى وهو يسندها بذراعه خشية أن تنهار ، وانطلق بها إلى حيث كانت أجزاء القطار ، وجمع أحمد أطراف شجاعته وسار إليهما .

وراحت نادية تنظر إلى القطار فى حزن ، وانفعالاتها فى غليان .

وقال لها مجدى :

ــ هيا يا نادية لتتمى ما بدأته .

وقال أحمد فى حماس :

ــ كم أكون سعيدا لو رأيته يسير على قضبانه قبل سفرى .

وقالت نادية وهى تدور ويصبح صدرها فى صدر مجدى :

ــ يكفى هذا اليوم .. لا أستطيع .. لا أستطيع .

وقال أحمد فى انشراح :

ــ سأحضر لك العفريتة ، أعرف مكانها .

وهم بأن يتحرك فقالت له فى أسى :

ــ لا . أرجوك . ليس الآن .

وقال لها أحمد وهو يلقى نظرة على أجزاء القطار :

ــ كيف كنت لا أصدق أبى يا نادية لما كان يقول إنك عبقرية ؟!

وفاضت عواطفها ، وجرت دموعها على خديها ، و لم تحتمل البقـاء فغادرت الجراج وهى تهرول إلى الفيللا ، وراح أحمد يتبعها بنظرات حزينة ، أما مجدى فقد استشعر رضا بعد أن استطاع أن يجعل الضوء يتسلل إلى آخر ركن معتم فى زوايا نفسها .

٢٦

كان مجدى جالسا فى الصالون ينتظر نزول الدكتور وأحمد ونادية ليذهبوا إلى الفرح ، فقد كانت الليلة ليلة زفاف الدكتور ، وتلفت مجدى فى الغرفة ورفع عينيه يتفرس فى الثريا الفاخرة التى كانت تتلألأ وتغمر المكان بضوء ناصع البياض ترتاح إليه النفس وينشرح له الصدر .

وسدد نظراته إلى صورة الأم ، وإذا به يشرد ويفكر فى نادية وفيما هى مقبلة عليه بعد أن تصبح فى هذا البيت الكبير وحدها ، فينقبض صدره وتتحرك أشجانه ، وتملأ جوانحه رحمة وإشفاق .

إنه يعرف نادية ، عنيدة تمقت أن تهزم ، وإذا ما أحست أن هناك من يحاول أن يضغط عليها أو يقنعها بخلاف ما تعتقد لجت فى العناد ، وإن كل محاولة لإقناعها بأن تعيش فى كنف أبيها ومع زوجته لن تكون ثمرتها إلا توسيع الهوة التى بينهم ، وزيادة النفور وتأجيج نار الشقاق .

إنه يحبها من سويداء قلبه ، بكل إحساس من إحساساته ، بكل خلجة من خلجاته ، بكل رفرفة من رفرفات روحه ، وكان حبه صامتا قبل أن يلقى عماد مصرعه ، أما وقد وافى عماد أجله ، فقد ترعرع الأمل فى نفسه ، فلماذا لا يكاشفها بحبه ، ويغمرها بعطفه ، لينتشلها من الضياع الذى تعيش فيه ؟

لماذا لا يقول لها إنه هو بر النجاة ؟!

إنه يخشى لو فعل قبل أن يتم التئام جراح قلبها أن تنفر منه وأن تقيم بينه وبينها سدا يصبح من العسير أن ينفذ منه ، فوجد أن خير ما يفعله أن يصبر ويرقب فرصته ، ويحاول فى هوادة أن يملأ الفراغ الذى وجدت نفسها فجأة تهيم على وجهها فيه .

وخطر له خاطر أن ينتهز فرصة الليلة ، وفورة المشاعر التى تحركها رؤية الزفاف ويبثها لواعج نفسه ويكشف لها عن حبه ، بيد أنه خشى أن تجدد الليلة أحزانها وتذكرها بما كان ينتظرها هي وعماد فتنكأ الجروح ، ويصبح كلامه طعنات ، فاهتدى إلى أن خير ما يفعله أن يترقب .

وسمع صوت أقدام هابطة فى الدرج فاعتدل فى جلسته وسرى فى نفسه قلق ، فهو يعرف جيدا ماذا يقول للدكتور وماذا يقول لأحمد ، ولكنه لا يدرى ماذا يقول لنادية ، ولا كيف يتحدث إليها فى هذه الليلة فذلك كله يخضع لحالتها المعنوية .

ودخل الدكتور يرتدى ثياب الزفاف ، وخلفه أحمد فى بذلة من الموهير الأسود ، وإلى جواره نادية ترتدى ثوبا بسيطا وتكاد تكون عطلا من كل زينة ، فانقبض قلبه ، فقد حزر أنها لا تزال قابعة فى بيت الأحزان ، ولولا أنها لا تريد أن تغضب أخاها ما ذهبت إلى الفرح أبدا .

واندفع إلى الدكتور وعانقه وهو يقول :

ـــ مبارك . ربنا يتم بخير .

فقال الدكتور فى تأثر :

ـــ متشكر ، العقبى لك .

واضطرب مجدى وأسرعت عيناه إلى نادية ، ولكنه فى لمح البصر التفت إلى أحمد وراح يصافحه ، ويقول له :

ــ العقبى لك . شد حيلك لنفرح بك .

فقال أحمد فى مرارة :

ــ أرجو أن أجد من تأسر قلبى فى الوادى الجديد .

وظلت نادية مطرقة تتظاهر بالهدوء ، وإن كانت براكين الحزن تقذف حمما فى جوفها ، فكلهم مستقبلهم مشرق ، زاخر بالأمل ، بينا هى قد قضى عليها أن تحيا ما بقى من عمرها بلا إشراقة ولا أمل .

ومد يدا مضطربة إلى نادية ، وقال دون أن يجرؤ على النظر فى عينيها :

ــ مساء الخير .

فقالت نادية فى صوت خافت :

ــ مساء الخير .

وقال أحمد وهو ينظر فى ساعته :

ــ هيا ، الوقت قد أزف .

وساروا صامتين إلى أن وصلوا إلى سيارة فاخرة تنتظر أمام الفيللا ، وألقى عليها أحمد نظرة إعجاب ، وقال لمجدى :

ــ رائعة ! من أين اقترضتها ؟ ومن ذا الرجل الساذج الذى قبل أن يترك لك مثل هذه السيارة ؟

فقال مجدى وهو يبتسم :

ــ ربنا يجعل بيت المحسنين عمارا .

ولم تستطع نادية أن تسيطر على عواطفها ، اربد وجهها وانقبض صدرها وأن فؤادها أنات أليمة ، فقد تذكرت فى هذه اللحظة عماد وسيارته ، وزاد فى حنقها أن أحدا من الساخرين لم يتذكر شيئا ، ولم يبد عليه أن شيئا من ذلك طاف بخاطره .

وخف مجدى إلى السيارة وفتح الأبواب ، وكان يراوده أمل ، أن تركب

نادية إلى جواره وأن يسعد بقربها طوال الطريق ، وزهقت روح ذلك الأمل لما قفز أحمد إلى المقعد الأمامى ، وصعد الدكتور ونادية إلى المقعد الخلفى .

وجلس مجدى خلف عجلة القيادة ، وراح يضبط وضع المرآة التى يرى فيها السيارات القادمة من خلفه ، وما كان همه أن يكتشف الطريق ، بل كان يريد أن يرى نادية فيها فى وضوح ، فإن كان الأمل أن تكون إلى جواره قد ذاب فما أقل من أن يلقى عليها نظرات خاطفة فى المرآة ليرطب جفاف القلب الملهوف .

ووقفت السيارة أمام بيت زُيِّنَتْ واجهته بالكهرباء ، وعند مدخله توج الباب بنسر صلاح الدين وقد أضىء بمصابيح حمراء ، وحدث هرج ، وخف بعض الأطفال الذين كانوا يرتدون ملابس جديدة احتفاء بالفرح إلى السيارة وهم يتصايحون :

— العريس .. العريس ..

وما أسرع ما سرى نبأ وصول العريس إلى فوق ، فإذا ببعض النسوة يهرعن إلى بئر السلم ينتظرن ، ودوت الزغاريد .

وصعد الدكتور وإلى جواره أحمد ، وتأخرت نادية وأطرقت ، ولو طاوعت المشاعر الطاغية التي ثارت فى جوانحها لولت الفرار .

وصعد مجدى درجتين فى خطوة واحدة فأمسى إلى جوار نادية ، وراحا يعرجان جنبا إلى جنب إلى حيث كانت حشود الرجال والنساء ترقبهم .

واستشعر مجدى شيئا من الرضا ، وتمنى من أعماقه أن يأتى ذلك اليوم الذى يسير فيه إلى جوار نادية وهما فى ثياب الزفاف .

وراحوا يشقون الجموع وهم يصافحون كل من يمد لهم يده ، وسرى الهمس بين النسوة :

— جميل .. لا زال شابا .. والله نلتها يا إيمان .. يا روحى عليه وعلى

أخته .. العقبى لنا .. اوعدنا يا رب بابن الحلال .

وتقدم شوقى واستقبل ابنه ، وفاضت عواطفه فراح يضمه إلى صدره فى حب كبير ويقول :

ـــ مبارك يا محمد ، العقبى للبكارى .

وصافح الأب نادية وقال لها :

ـــ العقبى لك .

وجاهدت نادية لتحبس دموعها التى تجرى فى روحها لتطفر من مآقيها ، وشعر مجدى بما انتابها من اضطراب فمد يده إليها وضغط على ذراعها ضغطة خفيفة كأنما يقول لها : تجلدى .

وصافح الأب أحمد وقال له :

ـــ وأنت ! شد حيلك لنفرح بك .

وصافح مجدى .

فقال له مجدى وقد أشرق وجهه بابتسامة عذبة :

ـــ مبارك يا عمى . نفرح بهم جميعا قريبا إن شاء الله .

ونظرت نادية إلى مجدى نظرة عتاب ، إن كان الآخرون يتجاهلون شعورهم نحوها فهو أعلمهم بحقيقة عواطفها ، فلماذا يخزها هذه الوخزة ، وقد مرت وخزة أبيها وإن كان ألمها لا يزال فى وجدانها !

ولم تقلقه نظرتها ، فهو فى قرارته قد عزم على أن يثير انفعالاتها حتى تحرق حرارتها ما يزال راسبا فى أعماقها من أشجان وأحزان .

وسار الدكتور إلى حيث قادوه ، ومشى الأب إلى جوار أحمد وجلسا يتسامران ، وجلست نادية عند أول مقعد قابلها وجلس مجدى إلى جوارها ، وظلت صامتة شاردة زائغة البصر .

ورأى مجدى أن يحدثها ، أن يشغلها عن الرؤى التى شغلت رأسها فقال

لها :

— نسيت يا نادية أن أقول لك إنى انتهيت من كتابة أسطورة ، وقد أطلقت عليها « رسول النساء » .

ونظرت إليه نظرة عتاب كأنما تقول له : « أهذا وقت الأساطير ؟ وكان عازما على أن يقص عليها الأسطورة دون أن يحفل بنظراتها أو عتابها ، كان كل همه أن يشغلها وأن يكنس الأفكار السوداء التى تعشش فى رأسها ، بيد أن عينيه وقعتا على عفاف ، زوجة أبيها ، فسرت فيه رهبة ، وزاد فى خوفه أن مس أذنيه صوت سيدتين جالستين خلفهما راحتا تستعرضان كل النسوة اللاتى كن فى الصف الذى جلست فيه زوجة الأب .

ولاحظ أن عفاف تسدد نظرات فاحصة إلى نادية ، إنها تفرها بعينيها من قمة رأسها إلى كعب حذائها ، وفطن إلى أن نادية تصغى إلى حديث السيدتين :

— الست التى ترتدى ثوبا أسود بنت عم العريس ، والتى إلى جوارها خالتها ، أما التى ترتدى الثوب السماوى ..

وتحجرت نظرات مجدى ودق قلبه رهبة ، وهم بأن يقول شيئا ولكن السيدة كانت أسرع منه وقالت :

— فهى زوجة شوقى بك ، والد العريس .

ولاح على نادية كأنما سهم خرق أذنيها فانتفضت وهمت لتهب ثائرة ، وإذا بمجدى يحول بيده بينها وبين النهوض ويقول لها فى حزم :

— نادية !

وراح صدرها يعلو وينخفض ، وصرفت أنيابها وقالت :

— قلت ، إن جاءت هذه المرأة فلن أحضر الفرح .

— نادية ! اعقلى . أنت تعرفين الدكتور ومقدار تشاؤمه ، لو ثرت فى

ليلة زفافه أو بكيت فستركبه أوهامه وتنغصين حياته .

ــ إنه خدعني .

ــ لم يخدعك ، ما كان يستطيع أن يقول لأبيه : لا تحضر زوجتك .

ــ أقسمت ألا يظلني أنا وهي سقف واحد .

ورمت زوجة أبيها بنظرة كراهية ، وهمت واقفة فقال لها مجدى :

ــ نادية ! إلى أين ؟

فقالت وقد بدأت تتحرك :

ــ إلى أى مكان آخر لا تقع عيناى فيه على هذه البومة .

« آه لو لم تكن الليلة ليلة زفاف محمد لأنشبت أظافرى فى عنقها » .

وخف مجدى إليها وسار معها ، ومرا معا بالأب وقد شغل عن كل شىء بالحديث الدائر بينه وبين أحمد ، كان أحمد يقول فى حزن :

ــ حاولنا يا بابا أن نثنيها عن عزمها ، قلنا لها لن يقبل أحد أن يتركك وحدك فى الفيللا بعد أن يتزوج الدكتور وبعد أن أسافر إلى عملى ، لا بد أن تعيشى مع بابا ، ولكنها ركبت رأسها ورفضت .

وصمت أحمد قليلا ثم قال :

ــ تصور يا بابا أنها هددت بالانتحار لو دخلت زوجتك البيت رغم إرادتها !

وخفق قلب الأب فى شدة واستيقظت مخاوفه ، وزاد فى كربه ذلك الأسى الذى استبد به لأن ما بينه وبين ابنته الحبيبة قد وصل إلى الحد الذى تهدد فيه بالانتحار .

ونظر من بين أهدابه إلى أحمد فألفاه مطرقا حزينا ، فتحرك حنينه وشفقته ، وأراد أن يطيب خاطر ابنه وأن ينزل السكينة قلبه قبل أن يسافر ، فقال فى رقة :

ــ اطمئن يا أحمد ولا تقلق ، ستهدأ نفس نادية وتستقر .

« ستهدأ نفس نادية ؟ متى ؟ وكيف ؟ والله إن القلق الذى ينتابنى أشد من القلق الذى تحس به وأقسى » .

وقال أحمد وهو ينظر إلى الأرض كأنما يكشف سرا ليس له حق كشفه :

ــ إنها حزينة منذ مات عماد .

فهز الأب رأسه وقال :

ــ الحزن يا بنى يبلى كما يبلى الثوب .

وجاء الدكتور إلى أبيه وقال فى فرح :

ــ تفضل يا بابا لتوقع على العقد .

ونهض وراح يفحص المكان بعينيه ، كان يبحث عن نادية ، ولمحها جالسة فى شرفة بعيدة وإلى جوارها مجدى يتحدثان ، فسار مع ابنه وهو يحاول أن يبدو سعيدا مشرق الوجه .

ونظرت نادية إلى إيمان وهى فى الكوشة وحدها فأحست كدرا ، وخيل إليها أنها ترى نفسها فى ثوب الزفاف وحيدة ، ولم يكن ثوب الزفاف أبيض بل كان أسود ، وأغمضت عينيها حتى تطرد الصورة التى احتلت رأسها ومزقت قلبها ، وفطن مجدى إلى ما يجرى فى خيالها فقال لها :

ــ نادية ! تجلدى إكراما لمحمد .

وذهب محمد إلى الكوشة وجلس إلى جوار إيمان ، ومال عليها وهمس فى أذنها وقال :

ــ تم العقد . ما رأيك فى أن نهرب من كل هؤلاء الناس ؟

وابتسمت ابتسامة عذبة وأسبلت عينيها .

ودوت فى المكان طبول الزفة ، وأحست نادية أن كل ما بها يتمزق ، ولم تستطع أن تنظر إلى الموكب الذى بدأ سيره ، والشموع الطويلة والثياب

البيض ، أحست أنها تريد أن تصرخ ، وكان كبت عواطفها فوق طاقتها فأجهشت بالبكاء وأخفت وجهها فى صدر مجدى ، فضمها إلى صدره فى عطف وهو يتمنى أن يمسح عنها الكآبة التى رانت عليه .

٢٧

عادت نادية من الكلية تحمل حقيبة كتبها على عجزها وتسندها بذراعها ، وقابلت سيدة فى الردهة فقالت لها :

ـــ سيدة ، جهزى الغداء ، أكاد أموت من الجوع .

وتحركت سيدة ولكنها تذكرت شيئا ، فعادت أدراجها وقالت لنادية التى كانت قد صعدت بعض درجات :

ـــ ست نادية ! لم يعد عندنا سمن .

فقالت لها نادية دون أن تلتفت خلفها :

ـــ أوصى على قنطار زبدة .

فقالت سيدة وهى تمصمص بشفتيها :

ـــ يا حسرة ! لم يعد فى البيت إلا أنت وأنا وعثمان . سأشترى من البقال ١٠ أرطال سمن ، يوه ٤ كيلو وإلا رمانا مفتش التموين فى مصيبة !

وسارت ، بيد أنها لم تذهب إلى المطبخ بل اتجهت إلى غرفة الاستقبال ، ونظرت إلى صورة سيدتها وقالت :

ـــ والله يا ستى البيت خرب من بعدك !

وانطلقت إلى المطبخ ، ودخلت نادية غرفتها وألقت بكتبها ، ثم عادت إلى غرفة السفرة وجلست عند رأسها وحيدة تفكر فى بعض أحداث يومها .



وانتهت من غدائها ، وصعدت إلى غرفتها وتمددت فى فراشها تستريح . وراحت تتقلب فى ملل ، ثم مدت يدها وأدارت راديو ترانزستور وراحت تصغى إلى الأغنية المنبعثة من الراديو لحظات ، ولكنها شغلت عن الأغنية بخواطرها فعادت ومدت يدها وأغلقت الراديو .

وضايقتها وحدتها وذلك الفراغ الذى تعيش فيه ، فنهضت وأحضرت كتابا من كتبها وراحت تقرأ فيه .

وتسرب الملل إلى روحها فتثاءبت وألقت بالكتاب وأغمضت عينيها ، إلا أن النوم فر منها ، وأحست كأن فراغا هائلا ينتشر فى جوانحها ، وأن حواسها أرهفت ، وأنها فى شوق إلى أن تستأنس بإنسان ، وخطر لها أن تدعو سيدة إلى غرفتها لتثرثر وتقص عليها أى شىء ، وليكن حديثها المكرور الذى قصته عليها عشرات المرات ، حديث الدجاج والبيض والرقاد والفقس والكتاكيت ، بيد أنها نهضت وراحت تشغل نفسها بكى ملابسها !

ونظرت فى ساعتها وتململت ، فالدقائق تمر فى بطء شديد ، وارتمت مرة أخرى فى فراشها ، وما أسرع أن نهضت وسارت إلى غرفة أبيها ودخلتها وراحت تعيد تنظيمها ، وعاودت النظر فى ساعة معصمها ونفخت فى ضيق .

ومشت إلى غرفة أخويها وألقت نظرة كلها حنان على السريرين اللذين فرغا من صاحبيهما بعد أن تزوج الدكتور وسافر أحمد ، وتقدمت كالمسحورة وراحت تمرر يدها فى حنان على الوسائد وعلى الفراش .

ولمحت بيجامة أحمد معلقة فأشرق وجهها بابتسامة ، وسارت إليها وضمتها إلى صدرها وقبلتها لتنفس عن المشاعر المذخورة فى نفسها التى ضاق بها صدرها .

وخطر لها خاطر استراحت له ، فخفت إلى غرفتها وارتدت

« العفريتة » ، ثم هبطت فى الدرج مسرعة وجرت إلى الجراج كأنما تفر من الملل البغيض الذى يطاردها .

وراحت تركب أجزاء القاطرة ، وانهمكت فى عملها ، وبدأت تحس أن الفتور سيدب فيها فأخذت تصفر وتدندن وتدور فى الجراج وهى تحضر بعض العدد التى تحتاج إليها .

وشغلت عن نفسها بقاطرتها التى أوشكت أن تتم ، ولكن ما لبثت أن سئمت العمل وأحست أن شيئا ينقصها ، شيئا تهفو إليه بكل مشاعرها ، وألقت المبرد الذى كان فى يدها وقفلت راجعة إلى الفيللا .

وارتمت فى مقعد بالقرب من التليفون وشخصت ببصرها إلى السقف ، وفجأة رمقت التليفون فى إشراق ، ووضح فى ذهنها ذلك الشىء الغامض الذى تهفو إليه ، إنها فى حاجة إلى إنسان تحدثه ويحدثها ، وسيان أتفهمه أم لا تفهمه ، أيفهمها أم لا يفهمها ، يكفى أنها تحس أنها ليست وحيدة ، وأن إلى جوارها بشرا !

وقامت إلى التليفون ورفعت السماعة فى حماس ، وراحت تدير القرص فى انفعال ، وقالت :

ـــ آلو ! مجدى ؟

ـــ نادية ؟! كيف حالك ؟

ـــ بخير . قلت لى ليلة فرح الدكتور إنك انتهيت من أسطورة « رسول النساء » وإنك تحب أن تقصها علىّ .

ـــ يا ليت .

ـــ أنا فى انتظارك .

ـــ الآن ؟

ـــ الآن إن شئت .

ـــ قادم حالا .

ووضعت سماعة التليفون ، وراحت تغدو فى الردهة وهى منشرحة تحس كأنما أزاحت ذلك الكابوس الثقيل الجاثم على صدرها يكاد يكتم أنفاسها .

ووقفت فجأة وغامت صفحة وجهها بسحابة كدر ، ودق قلبها فى خوف بعد أن وخزها ضميرها وخزات خفيفة قضت على بهجتها .

وفزعت إلى صورة أمها وشخصت إليها ببصرها وقد طافت بها موجة من الأسى ، وقالت وهى حانقة على نفسها :

ـــ ماما ! كنت قد عاهدتك أن أعيش لذكرى عماد ! أن أذكره أبدا وإن نسيه الناس ، ولكنى يا ماما لم أعد أذكره ، نسيته كما نسوه ، نفسى يا ماما خبيثة كنفوسهم ، إنى أريد أن أحافظ على عهدى ، أن أكرس ما بقى من حياتى له ، ولكن حزنى عليه تبخر ، لم أعد أحس حرقته فى قلبى ، لم يعد تنفطر عليه كبدى .

ماما ! أحس خجلا من نفسى ، كنت ألوم أبى لأنه نسى حبه ، فإذا بى مثله ، نسيت حبى .. ماما .. ماما .. لا أريد أن أنسى . لا أريد أن أنسى .. لا أريد أن أكون كأبى .. عاونينى يا ماما على أن أذكره ، على أن أهزم ذلك الضعف الذى يتسلل إلى نفسى ، على أن أعيش لذكراه ، على أن أكون رمزا للوفاء .

تصورى يا ماما أنى دعوت مجدى الآن ليأتى ليقضى على ذلك الملل الذى أحسه ، و لم يخطر عماد على بالى وأنا أكلمه ، ولكن بعد أن دعوته استيقظ ضميرى وراح يعاتبنى على أنى نسيت عماد ، إنى يا ماما لن أقابل مجدى ، وإنى أجدد أمامك عهدى بأنى لن أسمح أبدا لنفسى بأن تنسى أول وآخر من خفق بحبه الفؤاد .

وغادرت نادية غرفة الاستقبال وهى فى شدة التأثر والانفعال وقد ارتسم

على محياها عزم أكيد ، وصعدت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها ، وجلست إلى مكتبها وانهمكت فى دروسها وراحت تشغل نفسها برسم قطاع فى آلة ميكانيكية .

وسمعت طرقا على الباب ، فالتفتت مذعورة وقالت :

— من ؟

وإذا بصوت سيدة يأتى مجلجلا :

— سيدى مجدى تحت يا ستى .

وهبت قائمة وهى تقول :

— قادمة حالا .

وخرجت تسرى كالطيف ، وهرولت فى الدرج حتى أنها سبقت سيدة .

ولمحها مجدى وهى هابطة ، كان جالسا فى الردهة فقام يستقبلها وهو مشرق الوجه وقد غمرت قلبه مشاعر ناعمة ، ولو طاوع نفسه لبسط لها ذراعيه واستقبلها فى أحضانه .

وقالت قبل أن تصل إليه :

— أهلا مجدى . مرحبا بك .

ومدت يدها إليه تصافحه قبل أن تصل إلى أول درجة من درجات السلم ، ومد لها يده كأنما يهبها كل نفسه ، وقال :

— كيف حالك ، وكيف الحال فى الكلية ؟

— بخير .

وأشارت إلى مقعدين بالقرب من السلم وقالت :

— تفضل .

وجلست وجلس وهى تقول فى مرح :

— تحدتنى اليوم إحدى زميلاتى وقالت إنها ستتفوق علىّ ولن تتنازل عن

أن تكون الأولى بأية حال ، فقبلت تحديها .

وقالت وهى تنظر إلى مجدى فى انشراح :

— ما أجمل التحدى ، يمد الإنسان بقدرة عجيبة على العمل !

فابتسم مجدى وقال :

— جميل كل ما يبث فى النفس النشاط ويدفعها إلى أن تتفوق . كان تشجيعك لى هو الدافع الذى دفعنى إلى أن أكتب .

— آه . قص علىّ أسطورتك الجديدة .

— الجديدة ؟ ألم تطلبى أن أقص عليك أسطورة رسول النساء ؟

— أوليست هى آخر أساطيرك .؟

— لا . كتبت بعدها أكثر من أسطورة .

— رائع .

— إنتاجى كله إن هو إلا حسنة من حسناتك .

وأرضاها قوله فقالت :

— الحمد لله أن لى حسنات .

— كلك يا نادية حسنات .

— قص علىّ أسطورة رسول النساء .

فاعتدل وقال :

— أتعرفين لماذا تقول النسوة : خير ! كلما نعق الغراب ؟

فقالت وهى تبتسم ابتسامة خفيفة :

— لا ..

— هذه الحادثة التى تتكرر كل ساعة هى محور الأسطورة . اجتمع النساء بعد أن صرح الله للرجال بأن يتزوجوا أربعا فى مؤتمر ، وتدارسن حالهن ، فقر رأيهن على أن يكتبن إلى الله أن يصرح لهن بأن يتزوجن أربعة رجال كما صرح

للرجال أن يتزوجوا أربع نساء ، وعرضن على كل الطيور أن تحمل الرسالة التى كتبنها ، فأبت الطيور جميعا إلا الغراب . فقد وافق على أن يكون رسول النساء ، وحمل الرسالة وطار ، ومن ذلك اليوم كلما قال الغراب : « كاك » حسب النساء أنه عاد برد الرسالة ، فيقلن فى لهفة : خير !

وضحكت نادية وأغرقت فى الضحك حتى ارتمت فى أحضانه .

٢٨

حملت نادية وسيدة قضبان السكة الحديدية المصنوعة من مجارى الستائر المعدنية فيما بينهما ، وهبطتا بها فى الدرج فى حرص ، ثم اتجهتا إلى الجراج ووضعتاها على الأرض ، وراحت نادية تمرر قطارها الذى تم صنعه على القضبان بقوة الدفع ثم يقف ، وسيدة ترقب ما يجرى أمامها مسرورة ، ثم قالت :

ـــ صغير لكن دمه خفيف ، يتربى فى عزك يا ستى .

وابتسمت نادية و لم تنبس بكلمة ، فسيدة لا تدرى خطورة التجربة التى ستقدم عليها ، ليت مجدى يأتى الساعة ليشاركها مشاعرها ،فقد أخبرته أنها ستسير قاطرتها بضغط البخار لأول مرة ، فهنأها وقال لها إنه قادم ليشاهد التجربة .

واندفع القطار صوب سيدة فراحت تحرضه بيديها على أن يتقدم وهى تقول :

حبا .. حبا .. تاتا .. تاتا ..

ووقف القطار بالقرب منها فاتجهت إليه ومالت لتحمله وتقبله ، فإذا بها تجده أثقل مما كانت تظن فقالت فى دهش :

— يا ! إنه حديد ، كان سيمزقنى ..

ووضعت نادية الماء فى مرجله ، وكان ماء مغليا ، وأشعلت الموقد ، ولمحت مجدى قادما فخفت إليه وهى تقول فى مرح يشوبه شىء من القلق :

— مجدى ! تعال . أنا خائفة .

وقالت سيدة وهى تتلفت تبحث عما تخاف منه نادية :

— خائفة من ماذا والدنيا نهار ونحن معك .

ورفت على شفتى مجدى بسمة حلوة ، ونظر إلى نادية نظرة كلها حب وقال :

— أنا واثق أن التجربة ستنجح .

ومالت نادية على القطار وحركت أجهزة القيادة وخرج دخان من المدخنة ، وتحرك القطار فى بطء ، وكان مجدى يتمنى بكل عواطفه أن يجرى لتفرح نادية وتطيب نفسها .

وراحت سرعته تتزايد ونادية تجرى إلى جوارِ وهى تصيح فى انشراح :

— مجدى إنه يسير .. إنه يجرى .

وكانت كل حركاتها زاخرة بالبهجة والسرور ، حتى إن مجدى أخذ يصيح :

— مرحى .. مرحى ..

ومدت نادية يدها وجذبت حبلا بالقطار ، فإذا به يصفر صفيرا متصلا وهز الصفير مشاعر سيدة فأطلقت زغرودة طويلة ترددت فى جنبات الجراج حتى غطت على صفير القطار .

وجرى مجدى إلى نادية وقال لها :

— مبارك .. رائع !. أنت عبقرية يا نادية ! مدهشة ! مدهشة !.

وخفق قلب نادية فى فرح ، وانتشت بخمر النصر ، وأحست حبا للدنيا ،

وودت لو تضم العالم بأسره إلى صدرها .

وأسرعت سيدة إليها وقالت :

ـــ يا فرحتي ! يا فرحتي ! أطلت رقبة النسوان يا ستي !

وضمت نادية سيدة إلى صدرها لتعبر عن روعة المشاعر التي تمور في كيانها .. آه لو تضم مجدي إليها وتمطره بقبلاتها !.

ووقفت سيارة أمام الفيللا . ونظرت سيدة وقالت :

ـــ سيارة سيدي الكبير .

فقالت نادية في قلق :

ـــ ما الذي جاء به الساعة ؟

فقالت سيدة :

ـــ جاء ليرانا ، فلا غنى له عنا ولا غنى لنا عنه .

وتفرس مجدي في القادم بينا راحت سيدة تنسل إلى الفيللا وقال :

ـــ إنه الدكتور .

وقالت نادية في انشراح :

ـــ الدكتور ! مرحبا به .

وجاء الدكتور وقال في هدوء :

ـــ السلام عليكم .

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وقال وهو يصافح مجدي في شوق :

ـــ أين أنت يا رجل ؟

فقال مجدي وهو يبتسم :

ـــ المشغول لا يشغل .

وقالت له نادية في عتاب :

— وأين إيمان ؟ لماذا لم تأت بها معك ؟

— جئت صدفة .

فقالت له نادية :

— الجميل فيك أنك لا تكذب ولا تقول إننا وحشناك .

وصمت الدكتور وقال مجدى :

— كنا نشاهد تجربة تسيير القطار وقد نجحت التجربة ، وسنحتفل الليلة بهذا النجاح ، سأدعو نادية للعشاء فما رأيك فى أن تشاركنا فى هذا الاحتفال أنت وإيمان ؟

ونظرت نادية إلى مجدى نظرة شكر وعتاب ، لماذا لم يقل لها ذلك قبل أن يأتى أخوها ؟ ترى أيستأذنه بطريقة غير مباشرة فى أن يخرج معها ؟ لو أنه طلب منها ذلك لرحبت به وشكرته على لطفه .

وقال الدكتور وفى صوته رنة أسى :

— جئت لأقول لنادية إن بابا مريض ، وقد حملوه إلى البيت .

فلاح الهلع فى وجه نادية وقالت فى خوف :

— ماذا جرى له ؟

— سقط فى مكتبه من الإعياء .

— وكيف حاله الآن ؟

— بخير .

وقالت وهى تجرى صوب الفيللا :

— انتظرنى ، سأرتدى ثيابى حالا :

وغابت نادية عن أعينهما ، والتفت مجدى إلى الدكتور وقال له :

— كيف تركته ؟

— تركته فى غيبوبة .

— وماذا قال الدكتور ؟

— قال إنه مجهد ويحتاج إلى راحة ، ونصح بنقله إلى المستشفى .

وصمت مجدى قليلا ولاح عليه التردد ثم قال :

— أأستطيع أن آتى معكما لأطمئن عليه ؟

— أنت منا يا مجدى .

وعادت نادية وانطلقت فى لهفة إلى السيارة ، وأسرع الدكتور ومجدى ليركبا فيها ، وانطلقت بهم وهم صامتون إلى السيدة زينب ثم عرجت إلى السد البرانى .

وراحت نادية تهرول فى الدرج دون أن تدرى إلى أين هى صاعدة ، ومد الدكتور يده وضغط جرس الشقة التى يسكنها أبوهما مع زوجته ، وبعد قليل انفرج الباب عن عفاف ، ولما رأتهم قالت :

— تفضلوا .

ولم تنفعل نادية ولم يثر غضبها ، كانت كل مشاعرها فى لهفة على رؤية أبيها .

ودفعت عفاف من طريقها فى قسوة وهى تقول :

— أين أبى ؟

ولم تغضب عفاف وكظمت كل مشاعر الثورة التى تحركت فى حشاياها ، وقالت وهى تشير إلى الغرفة التى يرقد فيها شوقى :

— تفضلى .

واندفعت نادية كالعاصفة صوب الغرفة ، وأسرع الدكتور ومجدى خلفها ، وسارت عفاف لتلحق بهم ، ولمحت نادية أباها ممددا فى سريره فهتفت فى حب :

— بابا .. بابا.

وارتمت دون تفكير على صدره .

وفتح عينيه على صوتها ، وأشرق وجهه بابتسامة أودعها كل حنانه وهمس :

— نادية ! حبيبتى !

— ماذا بك يا بابا ؟

— أنا بخير يا نادية .

ونهضت والتفتت إلى الذين فى الغرفة وقالت فى عزم :

— سآخذه معى .

فهتفت عفاف وقالت فى رقة :

— لا داعى لنقله يا بنتى .

— لن يمرضه أحد غيرى .

فقالت لها عفاف :

— ابقى معنا ، ومرضيه هنا .

ونظرت عفاف إلى الدكتور وإلى مجدى نظرة توسل كأنما تلتمس منهما أن يؤازراها وأن يقولا شيئا ، بيد أن الدكتور صمت ، كان يعلم أن معارضة نادية معناها هبوب عاصفة هوجاء قد تؤلم أباه وتسىء إليه ، وتقدم مجدى من نادية وقال لها :

— نادية ! لماذا لا تبقين معه هنا حتى يبرأ ؟

فقالت نادية فى عناد :

— سأحمله إلى بيته ..

فقالت لها عفاف :

— هنا بيته وهناك بيته .

فقالت لها نادية فى تحد :

— سآخذه ، ماذا لك فيه ؟ إنه لحمنا ، ولن نترك لك لحمنا .

واندفعت إلى أبيها وتأهبت لحمله . والتفتت إلى مجدى والدكتور وقالت :

— محمد . مجدى .

وظهر القلق فى وجه محمد وراح ينقل بصره بين أبيه وأخته ، وفطن الأب إلى تردد ابنه وإلى بداية الثورة التى أطلت من عينى نادية ، فخشى ما قد تسفر عنه غضبتها فأومأ إلى ابنه أن يطيع أخته .

وانطلق مجدى والدكتور إلى شوقى وراحا يعاونان نادية على نقله ، وساروا به ونادية تلقى على الشقة نظرات فاحصة ، كانت بسيطة ليس بها إلا الضرورى من الأثاث .

وأسرعت عفاف وفتحت لهم باب الشقة ، وخرجوا به وهى تحس كأن يدا قاسية تهصر قلبها ، وأطالت النظر إليه كأنما تتزود منه بآخر النظرات ، والتفت إليها مجدى وقال لها :

— السلام عليكم .

فقالت له فى صوت متهدج تخنقه العبرات :

— مع السلامة !

وراحت تنظر إليهم وهم يحيطون به فى الدرج وهى صامتة ، وإن كان فؤادها يصرخ والألم يمزق أحشاءها ، ولما اختفى عنها غسلت دموعها وجهها .

٢٩

سارت نادية إلى غرفة أبيها وقد رفعت يدها بكوب اللبن ، ولما دخلت عليه ألفته جالسا فى سريره فقالت له فى ابتهاج :

— صباح الخير .

— صباح النور .

— كيف أصبحت ؟

— بخير .

وناولته كوب اللبن ، وفتحت زجاجة الدواء وأخرجت منها حبتين وناولتهما له ، فوضعهما فى فمه وشرب اللبن ، فقالت له :

— بالشفاء .

وتناولت منه الكوب فارغا وهى تنظر فى وجهه وتقول :

— الحمد لله . أنت أحسن .

فقال وهو يحرك ذراعيه :

— أنا اليوم كالحصان ، يمكنك أن تذهبى إلى الكلية .

— سأذهب غدا .

— ضيعت خمسة أيام ، وفى هذا الكفاية .

— لا تقلق ، لا نزال فى أول العام الدراسى .

وجلست على حافة السرير وقالت :

— أرجو أن تكون مستريحا هنا .

فقال لها وهو يبتسم :

— أتريدين الحق يا نادية ؟ كنت مستريحا هناك .

فلم تغضب وقالت له :

ـــ أنا فى حيرة ، كيف تترك بيتك الأنيق الجميل وترضى أن تعيش فى شقة متواضعة فى السد البرانى ؟!

ـــ نادية يا حبيبتى ، لا قيمة للبيوت ، العبرة بساكنيها « جنة بلا ناس ما تنداس » . الإنسان لا يطيق أن يعيش وحده ، لا بد من أليف أو أليفة ، إلى ما يأنس به ويأنس إليه ، أمك ماتت ، ويا ليتها بقيت لنا ، ولكن هذه مشيئة الله لا يد لنا فيها ، فكان لا بد أن أجد لى زوجة ، ولقد وجدت عفاف ، كانت مثلى ضحية ظروفها لا ذنب لها فى كل ما جرى، فلماذا تمقتينها؟ إنها يا نادية لو تدرين تستحق العطف ، تستحق أن تغمر بالحنان ، نادية .. أرجوك .. لا تكرهيها من أجلى ..

وأطرقت نادية وأحست كأنها تريد أن تبكى ، وما إن أحست حركة فى الخارج حتى فرت إليها ، فوجدت سيدة قادمة فقالت :

ـــ خيرا ؟

فقالت سيدة بصوت عال :

ـــ جاء رجل يسأل عن صحة سيدى .

ـــ نازلة حالا لأقابله .

وهبطت نادية ، ولمحت رجلا كبير السن قد جلس على الكرسى القريب من السلم ، وقد غصت الردهة بالورود التى أرسلت من أصدقاء شوقى الذين بعثوا إليه يتمنون له الشفاء .

كان الرجل هو سلطان ، ذلك الذى أحيل إلى المعاش ومد له شوقى خدمته سنتين ، فلما لمح نادية هابطة قام يستقبلها وقال :

ـــ جئت لأطمئن على صحة البك ، كيف حاله اليوم ؟

ـــ بخير حال .

فقال سلطان وهو شاخص ببصره إلى السقف :

ـــ الحمد لله ، ربنا يشفيه ويطيل لنا فى عمره .

والتفت إلى نادية وقال :

ـــ أمد بابا فى عمرى سنتين ، إن قلبه كبير ولن يخزيه الله أبدا ، لك أن تفخرى يا آنسة به ، لأنه رجل عظيم .

ومد يده ليصافحها مودعا ، فقالت له وهى تمد له يدها :

ـــ ألا تستريح ؟

فقال وهو يتأهب للانصراف :

ـــ يوم فرحك بإذن الله .

وسار وسارت خلفه حتى الباب الخارجى تودعه ، وقالت له :

ـــ مع السلامة .

وهمت بأن تعود ، ولكنها لمحت مجدى قادما فأشرق وجهها وتوجت شفتيها ابتسامة رقيقة وشعت عيناها ببريق المحبة ، ورآها مجدى وسره أنها ترقبه فى شوق ، فقال وهو يمد لها يده :

ـــ صباح النور على البللور .

ـــ صباح الخير .

وقال وهو يسير إلى جوارها :

ـــ كيف حال بابا ؟

ـــ عظيم .

ونظرت إلى مجدى نظرة فيها تساؤل ، فقال لها :

ـــ ماذا تريدين أن تقولى ؟

ـــ مجدى ، قال لى أكثر من رجل إن بابا رجل عظيم ، أحقا بابا رجل عظيم ؟

فابتسم مجدى وقال :

ـــ اثنان لا يحسان عظمة الرجل : زوجته وأولاده .

وكانا قد وصلا إلى الردهة الغاصة بالورود ، فسحبت الكرسى القريب من السلم وقالت له :

ـــ تفضل :

وتظاهرت بأنها تهم بالجلوس على الكرسى الآخر ، وجلس مجدى فى الوقت الذى سحبت من تحته الكرسى فسقط على الأرض ، ونظرت إليه وضحكت ، وقرأت فى عينيه العزم على أن يضربها ففرت منه إلى غرفة الاستقبال ، ونهض وجرى خلفها ، وراحت تحاوره فى الغرفة ، بيد أنه قبض عليها وهى مغرقة فى الضحك ، وأمسك يدها بيده ورفع كفه كأنما سيهوى بها على وجهها وهى مستمرة فى الضحك ، وما لبث أن ضمها إليها وقبلها ، فبادلته قبلته ، وأسندت رأسها على صدره فى استسلام .

وهمس فى وجد :

ـــ نادية ! أحبك

فقالت فى هيام :

ـــ وأنا أحبك .

ـــ نتزوج .

ـــ بابا فوق ، اذهب إليه وسألحق بك .

وانطلق وهو يكاد يرقص طربا ، وراح يقفز فى الدرج وهى ترقبه ولما غاب عنها التفتت إلى صورة أمها وقالت لها :

ـــ ماما . إنى أحب مجدى وسأتزوجه ، لم أكن أفهم ، هذه سنة الحياة ، كان أبى معذورا يا ماما ، وأنا واثقة من أنك لم تحقدى عليه يوما لأن قلبك كبير ، ولأنك تفهمين .

وترقرقت دموع الفرح فى عينيها فقالت :

— ماما .. أنا سعيدة .. سعيدة .. سعيدة ..

وهرولت تجرى لتلحق بمجدى ، ودخلت إلى غرفة أبيها فوقفت مشدوهة ، رأته يرتدى ثيابه ، فقالت فى دهشة :

— بابا ! ماذا تفعل ؟

— ألبس لأخرج .

— لا تستطيع أن تذهب إلى العمل

— أنا ذاهب يا نادية إلى عفاف .

فذهبت إليه وقالت له فى توسل :

— بابا ، استرح حتى ألبس وسأذهب معك .

وتمدد شوق فى سريره ، ونظرت نادية فى ساعتها والتقطت زجاجة دواء وقدمتها إلى مجدى وقالت له :

— ناوله حبة منها بعد ربع ساعة .

فقال شوق فى استغراب :

— ربع ساعة ؟ أتغيرين ثيابك فى ربع ساعة ؟

فقالت وهى تغادر الغرفة :

— أنت تعلم يا بابا أن السيدات يضيعن وقتا طويلا فى اللبس .

وانسابت هابطة وغادرت الفيللا ، وركبت أول سيارة أجرة قابلتها ، وانطلقت بها إلى السد البرانى ، وقالت للسائق :

— انتظرنى . سأعود حالا .

وصعدت إلى شقة عفاف مهرولة ، ورنت الجرس رنات متتالية ، وما أسرع ما فتح الباب عن عفاف ، ولما وقعت عيناها على نادية أوجست خيفة ، إلا أن هدوء نادية وابتسامتها ، رطبتا جفاف مشاعرها ، قالت نادية :



— صباح الخير .

— صباح النور ، اتفضلى

فقالت لها نادية :

— تفضلى معى .

فقالت عفاف فى خوف :

— ماذا جرى ؟ كيف حال شوقى ؟

— بخير .

— ما دام بخير فلماذا أذهب معك ؟

— لتريه ، تمرضيه ، لتبقى إلى جواره ، إنه زوجك وهذا حقك .

فقالت عفاف فى انفعال :

— نادية حبيبتى .

وضمتها إلى صدرها فى عطف ، فهمست نادية :

— ماما .

وهبطتا مسرعتين ، وركبتا السيارة وعادتا إلى الفيللا ، انسابتا إليها وهما فى نشوة وفرح .

ودخلت نادية وعفاف غرفة شوقى ، فإذا بشوقى يصيح وهو لا يكاد يصدق عينيه :

— عفاف .

وصاح مجدى فى حب :

— نادية .

هرولت عفاف إلى شوقى ، وجرى مجدى إلى نادية ولف ذراعه حولها ، فقالت نادية لأبيها :

— بابا . مجدى يريد أن يكلمك .

فقال شوقى وهو منشرح الصدر :

ــ تفضل يا مجدى .

فقال مجدى :

ــ أريد أن أستأذنك فى أن توافق على زواجنا .

فقال شوقى :

ــ مبارك يا بنى .. مبارك يا نادية .

وقالت نادية بعد أن قبلها أبوها :

ــ ولى رجاء .

فقال شوقى :

ــ أمرك .

ــ صورة أمى غالية عندى ، أرجو أن تسمح لى أن أحملها معى .

فقال شوقى وهو يلف ذراعه حول خصر عفاف :

ــ بكل سرور .

وتهللت أسارير عفاف ، وخرجت نادية ومجدي وكل منهما يلف ذراعه حول وسط الآخر ، وما خلفا الغرفة وراءهما حتى مدت نادية يدها وقرصت مجدى فى أذنه وجرت مهرولة فى الدرج ، فركب مجدى الدرابزين ليلحق بها وضحكات نادية تجلجل فى جنبات البيت .

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع ٥١٥٦ / ٧٨
الترقيم الدولى ١ ــ ٣١٢ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مطبوعات مكتبة مصر

النصف الآخر

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه